بكر محمد إبراهيم

غرام الشيوخ

الناشر

مركز الراية للنشر والأعلام

اسم الكتاب : غرام الشيوخ

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٣

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

رقم الإيداع : ١١٣٩١ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى
I.S.B.N. : 977 - 354 - 022 - 7

مقدمة

الحمد لله خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم]

وهو القائل سبحانه : ﴿ ... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء]

والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين وإله الأولين والآخرين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين .

وبعـــد ،،

غرام الشيوخ ... ذلك الموضوع المثير ... فإن غرام الشباب شئ معتاد ومألوف ... ولكن هل الشباب وحده هو الذى يحب ويهوى ويمارس الحب والغرام؟

إن للحب أسماء كثيرة جدا وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى فهو الحب والغرام والهيام والعشق والصبابة والوله وغير ذلك من الأسماء التى جاءت فى قواميس اللغة .

والغرام بمعنى الملازمة أى أن كل حبيب يلازم محبوبه ولا يستطيع فراقه والحقيقة أن الإنسان لا يستغنى عن الحب صغيرا كان أو كبيراً ، والحب والجنس ملازمان للإنس والجن والحيوان والنبات ، فيما عدا الملائكة فإنهم لا شهوة لهم ، والله تعالى قد جعل ممارسة الجنس هو الطريق للإنجاب وعمارة الأرض وحفظ النوع .

ومهما بلغ الإنسان من الكبر عتيًا فإنه لا يستغنى عن الحب والجنس فالرجل والمرأة يمارسان الحب والجنس إلى أخر يوم فى الحياة لا يمنعهم من ذلك إلا المرض الشديد والعجز الجنسى، وإلا فالمرضى لا يستغنون من الحب والجنس، وقد سمعت عن رجل أنجب وهو فى العشرين بعد المائة .

والشعور الجنسى موجود فى الإنسان مهما كبر وبلغ من العمر عتيا فإن الرغبة الجنسية محلها الدماغ وحتى لو لم يستطع الشيخ الكبير أن يمارس الجنس فالرغبة موجودة فى المخ والقلب لا تزول ولا تنفك عن الإنسان مادام يتنفس ويعيش .

والحب يفعل الأعاجيب ، وقد يكون دافعا لتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق أما إذا تحول إلى غيرة عارمة شديدة فقد يهدم البيوت ويحطم الحضارات ويزهق النفوس .

والمرأة المحبة تبذل الغالى والنفيس فى سبيل حبها ونيل محبوبها وارضاء حبيبها ، وتبذل وتعطى بلا انتظار لأجر أو مقابل .

وأحب شئ إلى الناس من أمور الدنيا الجنس والمال وبعض النساء يغلب عليهن حب الجنس أكثر من حب المال وتبذل الأموال الطائلة فى سبيل حبها وغرامها وبعضهن تحب المال أكثر من حبها للجنس.

وفى هذا الكتاب الموسوعى أتناول موضوع غرام الشيوخ أو من تخطى

عمر الشباب وكل قصة فى هذا الكتاب يكون أحد أبطالها من الشيوخ الذين تخطوا سن الشباب ، وهو يحوى قصصا مصرية وانجليزية وألمانية وأمريكية فهى قصص عالمية فيها العظة والعبرة والمتعة والترفيه والتعليم تتناول أحوال الشيوخ فى غرامهم وحبهم وعشقهم وحياتهم الجنسية .

وفى الشطر الأخير من الكتاب فصول عن الحب والجنس والشهوة من الناحية العلمية والنفسية والدينية وماجاء فى الحب والجنس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء والحكماء وأصحاب الخبرة.

والآن أترك القارئ يتصفح الكتاب ويستمتع بما فيه من قصص وتحليلات ومعلومات ومعارف وأرجو أن ينتفع به وهذا جهد المقل والكمال لله وحده ، والحمد لله والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

الأمير تشارلز يهجر ديانا ويحب كاميلا العجوز (١)

يندهش الكثيرون من رجل ترك زوجته الجميلة وهجر ساحتها إلى ساحة أخرى أقل جمالا ، مثلما فعل الأمير تشارلز مع أجمل جميلات القرن العشرين الأميرة ديانا عندما فضل عليها العجوز الأقل جمالا والأكثر حدة وثقل دم «كاميلا» لكن الأمر لا يثير أية دهشة أو مثلما قال «تشارلز» لأحد أصدقائه .. وجدت كل ما أحتاجه عند امرأة أقل جمالا وأكبر عمراً من زوجتي ، وجدت نفسي وعرفت أن المرأة الجميلة هي التي تجيد فنون الإرسال والاستقبال وتشعرني أنها معي على موجة واحدة ، المرأة الجميلة هي التي تجعلني أشعر معها أنني محور الكون ، وهي التي أحتاج إلى أقل قدر ممكن من الكلام للتعبير عن نفسي، وهي التي تقدم لي ما كنت أعتقد أنني لا أحتاجه على الاطلاق لكنني في حقيقة الأمر أحتاجه ولا أعرف ذلك .

يهجر الرجل حبيبته أو يفكر في ذلك عندما تنهزم مفردات نظرية السعادة بداخله ، عندما يهتز مفهوم الأمن والسكينة داخل علاقتهما .

يختار الرجل أنثى ما ليشاركها الحياة وكل ما يحلم به هو مخبأ خاص وشاطئ أمان ودفء متجدد ، يختارها الرجل ليختبئ عندها من نفسه ومن إحباطاته وصراعاته اليومية في العمل وأكل العيش والأحلام المهدرة والطموحات المؤجلة وحرب تبدأ في الثامنة صباحاً ولا تنتهي إلا عندما يضع الرجل مفتاح شقته في الباب ليدخل شاطئ الجنة فيغتسل من همومه ويستعيد ثقته بنفسه ويجدد أكسجين أحلامه، ويستبدل ما مر به من قهر طوال اليوم بلمسة حانية

---

(١) نصف الدنيا العدد ٢٦٤٢ يوليو ٢٠٠٢ . منصرف يسير .

وابتسامة رضا ويد رقيقة تربت على الكتف فترد إلى الرجل اسمه وعمره وأحلامه وبهجته وتفاؤله .

هذا هو قدر المرأة مع أطفال لا يكبرون ، خلق الله سبحانه آدم فشعر بالوحدة فتجلت حكمته بأن خلق له حواء لتكون السكن والونس على أن يقوم آدم بحمايتها وإطعامها وأن يكون نورها فى ظلال الحياة ومرآة جمالها .

خلق الله عز وجل حواء واحدة بما يعنى أنها قادرة على القيام بمهمتها منفردة على أكمل وجه ، ولو كانت حواء واحدة لا تكفى لخلق - سبحانه - أخرى في الوقت نفسه ، وقسّم المهمة على اثنتين ، لكنها واحدة فقط، أودع الله لديها من السكينة والسعادة والمحبة .

وإذا تعاملت كل امرأة مع حبيبها على أنها حواء وأن رجلها هو آدم بكل ما فى ذلك من مسئولية وإيمان وطاعة ورقة وحب ، ما رق قلب آدم إلى أية واحدة أخرى ، لكن أنثى القرن الواحد والعشرين تأبى أن تلعب دورها كاملاً وكثيرا ما تسهم بقلة اهتمامها وكسلها وأنانيتها وضعفها فى التعبير عن مشاعرها ولا مبالاتها فى أن يرق قلب رجلها إلى واحدة تلعب دورها بشكل أفضل ... وبشطارة متناهية.

التعبير عن المشاعر

لا يوجد فى العالم ما هو أسوأ من امرأة باردة المشاعر أو امرأة تحب أن يكون لهذا الحب قدمان ويدان وروح ، حب لا دليل على وجوده ، حب لا يستطيع الرجل أن يلمسه أو يراه .

أنثى ضعيفة المشاعر تلك التى تكتفى فى وقت المصارحة العاطفية بقولها لحبيبها «أنت عارف كويس إنى بحبك» ربما يكون هذا حقيقياً يظل حباً بلا

رائحة أو لون أو طعم ، فكلنا نحب - على سبيل المثال - مصر بشدة ، لكن يظل الفارق ضخماً للغاية فى هذا الحب ما بينى وبين الزعيم مصطفى كامل .

الحب الحقيقى هو الذى يعصف كالإعصار ، ويكسر كل الأسوار ، أن تحب ... شئ ... وأن تعبر عن مشاعرك شئ آخر .

وخُلقت المشاعر ليتم التعبير عنها ، لا ليتم حفظها فى أكياس داخل «الديب فريزر» ، وكيف لى أن أشعر بالحب وأن أكون ممتناً لمشاعرك وأبادلك إياها ما لم تقدم لى دليلاً قوياً على وجودها .

والموضوع ليس بالصعوبة التى نعتقدها ، فالتعبير عن المشاعر من أبسط ما يكون «إذا كان الحب حقيقياً» ، فقط كل ما عليك هو أن تترك القيادة لروحك العاشقة وسر خلفها وعش مغامرة الحب ، لا يقيدنا خوف أو خجل أو تردد أو حسابات عاطفية بلهاء من نوعية «شكلى هيبقى إنى مدلوقة عليه» على العكس تماماً لا يوجد فى العالم شخص لا يرد الهدية عندما تسنح له الظروف بذلك ، ولا يوجد فى العالم هدية أفضل من فعل حدث بدافع الشعور بالحب .

والأنثى التى تعبر عن مشاعرها وعن حبها طوال الوقت تملك على الرجل قلبه بشدة ، وتجعله أسيراً لا يملك فكاكاً من الشعور بالسعادة والامتنان وضرورة مبادلة الحب بحب أعظم منه .

والوسائل كثيرة والأفكار لا تنتهى، والتعبير عن المشاعر يبدأ بلمسة يد ، ولا ينتهى عند قبلة .

الهدايا البسيطة المفرطة فى الرقة والشياكة وسيلة سهلة للغاية ، وهى لا تحتاج لمناسبة ، بل كلما كانت بلا مناسبة كلما كان وقعها أشد على روح وقلب الرجل ، هدايا تبدأ بما قد يحتاجه الرجل فى مهنته من أدوات مكتبية، أباجورة،

بورتريه شيك يضعه فى مكتبه، (مَج، أقلام ، ساعة ، أية قرانية ، برواز ... إلخ) وتمر بتفاصيل ملابسه (يفرح الرجل بشدة إذا وجد زوجته بدون مناسبة تستقبله بقميص جديد ـ مثلا ـ اشترته له على ذوقها) ، ولا تنتهى عند رابطات العنق ، واسطوانات ، وكماليات لسيارته ، وعطور ، ونظارات شمسية ... إلخ .

تفصيلة الهدايا لا يشترط أن تكون منظمة ولها خطة ، بل يجب أن تكون عشوائية ، أن تصحو المرأة فى يوم ما سعيدة بوجودها إلى جوار هذا الرجل فتقرر أن تعبر له عن سعادتها بذلك ولو بعلبة شيكولاته من النوع الذى يفضله زوجها ، بشرط ألا يكون هذا بطلب منه ، وألا يتوقعه على الإطلاق .

الكلمة الطيبة صدقة ، فما بالك بكلمات من نوعية «أنا محظوظة لأنى عايشة معاك، ما قدرش أعيش من غيرك ، أنت أجمل حاجة فى حياتى ، أنا أكتر واحد بيحبك ... إلخ» لا يوجد رجل يستمع إلى جملة واحدة صادقة تعبر عن حب حقيقى ولا يرد عليها بعشر جُمل أقوى.

ابتسامة الرضا تعبير عن الحب ، تلك الابتسامة التى تفرض نفسها فى أحلك الظروف ، تلك الابتسامة التى ترافقها جُمل بسيطة من نوعية «ولا يهمك ، وبكرة تتعدل» ، ابتسامة ممزوجة بالشعور بالرضا ، أى رفقة محبة أقوى من تلك الابتسامة؟! .

لمسة اليد الطيبة ، ورود تصل إلى الخارج فى عمله بلا مناسبة ، مكالمة تليفونية سريعة فى منتصف النهار «بس باطمن عليك» ، رسالة على الموبايل بدون موعد وبدون مناسبة تصل إلى الزوج وهو فى اجتماع أو وهو جالس بين أصدقائه أو يقود سيارته فى عز الحر والزحام ، رسالة قصيرة من كلمتين "MISS YOU" دعوة على العشاء «هل يفترض أن يقوم بها الرجل مرة لأنه يحبك ، لماذا لا تكونين صاحبة الدعوة وأن تكون على حسابك بجد من

الألف إلى الياء تبدأ بأن تقودى السيارة بنفسك ويجلس هو إلى جوارك؛ مروراً باختيار المطعم الذى يفضله ، نهاية باشارة منك إلى الجرسون ... «الشيك لو سمحت» ، أو اجعليها داخل منزلك بترتيب خاص منك ، الشموع والورود والأكلة المفضلة، أن يصحو الزوج من النوم على صوت شريط يحبه تنبعث خافتة من الكاسيت وكأنه يحلم ، ميدالية جديدة فضية لمفاتيحه .

لكل واحدة قدرتها وطاقتها وأسلوبها فى التعبير عن مشاعرها ، أعرف ذلك ، وما سبق أن قدمته من أفكار هو مجرد وسائل مساعدة ، وليست هى القاعدة المجردة الوحيدة ، وأعلم جيدا أن هناك كثيرات أكثر جنوناً وتألقاً التعبير عن مشاعرهن ، ويمتلكن أفكاراً أفضل من تلك لكن هناك بعض الثوابت مهما اختلفت طرق التعبير عن المشاعر ، وأحد أهم هذه الثوابت التصريح بالحب دون تردد أو خجل لأنه يمنح الرجل القوة والثقة «قولى أحبك ... كى تزيد وسامتى ، فبغير حُبكِ لا أكون جميلاً ، الآن قوليها ولا تترددى ، بعض الهوى لا يقبل التأجيلاً » !

الرجل «نجم» العلاقة العاطفية

جملة بها قدر كبير من التعسف والجور على وضع المرأة داخل العلاقة ، لكن هذه الجملة لابد أن تكون هى واجهة العلاقة ، هى النتيجة النهائية ، المرأة الذكية تستطيع أن تفعل ذلك ، تجعل الرجل ـ ظاهرياً أمام نفسه وأمام المجتمع ـ هو نجم العلاقة ، بينما نجمتها الحقيقية وموتورها ووقودها وواضعة خطط اللعب والعمل هى المرأة نفسها .

الحقيقة التى لا يعرفها البعض أن تقسيم الأدوار داخل العلاقة العاطفية يجب أن يقوم على فكرة واحدة ، وهى أن الرجل مسئول عن المرأة ، والمرأة مسئولة عن العلاقة ، ويستقر الرجل كثيراً وتنضج مشاعره ويتجلى عن أنانيته

وعن بعض طفولته عندما يتأكد فى أقصى أعماق نفسه أنه يقتسم حياته مع أنثى حريصة على العلاقة وتدافع عنها وتحميها وتثابر بقوة لكى تنجح .

الرجل «نجم» العلاقة العاطفية جملة ماكرة مضمونها يحتاج لقدر من التأمل ، وهى جملة أشبه بجملة «سيد القوم خادمهم» !

يطمئن الرجل كثيرا وتتأجج أواصر علاقته بشريكة حياته عندما يشعر أنها تناضل طوال الوقت لتنقية العلاقة من أية شوائب وأنها لا تضع لها أية بدائل ولا تستسهل التخلص منها إذا ما واجهتها أية عقبات وأنها لا تطرح أفكاراً من نوعية «لازم نأخذ إجازة من بعض، محتاجة أروح عند ماما، لازم أقعد مع نفسى شوية ، أنا مش مبسوطة ما عرفش ليه ، أنا شايفة إن التوتر اللى احنا فيه ده مالوش حل غير إننا نسيب بعض ... إلخ .

عندما يشعر الرجل أن تخلى شريكته عنه يمثل لها خسارة معقولة وليست جسيمة تتغير نظرته للعلاقة كلها ، وعندما يرى أنها تجد أن الانفصال أو إنهاء العلاقة أسهل عندها من بذل مجهود «وشوية حب» للحفاظ عليها ، تختل درجة تمسكه بشريكة حياته ، ويبدأ العد التنازلى لثقته فى شريكته ، وثقته فى نفسه ، ويعيد حساباته فى مدى جدوى العلاقة بينهما ، وحفاظاً على كرامته سيقضى عليها قبل أن يُقضى عليه .

يحتاج الرجل لأن يشعر أنه ليس مجرد عريس مناسب ، أو شخص لطيف والحياة معه لطيفة ، أو رجل وخلاص ، ولا يجب أن يلعب دور عريس مناسب فى وقت مناسب ، ويحتاج بشدة للتأكيد على أنه الاختيار الأفضل وأن شريكته على كثرة البدائل المتاحة أمامها اختارته هو وأصرت عليه ، وأنه خارج المنافسة ، وأن الحياة معه مشروع ضخم ، وأن الانفصال عنه خسارة لا تضاهيها أية خسارة ، وأنه كان محقاً عندما تخلى عن أخريات يطاردنه بقوة

بإصرار فى مقابل أن يحظى بهذه الشريكة لأنها أفضل منهن كلهن ، وأنه فى علاقة تكاد جذورها القوية أن تنفذ من الجانب الأخر للكرة الأرضية .

يحتاج الرجل لأن يشعر بهذا دوماً وهو ما أراه سهلاً على أية أنثى حتى لو كان شريكها فى الحياة قد اختارته بحسبه العريس المناسب ، أن تمتلك مهارة تنصيب زوجها ملكاً فى منزله وحياته شئ يجعلها تجلس إلى جواره مطمئنة على العرش.

حكايات السويركى القديم (١)

السويركى الجديد عرفناه وطبقت شهرته الآفاق لأن عدد زيجاته تراوح فى أقوال الصحف بين العشرين والتسعين - ولن أفيض فى الحديث عنه لأنه الآن بين يدى النيابة العامة كان الله فى عونها ، إذ كثرت القضايا التى انشغلت بها فى الفترة الأخيرة قضايا أموال تُنهب وأخلاق تُنتهك - وقوانين كأنها غير موجودة هكذا نضرب صفحا على السويركى الجديد ونتحدث عن السويركى القديم الذى عرفته فى ظروف غير سعيدة ، فقد دفعته الشهامة والمروءة ذات يوم إلى أن يتحمل عن الآخرين مسئولية أوراق وجدت بحوزته مع أنها لا تمت إليه بصلة فقد كان له قريب يعيش عنده معظم أيامه إذ كان هو فى ذلك الوقت يعيش منفردا .

وكان قريبه هذا عضوا فى جماعة يسارية تقتفى أثرها الشرطة ، فهاجمت منزل قريبه «السويركى القديم» لتفتيشه فوجدت هذه الأوراق الخطيرة عنده ، فسألته من صاحبها ، فقال أننى صاحبها وهى أوراقى فقبضوا عليه وظل معتقلا حوالى عامين وتحمل هذا العذاب نيابة عن قريبه بدافع الشهامة

(١) جريدة الوفد الخميس ١٤ يونيو ٢٠٠١ العدد الأسبوعي ، أ. محمود عبد المنعم مراد.

تعارفنا ، ولم يكن اسمه فى ذلك الوقت السويركى ، بل كان اسمه الحقيقى عبد السلام على أننا بعد تعرفنا عليه سميناه البلبل لأنه وديع رقيق ظريف وأن لم يكن يغنى .

بل كان ينظم الشعر الرقيق وينشره فى الصحف عندما يخلى سبيله ـ ولما عرفناه قيل لنا أنه مزواج ـ فعلها سبع مرات أو أكثر وهكذا عندما ذاع صيت السويركى سميته السويركى القديم رغم اختلاف شديد يفرق بينهما فى الخصال والثراء والتعامل مع القانون والتقاليد ـ فصديقنا البلبل أو السويركى القديم لا يتزوج أكثر من واحدة فى وقت واحد وليس على قدر من الغنى يمكنه من أن ينفق على النساء مثلما ينفق السويركى الجديد .

كل ما فى الأمر أنه صاحب حساسية شديدة ، ويحب الحرية والانطلاق ويكره القيود بما فيها قيود الزوجية .

وقضينا معا أكثر من عام فى غرفة مظلمة لا أثاث فيها سوى جردلين أحدهما للماء نشربه أو نغتسل به والثانى لقضاء الحاجة ، وعندما يأتى المساء ونجوم الليل تظهر تضئ ضوءا خافتا ونستخدم قطع الحلاوة الطحينية الزائدة عن حاجتنا وقوداً نصنع عليه الشاى فى كوزين صفيح ونظل نحتسى الشاى ونتكلم ، وكان هو أحيانا يقول لنا شعرا غير أننا كنا مبهورين بحكاياته المثيرة المدهشة عن زيجاته التى كنا نضع لها أرقاماً ونطالبه عند الاقتضاء بأن يروى لنا حكاية الزيجة رقم ١ أو ٣ أو ٥ أو ٧ ولست أدرى لماذا كانت عجائب وغرائب الزيجات هى ذات الأرقام الفردية أما الأرقام الزوجية فلم يكن يجئ لها ذكر إلا نادرا لأنها بالصدفة المحضة كانت قصصا عادية خالية من الاثارة أما الحكايات الفردية فهى كانت تتحفنا ـ ومهما رواها أكثر من مرة كنا نشتاق إلى سماعها ونطالبه بأن يعيد روايتها علينا .

فيقول أحدنا نريد سماع القصة رقم ٣ فيصيح أخر لا بل نريد رقم ٧ ، فيقول ثالث أن رقم ٥ هى أمتع القصص ويظل هو ساكتا هادئا كعادته طيب المعشر مهذبا لا يعلو صوته على أصوات الآخرين

وفى ذات مرة سألته بينى وبينه كيف كان يتحمل نفقات الزيجات الكثيرة ونفقات الخلاص منهن بالتي هى أحسن ـ فقال لى والخجل يبدو على وجهه أن الله سبحانه وتعالى يدبر له أموره ـ فقد ورث عن أبيه حوالى ثلاثين فدانا من أجود الأراضى الزراعية واخصبها وقربها إلى المدن الكبيرة العدد هذا بالاضافة إلى أنه كان موظفا بالحكومة يتقاضى مرتبا يكفيه وزيادة ، ولم يكن له أهل نعرفهم أو نراهم عنده ـ فقد كان يعيش أما أعزب بمفرده أو متزوجا يحب أن يختلى بزوجته ولا يراها أحد .

وقد ألححنا عليه ذات مرة أن يحكى لنا حكاية الزواج رقم ٥ وكان هو عندما نذكر له هذا الرقم يتأثر ويميل وجهه إلى الاصفرار وترتعش يده رعشة خفيفة – كانت لهذه الحكاية ذكريات مؤلمة وشاذة ومثيرة – وكان من المفروض ألا يكرر روايتها لنا – فالحق أنها كانت جديرة بأن يختزنها داخل نفسه ولا يبوح بها لأحد .

ولكن مع الإلحاح من جانبنا أو مع الرغبة فى التفتيش عما به يرويها وفى كل مرة لصوته وتقاطيع روايته نغم خاص وتلوين فريد – نقول له – أرو لنا يا عبد السلام أو يا بلبل قصتك الطريفة رقم ٥ فيتنهد وقليلا ما كان يتنهد مثلما يفعل المعتقلون جميعا ، فهم يتنهدون من شدة الوجد والذكريات والحنين إلى الأهل والحرية ـ أما هو فلم يكن يتنهد لذلك ـ بل كان يفعل عندما يهم بأن يقص علينا الحكاية الخامسة بالذات، وكنا نحترم مشاعره ولا نحاول أن نحرك أشجانه.

يقول عبد السلام : كنت أسكن وحيدا فى مسكن قريب من وسط العاصمة، وكان يسكن فى الشقة المواجهة المواجهة لى والقريبة منى بأمتار قليلة شاب يعيش مع فتاة لا هى خادمة عنده ولا هى زوجة ، وكانت جميلة جمالا فريدا مثيرا ، وكان هو ينتقى لها ثيابا تناسب جمالها الفريد وكنت كلما اقتربت من باب شقتى وبدأت أخرج المفتاح من جيبى لأفتح بابها أراها تفتح باب شقتها وترمقنى بنظرة يصعب على أن أفهمها - فهى مزيج من الحنان ربما لأنى أعيش وحيدا ومن الأغراء ربما لأنها بارعة الجمال - ومهما يكن من أمر فقد أصبحت أكاد أجن إذا غاب مرآها عن ناظرى ذات مرة وأنا أفتح بابى وأدير رأسي نحوها اتطلع إلى رؤيتها - ولم يكن يدور بيننا كلام بل كانت العيون هى التى تتكلم - وطال هذا الكلام الصامت بيننا وأنا أكاد أجن من الوجد والشوق حتى أصبحت لا أعراف لى طريقا للخلاص من هذا الاغراء الشديد الذى تحدث عنه أوسكار وايلد ..

وقال أن خير وسيلة للخلاص منه هو أن يستسلم المرء له . وحدثت نفسى كيف استسلم وهى تعيش حياتها مع رجل أدرك باحساسى الداخلى أنه ليس من أقاربها ، ولا هو زوجها - فماذا أفعل معها ومعه وهو الذى يحيينى باحترام كلما التقينا بالصدفة ... ولم استطع أن احتمل هذا العذاب فالبنت حلوة وجميلة ومثيرة وأنا أعيش وحيدا أعانى وأتألم - وأخيرا كان لابد مما ليس منه بد - ونقرب بابها ففتحت الباب وابتسمت مع دهشة خفيفة لأنها كانت أول مرة أدق بابها وسألتها عن صاحبها الذى تعيش معه فقالت له إنه موجود هل تريد أن تلقاه قلت لها نعم فدعتنى إلى الدخول ودخلت وجاء هو مندهشا فانتحيت به جانبا وقلت له هامسا لن أطيل عليك ، أنا قادم لا خطب منك الفتاة التى تعيش معك فزادت دهشته قليلا ثم سألنى هل أنت مصمم على ذلك ، قلت له نعم وإذا صادف العرض قبولا منك ومنها فأنا مستعد للاستجابة لمطالبكما فأستأذن

وعاب فى غرفة مجاورة وعاد ليبلغنى قبولها لرغبتى ... وجاء المأذون وتزوجنا وطلبت منه أن يعدنى بأن يقطع صلته بها بمجرد زواجنا - فأقسم واطمأن قلبى - وبعد شهور عدت إلى البيت فى وقت مبكر وعلى غير العادة وفتحت الباب بالمفتاح فوجدتهما معا فى غرفة النوم وانتهت القصة وانتقلت إلى مسكن آخر وبعد شهور علمت أنها وضعت ولدا قالت لى أثناء زيارة مفاجئة منها أنه ابنى - فقلت لها دعيه عندك وسأتحمل نفقات تربيته إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا.

ولم يشأ أن يزيد . وساد الزنزانة صمت رهيب ولكننا رأينا أن نخفف عنه مشاعره فقال أحدنا دعك من هذه الحكاية وقص علينا القصة رقم ٧ قصة الواحات الخارجة .

كنا قد سمعناها كثيرا وهى بموقعها فى واحة يكثر فيها النخيل وتلمع نجوم السماء - قصة رومانسية يستطيع الشاعر أن يبدع ويلون مقاطعها وهو يرويها - كان قد نقل إلى الواحات واستأجر غرفة مفروشة وقابله رئيسه بالترحاب وعرض عليه أن يزوره بالمنزل تخفيفا عن وحدته فى غرفته - ولما زاره وجد عنده زوجة وابنتين من أول لحظة أعجب بواحدة منهما اعجابا شديدا وكان رئيسه رجلا مقامرا ومتحللا من قيود الأخلاق فكان يترك صاحبنا عبد السلام فى منزله يسهر على راحته مع الزوجة والبنتين الجميلتين ويخرج هو ليلعب الورق مع بعض رفاقه فى منزل آخر.

وكان البلبل يدعو النسوة الثلاث إلى المشى فى ليل الواحة الهادئ يتحدث معهن وينبسط ويلقى منهن جميعا ترحيبا ومؤانسة ، واشتعل الحب فى القلب وزاد الوجد وأصبحت الوحدة مملة شديدة الوقع على نفس البلبل المرهفة - وعرض على رئيسه المضياف أن يزوجه ابنته الكبرى فقال له رئيسه ولماذا

اخترت الكبرى رغم أن كل الآباء يفضلون أن يزوجوا الكبرى قبل الصغرى إلا أنى لمحبتى لك أعرض عليك أن تتزوج الصغرى التى هى أجمل وأشد فتنة - وظلا يتحاوران - ولكن البلبل الصداح لم يغير رأيه مهما يطول الحوار ورضخ الأب وجاء المأذون وعقد قرانه على البنت الكبرى وأخذها إلى منزل الزوجية .

وبعد أسابيع شاء عبد السلام أن يعود إلى القاهرة فى اجازة قصيرة ليرى أهله وأصدقاءه وركب القطار ووجد عاملا يعمل معه فى مقر عمله دنا منه وحياه وقال له أننى أعمل معك وأعرفك وأدرك أنك رجل طيب الخلق وابن حلال وعندى ما أقوله لك ولكنى أخجل - فقال له عبد السلام قل ما عندك ولا تخجل ولا تخف شيئا - فقال له الفراش أن رئيسنا فى العمل الذى صاهرته وتقضى الليل كله فى منزله وهو غائب عنه رجل كاذب غير ذى خلق ولم يدهش عبد السلام - بل حثه على الإفاضة فقال الفراش أن هذا الرئيس زوجك ابنته الكبرى وهى على ذمة رجل آخر يعيش فى الاسكندرية وقد دب بينهما خلاف فتركته هناك وجاءت مع أسرتها إلى الخارجة وعندما وجدوك ملحا فى أن تتزوجها زوجوك إياها لأنه طامع فى المهر الذى دفعته - وعاد البلبل إلى الواحة بعد الزيارة المقتضية للقاهرة وصارح حماه بما سمع - فقال له رئيس العمل إنك ألححت وظللت أحاول أن أجعلك تتزوج الصغرى ولكنك لم ترضخ - وعلى أية حال فإن الله قد أمر بالستر وسوف استدعى المأذون ونضع نهاية لما حدث وكل ما دفعته سأرده إليك مع رجائى أن تمهلنى إلى ميسرة .

وروى لنا عبد السلام «البلبل» السويركى القديم كيف أن صيته قد ذاع وشاع وانتشر فى المدن والقرى والدساكر وعرف الناس جميعا أنه رجل مزواج يحب النساء الجميلات ولا يهمه أن يبيع فى كل زيجة فدانا ، أو فدانين من الأرض يدفع بثمنها المهر المطلوب وإذا اقتضى الأمر أن يسرح زوجته بالمعروف

ويعمل بالقول السائر - بأن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله - فلا مانع عنده من أن يبيع فدانا آخر يدفع بثمنه المؤخر مضافا إليه النفقة .

وهكذا كان من اليسير عليه أن يغير زوجاته ويقول أننى أغيرهن كما أغير أحذيتى - ورغم هذه المقولة السخيفة إلا أنه فى حقيقة الأمر كان بالفعل طيب القلب رقيق الحس - وكل ما فى الأمر أنه لا يستطيع أن يقاوم إغراء النساء مهما كلفه ذلك من خسارة مادية أو أدبية . ثم قال الآن سأقص عليكم آخر القصص التى مرت بى قبل أن آتى إليكم فى هذا المعتقل دون أن ارتكب ذنبا - فأنا لست يساريا ولا يمينيا ولا اشتراكيا ولا رأسماليا ولا علاقة لى بالسياسة من قريب أو بعيد ولعل الله سبحانه وتعالى يرى أن ما أفعله لا يخلو من خطأ استحق عليه العقاب - وعلى أية حال سوف أروى لكم هذه القصة القصيرة التى لم تسمعوها من قبل ... وزاد شوقنا إلى سماع الجديد من حكاياته ... قال كنت فى ساعة قيلولة ارتاح بعد الغداء وحيدا لا يجالسنى أحد - ودق جرس الباب ودهشت من ذا الذى يجئ لزيارتى فى هذا الوقت من النهار وأنا أكاد أكون مقطوعا من شجرة - وقمت وفتحت الباب فإذا بى أجد سيدة متوسطة العمر ومعها فتاتان فى ريعان شبابهما وكلهن جميلات يلفتن النظر - وكنت فى ذلك الوقت رجلا أعزب لا زوجة لى ولا عشيقة فوقفت أمامهن مذهولا لأنى لا أعرفهن ولم أرهن من قبل وسألتهن ماذا يردن قالت أكبرهن وقد علمت بعد ذلك إنها أم البنتين يا أستاذ عبد السلام أننا جئنا إليك من المنصورة بعد أن سمعنا عنك الكثير وإنك تحب الزواج وعندى هاتان الفتاتان الجميلتان كما تراهما وقلت بدلا من ضياع أحدهما أجئ إليك بعد أن عرفت عنوانك وسمعت عن طيبة أخلاقك لتراهما بنفسك فلعلك تعجب بواحدة منهما ... وظل عبد السلام صامتا ثم ابتسم وقال لها يا سيدتى أن الجميلة التى أود لو أتزوجها هى أنت ... أمهما فإنك أنت نصيبى وهوايتى ومزاجى ... وكانت تلك زيجة أخرى ...

تجار الزواج ... يتساقطون

السويركى ١٩ زوجة .. وتاجر الموبيليا ٢٣ .. والبقية تأتى :(١)

فى ظل أزمة الزواج التى يعيشها الشباب والفتيات ظهر على سطح المجتمع رجل من نوع خاص جداً يتزوج فى حياته أكثر من عشرين امرأة ويطبق قانون ٤ زوجات لا تكفى لمعاشرة الرجل فى وقت واحد ... عيناه زائغتان، يحب ويهوى النساء ... يعشق التجديد النصفى لشريكات حياته يذوب بشراهة فى الجنس الآخر ويبحث فى زيجاته عن القاصرات .

إن له تركيبة اجتماعية ونفسية خاصة بعيداعن رجال هذا الزمان ، يستغل المال فى ترويج أفكاره المجنونة ويشترى ويبيع فى أعراض الفتيات ويتحدى الشريعة والقانون فى تنفيذ رغباته المدمرة ... فماذا يقول علماء النفس والاجتماع عن حال وشخصية هذا الرجل ؟ ولماذا يلجأ للزواج من فتيات قاصرات فقط ؟ وما هو الدافع الذى يجعل فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها تتزوج مثل هذا الرجل ؟

فى الوقت الذى أعلن فيه رئيس الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء عن أن هناك ٨ ملايين و ٩٦٢ ألفا و ٢١٣ فتاة وشاباً فى مصر لم يتزوجوا وقد وصل سنهم إلى ٣٥ سنة تظهر مفاجأة امبراطوريات النساء ويحطم تاجر الموبيليا الرقم القياسى فى تزوج النساء حيث وصل إلى ٢٣ فتاة ولولا الادارة العامة لمباحث الأموال العامة لحقق أرقاما عالمية وتعدى بمراحل السويركى الذى تزوج من ١٩ فتاة خلال فترة قصيرة والذى يقضى الآن عقوبة السجن بسبب جمعه بين خمس زوجات وتزويره فى شهادات الميلاد .

---

(١) جريدة الوفد ٢٤ أغسطس ٢٠٠٢م.

استعان تاجر الموبيليا والسويركى بأحد العاملين لديه فى هذا الزواج ويطلق عليه «كاتم الأسرار» وفى بعض الأحيان يقوم بدور المحلل إذا راودت الامبْراطور فكرة العودة لإحداهن .

وقد كشفت احصائية أخرى من الجهاز المركزى للتعبئة أن عدد المتزوجين من أربع سيدات ٣٢٤٢ شخصا وهؤلاء يمثلون ٠.٠٣٪ من اجمالى عدد المتزوجين الذين يصل عددهم إلى ١٠ ملايين و ١٣ ألفا و ٣٨٠ شخصا وأن ٣٧ من المتزوجين بأربع حاصلون على درجة الدكتوراه الجامعية و ٢٠٩ حاصلون على شهادة جامعية و ٩٧ حاصلون على شهادة فوق المتوسطة .

وأن عدد المتزوجين من اثنتين لا يتجاوز ١٥٣ ألف رجل .

تجار الزواج

وقد كشفت صفحات الحوادث أن هناك رجالا حطموا الأرقام القياسية للزواج ومنهم تاجر الموبيليا الذى تزوج من ٢٣ فتاة وجمع بين ٦ منهن فى مرة واحدة وأنه أقام مع إحدى زوجاته ١٢ يوما فقط وأخرى لمدة ٢٢ يوما وثالثة لمدة ٤٧ يوما ورابعة لمدة خمسة أشهر وأربعة أيام وخامسة أقام معها لمدة ستة أشهر و ١٧ يوما وسادسة أقام معها لمدة عامين أما الوحيدة التى ظلت معه لمدة ٢٣ سنة فهى الأولى .

وأنه كان يستغل فقر الفتيات فى الزواج بهن وإغراءهن بالمال وكان يبحث دائما عن الفتيات القاصرات وكان قد سبقه فى ذلك النهج الذى لا يعترف بقانون أو شريعة السويركى الذى تزوج خلال عمره ١٩ زوجة، وجمع أيضا بين ٥ زوجات فى وقت واحد .

شخصية هسترية

وحول تحليل شخصية امبراطور النساء الذى يتزوج بصفة مستمرة بلا حدود يقول الدكتور عصام محمد عبد الجواد استاذ الصحة النفسية بجامعة القاهرة : إن هذه الشخصية هيستيرية تتأثر بالايحاء ويبحث عن تحقيق الذات بطريقة أو بأخرى ويحاول أن يفعل أشياء تجعله مرغوبا لدى المجتمع ليؤكد لذاته أنه شخص سَوِيٌ وهذا ما يفعله البعض ، ولكن يجب أن نبحث فى الماضى لكل هؤلاء الأزواج.

فقد تكون هناك أسباب قوية جعلت هؤلاء مرضى نفسيين، فقد يكون قد رفضته أنثى للارتباط به منذ الصغر وأصبحت لديه عقدة من النساء وعندما لعب المال فى يديه بدأ ينتقم من الفتيات ويتزوج أكثر من فتاة ليشبع رغبته أو يسد عقدة النقص التى تؤرق حياته ، كما أنه يمكن أيضاً أن تكون لديه رغبة فى إشباع جنسى متواصل ومع أطراف متعددة بسبب فشله جنسيا منذ بداية حياته وظل يتزوج من فتيات ليؤكد لذاته أنه قادر جنسيا وهذا المرض يحدث للرجل مثل ما يحدث للمرأة تماما فإننا نجد أيضا هناك نساء تتزوج أكثر من مرة ولا تريد الاستقرار لأنها تبحث عن اشباع ذاتها والانتقام من الرجال .

والحقيقة التى تكمنها مراحل عمر هؤلاء الرجال تكشف لنا الكثير إذا درس طبيب نفسى هؤلاء خلال مراحل نموهم .

كما يرى د. عصام : أن التنشئة الاجتماعية والعوامل الوراثية هى التى تتحكم فى بناء شخصية الفرد ويمكن أن يكون إنسانا سويا أو غير ذلك وفقا لتلك العوامل .

وتضيف د. عزة سليمان مدير مركز التخطيط الإقليمى واستاذة علم الاجتماع، أن لجوء هؤلاء الرجال إلى الفتيات القاصرات يرجع إلى العامل الاقتصادى والفقر الذى يعيش فيه المجتمع حيث يرى الأب الذى يقع على عاتقه توفير احتياجات البنت وبعد ذلك تتزوج وتتركه فإنه يزوجها لأحد هؤلاء ويبقض الثمن معتقداً أن المال هو ألذى سيحقق سعادة ابنته وسعادته أيضاً ويقدم طفلته على طبق من فضة لمثل هؤلاء الرجال ... وفى النهاية يضيع مستقبلها بعد إلقائها فى الشارع ومعها بضعة جنيهات .

وتضيف د. عزة أن المشكلة تكمن فى الأمية التى تستشرى فى مجتمعنا بهذه الطريقة حيث أنه لو كان الأب متعلما فإنه لا يمكن أن يلقى بفلذة كبده فى بحر هؤلاء الرجال الذين يكبرهم بسنوات كما أن هناك أمية دينية لدى أهل الريف والفقراء جعلت هؤلاء يتصرفون فى البنات وكأنهم قطع بشرية للبيع والشراء والمتاجرة بهن مع هؤلاء الرجال الذين يتاجرون بالزواج ويجعلونه مشروعا مؤقتا ينتهى وفقا لأهواء المشترى الذى يدفع تكاليف الزواج والمهر ومؤخر الصداق فى أى وقت يريد فيه إنهاء ذلك المشروع ، وهذا الأمر لا يقره دين أو شريعة على وجه الأرض وللأسف الشديد تحدث فى مصر مثل هذه التجارة الخاسرة والتى اعتبرها شخصيا «تجارة الرقيق» ، ولكن بتقنين قانونى اتخذه البعض من أجل تنفيذ رغباته الشاذة واهدار كرامة المرأة والأسرة فى مجتمع لا يعرف الشواذ.

ويضيف د. عصام عبد الجواد : أن الفتاة المراهقة والقاصر هى التى يمكن أن تكون محور عقل هذا الرجل المزواج وهذه الفتاة من السهل التأثير عليها وذلك لأن أحلام اليقظة عندها تتركز فى المال الذى يحقق لها كل شئ من

سيارة وشقة فاخرة وذهب وإكسسوارات وفى حالة فشل الزيجة فإنها أيضا ستحصل على نفقة متعة ومؤخر صداق يؤهلها للسعادة كما تعتقد .

وهذا ما يحدث كذلك بالنسبة لأهلها حيث إنهم يعتقدون أيضا أن سعادة ابنتهم تتركز فى المال وعند زواجها سوف تمتلك الرجل وأمواله .

وفى نفس الوقت تتمتع الأسرة بجانب الفتاة بهذه الأموال ويوافق الأهل على ذلك الزواج بسرعة دون تفكير فى عواقبه ويتم فى سرية تامة حتى لا يحسدها أحد على الثراء الذى سيعيشون فيه هى وأهلها وهذا فتح الباب أمام هؤلاء الرجال للزواج من القاصرات بدون أى مشاكل .

ووجدوا فى ذلك الأمر متعة وأصبحت طريقا سهلاً للزواج من الفتيات القاصرات ونهش لحم البنات الصغيرات دون رحمة أو دين أو أخلاق مستغلين فقر وجهل هؤلاء لإشباع رغبتهم .

ويطالب د. عبد الجواد بضرورة إنشاء مكاتب استشارية فى مراكز الصحة المنتشرة فى القرى ويكون بها طبيب نفسى وأخصائى اجتماعى لتنوير الفتيات المقبلات على الزواج بأمور الزواج وتعاليم الإسلام والمحرمات وكيفية التعامل مع الزواج وكل ذلك سوف يمنع من ظهور مثل هؤلاء الرجال .

وتضيف د. عزة سليمان إن شيخ القرية يقع على عاتقه عبء تنوير الفقراء وحث الآباء على منع تزويج بناتهن لتجار الزواج حرصا على مستقبلهن ومستقبل القرية المصرية التى تعرضت فى الفترة الأخيرة لهجمة شرسة من هؤلاء الرجال الذين يتلاعبون ويستغلون فقر القاصرات ويتزوجونهن ويطلقونهن بعد ذلك ليزداد المجتمع فساداً .

الدين

حول رأى الدين فى هذه الزيجات يرى الشيخ سعيد عبد القادر - مدير أوقاف الخانكة : أن تعدد الزوجات مباح فى الشريعة الإسلامية ولكن بشروط حددها الإسلام ولها علتها وحكمتها ، فقال : سبحانه وتعالى «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا»

ولذلك كانت الإباحة مشروطة بالعدل بين الزوجات ولا يجوز الجمع بين أكثر من أربع زوجات فى وقت واحد حيث قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع» .

وهذا الأمر لا يختلف فيه أيضا الصحابة والأئمة والمجتهدون ومن يخالف ذلك فإنه قد خالف الشرع ويكون حراما ويعتبر زنا وهذا ما فعله البعض فى الآونة الأخيرة. ولذلك فمعظم هذه الزيجات المتقاربة من بعضها البعض لا تسمى زواجا بالمعنى الشرعى الصحيح وذلك لأن الزواج يتم فى الظل ودون أن تعرف العروس شرط الزواج وكذلك الأهل ويحلل المأذون ما يريده الرجل المزواج ويحرم كيفما يشاء دون الرجوع للشريعة الإسلامية واتباع تعاليمها فى أمور الزواج ويجب أن تكون هناك رقابة شديدة من وزارة العدل والتفتيش القضائى بصفة مستمرة على المأذونين الشرعيين لأنهم طرف أساسى فى مثل هذه الجرائم التى تتم فى مكاتبهم أو فى دائرتهم وهم الذين يقننون هذه الأفعال المخالفة للشرع والدين .

عندما ينهار الجبل (١)

ما أقسى على النفس أن ترى رجلاً مهزوما مكسورا مهوما ... تتعلثم

(١) جريدة الوفد ٣١ يوليو ٢٠٠٢م.

الكلمات على لسانه ويذرف الدمع عندما يحاول أن ينطق حروف الكلمة على طرف لسانه وتأبى أن تخرج ... بدلا من أن تنصت إليه وتحاول أن تستمع إلى كلماته المبعثرة تغرق معه فى همومه وكأنك ترى جبلاً عملاقاً ينهار أمامك فلا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة حتى لمجرد المواساة ...

رجل يبلغ من العمر ٥٦ عاما ويقيم فى شارع ترعة جزيرة بدران بروض الفرج جاء متوكئاً على عكاز يتحرك ببطء شديد يكاد يسقط على الأرض ، جلس بجوارى وبدأ يقص علىَّ مأساته فى صعوبة بالغة قائلاً : عشت طوال حياتى مع أهلى أشعر بالخوف وأن شيئاً كبيراً ينقصنى .

كان والدى شديد القسوة معى ولا أعرف السبب الحقيقى لهذه القسوة وأمى كانت نبعاً هائلا من الحنان وحاولت تعويضى عن قسوة والدى واعلم أنه لا شئ يمكن أن يعوضنى عن ذلك كنت دائماً أحاسب على كل كلمة ونظرة وتصرف وحركة لدرجة أننى عشت طوال حياتى ومعى الخوف لا يفارقنى ، عملت ميكانيكياً فى احدى الورش بشارع طوسون وعندما بلغت ٢٦ عاما فى عام ٧٦ عرض على أحد أصدقائى إحدى صديقات زوجته كنت وقتها لا أفكر بالزواج إطلاقا نظرا لإنشغالى بعملى طوال النهار وفى محاولة لجمع بعض الأموال التى تؤهلنى إلى أن أتقدم للزواج دون الحاجة إلى أحد وطلبت من صديقى أن يمهلنى بعض الوقت لأفكر فى الأمر .

وبعد عدة أسابيع ألح على من جديد بفكرة الزواج فطلبت منه أن أراها قبل أن أتقدم إليها وبالفعل تم لى ما أردت وتعرفت عليها وعرفت منها أنها تعمل بالحياكة وأنها تجيد صناعة ملابس السيدات واتفقنا على موعد لزيارة أهلها وفى الموعد المحدد ذهبت مع صديقى لمقابلة والد العروس وما أن رآنى حتى رحب بى واتفقنا على إعلان الخطبة فى أقرب وقت وتمت الخطبة وسعينا

للإعداد إلى الزفاف سريعا فقمت بتأجير إحدى الشقق بمنطقة شبرا وتم تجهيز لوازم الزفاف كما تم تأثيث الشقة بكافة لوازمها.

تم الزفاف بعد إعلان الخطبة بستة أشهر عشت أيامى سعيداً وراضيا بما رزقنى الله سبحانه وتعالى وعندما أعلنت زوجتى عن حملها الأول طرت فرحا ولم تسعنى الدنيا ومرت التسعة أشهر بسلام ووضعت زوجتى مولودها الأول فأسميناها رانيا وبعدها جلست أفكر مع نفسى إن عملى باليومية فى الورشة لن يؤمن المستقبل ولابد من البحث عن وظيفة باحدى الشركات حتى لو حدث لى مكروه يكون أولادى فى مأمن من غدر الأيام فقررت الالتحاق باحدى شركات المقاولات وكانت بمثابة مفتاح الخير فعملت بها سائقا.

أراح عملى بالشركة قلبى واستقر بيتى ورزقت بمولود ثان اسمته زوجتى محمدا وعشنا حياة سعيدة أعمل سائقا بالشركة فى الصباح وأعود بعد الظهيرة إلى منزلى استريح قليلا ثم أعمل سائقا على تاكسى إلى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة فيرزقنى الله سبحانه وتعالى بما يساعدنى على الحياة التى تسعد زوجتى وطفلى وازدادت شهرة روجتى فى عمل الحياكة وأصبح عندها من الزبائن الكثير كان كل همى أن اهتم بتعليم طفلىَّ وإلحاقهما بالمدارس حتى تكون سندا لهما فى الدنيا ولا يحتاجا إلى أحد ..

عشت سنوات كثيرة فى حياة مستقرة جميلة كأى أسرة صغيرة عائلها يسعى دائما لإسعاد أولاده ومنذ ١١ سنة رزقت بمولودة أخرى أسمتها زوجتى رحاب صحيح أن العبء بدأ يزداد على عاتقى رغم أن عملى يكفى حياتنا لم أكل بأسرتى وكنت سعيدا بهم جميعا ولكن كما يقولون تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن بدأت أشعر ببعض الألم فى ظهرى وأصبت بشلل نصفى وتمت إحالتى إلى المعاش أجرى لى عدد من العمليات الجراحية ولكنها باءت بالفشل

جميعها رضيت بما قسم لى ولكن يبدو أن زوجتى لها رأى آخر فى حياتى بدأت تصرفاتها تتبدل وتتغير فأصبحت عصبية المزاج تثور لأتفه سبب وبدأ صوتها يرتفع وصرخاتها تصل الجيران.

سيدى : أعذرنى فإن كلماتى قد تكون قاسية ولكنها لن تكون بقسوة ما عانيته من ألم وحرقة وحسرة فى قلبى لا أخفى عليك سراً أحسست بانكسار شنيع زلزل حياتى كلها فبعد أن كنت سيد الموقف آمر فتلبى أوامرى شعرت بنفسى هشة لا وجود لها، قلت ربما تكون حالة عارضة وتعود الحياة إلى طبيعتها ولكنها أمنية لم تتحقق حتى هذه الساعة بل زادت زوجتى فى تعنتها وتصرفاتها فمنذ ٤ سنوات حصلت ابنتى على دبلوم التجارة وكان هناك جار لنا يعمل نجار مسلح تعرف عليها وأراد الزواج منها فرفضت هذه الزيجة لأنه لم يحصل على أى مؤهل وأنه أمى وللأسف الشديد وجدت رأى زوجتى مخالفا لرأيى وأنها هى التى سعت لزواج هذا الجار من ابنتها كما أن ابنتى موافقة عليه وتحت إصرارهما وافقت على الزواج .

وفى ليلة الزفاف طلب أشقائى رؤية شقة العروس وكعادتنا صعد شقيقاى إلى شقة ابنتى ونظرا لحالتى الصحية لم أصعد معهما فما كان من العريس إلا أن طردهما وخرجت عليهما زوجتى صارخة فى وجهيهما بأن ليس من حقهما دخول الشقة فعاد شقيقاى نادمين على موقفهما ... وقالا لى أن زوجتى وزوج ابنتى طردوهما من الشقة ... أصابتنى زوجتى وابنتى فى مقتل أمام شقيقى وكأننى أصبت بخنجر مسموم فى قلبى فلم يعد باليد حيلة لكى أرد بها على زوجتى وزوج ابنتى فماذا يفعل نصف إنسان يعيش بجسد مشلول ... ؟!

ماذا أفعل مع امرأة وصل بها جبروتها أن تهيننى لمجرد أننى أصبت بالمرض.. ؟ لم أجد غير الدموع سبيلا فبكيت على كل لحظة عشتها مع هذه الإنسانة .

من هنا بدأت زوجتى تكيد لى وكأنها كانت تنتظر رجلاً آخر بديلا عنى وهو زوج ابنتها ففى اليوم التالى لزواج ابنتى فوجئت بقسم الشرطة يطلب استدعائى لأن زوجتىْ تتهمنى بالتعدى عليها بالضرب وعندما ذهبت إلى القسم ورآنى الضابط لم يصدق ما جاء بشكوى زوجتى وعاملنى معاملة حسنة وضرب كفا بكف كيف لمشلولٌ أن يضرب امرأة مثل زوجتى فقال لى اذهب إلى منزلك أحسست أن سكينا غمد فىَ سويداء قلبى وأن الجرح غائر ولا يمكن مداواتة مهما كانت الأسباب والدوافع عدت مهموما مذبوحا ... وعندما رجعت إلى المنزل لم أجدها وانتظرتها وفى هذه الأثناء ظل تفكيرى يجذبنى لماذا تفعل زوجتى بى هكذا ووجدت عينى تغرغر بالدمع ، وجلست ووضعت يدى على جبينى وفجأة دخلت زوجتى فلم استطع أن أتحرك من مكانى وشعرت أن نصف جسدى الآخر قد شل فرمقتنى بنظرة صارخة وقالت لى ماذا تفعل هنا لم يعد لك أى فائدة ...

شعرت أن حياتى مع زوجتى وصلت إلى طريق مسدود وأنها تحاول بقدر استطاعتها تدمير حياتنا رغم ما فعلته من أجلها ومن أجل حياتنا .

أحسست أن زوجتى بدأت الحرب على ولن تهدأ إلا بعد أن تصل إلى هدفها وقد ساندها ودفعها إلى ذلك زوج ابنتى الذى رفضته فقد بيت النية هو أيضا للانتقام منى ... لم تهدأ زوجتى عند هذا الحد فبعد أن رجعت من القسم قامت زوجتى وزوج ابنتى بطردنى من شقتى أمام ابنى الطالب بالثانوية العامة وابنتى رحاب لم يرحما دموع ابنتى الصغيرة وهى تبكى عندما رأت أباها يهان ويطرد شر طرد من شقته التى بنيتها بعرقى وجهدى لم يكن أمامى إلا الذهاب إلى حجرة والدتى المشلولة ، وكأن القدر أراد أن أعيش مرة ثانية فى حضن أمى ولكن هذه المرة أعيش معها نصف إنسان وهى مشلولة ... لك أن تتخيل عندما أرى أمى تبكى على حالى كل صباح رغم أننى بلغت من العمر ما بلغته

ورغم أنها بلغت أكثر من ثمانين عاما إلا أن قلبها انفطر على وليدها وهى تراه مشلولا عاجزا لا يملك من الدنيا شيئا بعد أن كان يملك كل شئ ...

لم تكتف زوجتى بطردى من منزلى بل أقامت دعوى خلع ونالت ما أرادت لقد أعلنت العصيان على حياتها ، وتمردت على المشيئة ورفضتنى بسبب مرضى الذى لا ذنب لى فيه ... ألم تسأل زوجتى نفسها ماذا لو حدث لها ما حدث لى هل كنت أستطيع أن أطردها من منزل الزوجية هل لو طلقتها أليس من حقها النفقة والمؤخر وخلافه التى حددها الشرع للمطلقة ؟ !

أننى أعيش الآن مع أمى المشلولة فى غرفة واحدة إيجارها ٧٠ جنيه وأحصل على معاش قدره ١٨٠ جنيها ويتبقى لى ١١٠ جنيهات لا تكفى لبضعة أيام بين دواء وطعام لى ولأمى .

أليس من حقى أن أعيش فى شقتى التى استولت عليها طليقتى أليس من حقى أن يتكفل بى أولادى بعد أن عشت لهم عمرى الماضى ، وبعد أن أصبحت عاجزا ونصفى مشلولاً ..

الانتقام المر (١)

صراخ عال ينبعث من شقة رجل الأعمال بشارع مراد ... الحقونى ... الحقونى ... حرامى ... هرول البواب وبعض سكان العمارة للإمساك باللص ، وعندما التفت السكان حوله اكتشفوا أن اللصة التى يمسكها هى زوجته وشقيقتها ... حاول البعض التدخل لانهاء المشكلة إلا أن الرجل أصر على ابلاغ الشرطة وتحرير محضر ضد زوجته يتهمها بسرقة مجوهرات تقدر بـ ٦٠ ألف جنيه ، وبعض الأدوات الكهربائية ، وحضر أمين شرطة ليقبض على الزوجة،

(١) جريدة الوفد ١٤ سبتمبر ٢٠٠٢م.

وشقيقتها وفى مشهد لا إنسانى تم اقتياد الزوجة ، وشقيقتها إلى قسم الشرطة لاستكمال المحضر ، وقال رجل الأعمال فى اتهامه للزوجة إننى تزوجتها منذ أربعة أشهر ، وأغدقت عليها الهدايا الثمينة ، والملابس الفاخرة .

ولكن عندما عاشت معى بدأت تتمرد على حياتى، إننى أقضى أغلب وقتى بين تجارتى، ومكتب الاستيراد والتصدير ... اشتدت الخلافات بيننا وتزامن ذلك مع خروجها بصفة مستمرة من منزلى بدون أذن وأمتد الأمر إلى السهر المتواصل فى الفنادق الكبرى ... فلم أجد مفراً من تطليقها بعد أن ضاقت المعيشة بيننا وحصلت على حقوقها المادية الشرعية ..

ولكن بعد الطلاق أبلغنى سائقى الخاص أنه شاهد مطلقتى وشقيقتها أمام العمارة التى أقطن بها فهرولت إليها بسرعة فوجدت مطلقتى وشقيقتها وبحوزتهما مشغولات ذهبية تقدر بـ ٦٠ ألف جنيه ، بالاضافة إلى بعض التحف و ٤ آلاف جنيه كانت فى دولابى الخاص. وعندما ضبطتهما فى حالة تلبس وأمام الجيران الذين شاهدوا مطلقتى تسرقنى فى وضح النهار مستغلة وجود نسخة من مفتاح الشقة معها، وقامت بفتح باب الشقة واستولت على المجوهرات والنقود وجهاز فيديو ... ولولا اتصال السائق على الموبايل ما أمسكت الزوجة اللصة .

وأمام تامر رشاد وكيل أول نيابة قسم الجيزة وقفت فادية ٢٣ سنة خمرية اللون ... ممشوقة القوام ... ترتدى الجينز وبعض الاكسسوارات الذهبية وقالت فى التحقيقات التى أشرف عليها أشرف الجميل رئيس نيابة قسم الجيزة : أننى من أسرة متواضعة التحقت بالعمل لدى هذا الرجل كسكرتيرة له بعد تخرجى فى كلية التجارة جامعة القاهرة ، وكان نظام العمل يتطلب منى أن أقضى معه ساعات طويلة من الوقت ، وكان يعاملنى معاملة حسنة فى بداية الأمر، ولكن

بعد أن طلق زوجته التى كانت على ذمته فى ذلك الوقت بدأ يحاصرنى بكلامه المعسول، ويلمح لى بالحب والسعادة التى تحلم بها أى فتاة ... نهرته فى البداية، حيث إن فارق السن بيننا يزيد على ٢٥ سنة ، وهذا الأمر ترفضه عائلتى مهما قدم هذا الرجل من عروض مادية ، ولكنه أصر على اقتناص أنوثتى ، وعمرى من أجل أن يشعر أنه رجل مرغوب من الفتيات الصغيرات ... تركت العمل بسبب ملاحقته المستمرة لى ومطالبته بالزواج منى ولكن عدت مرة أخرى بسبب حاجتى للمال وحتى يجذبنى نحوه أغدق على الهدايا الثمينة والملابس الفاخرة ، وشعرت بأننى إذا تزوجته سوف امتلك الدنيا فى يدى وأننى ساكون أسعد إنسانة فى الوجود فلديه سائق خاص على سيارته الفاخرة . ويمتلك عدة شقق بأرقى أحياء القاهرة ، وتجارته تؤهله لكى يسيطر على الأسواق .

بدأت أميل إليه بعض الشئ ووجدت أسرتى من العمل فى الشركة الكنز الذى لا يفنى نهائيا وكان فى نهاية العمل يقوم بتوصيلى إلى المنزل ، وبدأ يتردد على أسرتى المتواضعة ، ويلقى بشباكه حولى من كل جانب ، حتى فوجئت بأمى تطلب منى أن أوافق على زواجى منه ... صدمت فى رأيها وبعد إلحاح شديد منها بدأت أتراجع وأفكر فيه وأقبل بالزواج منه ... ولرغبتى فى دخول عالم البزنس والثراء السريع طلبت منه سيارة وشبكة غالية الثمن ورصيداً فى البنك مؤخر صداق فوافق .

وتم الزواج ، وأقام لى عرساً كبيراً فى أحد الفنادق الكبرى ... وكانت نظرات المدعوين تتراشق فى جسدى والحسرة والندم على حظى السئ فى تلك الزيجة ... وهمست صديقة فى أذنى بأننى الزوجة رقم ٦ فى حياته وأنه رجل بخيل جداً ... تغيرت ملامح وجهى وأنا فوق عرش العرس الكبير ونهرت الصديقة الحاقدة التى حضرت لكى تنغص على حياتى منذ اللحظات الأولى .. وحملنى زوجى على أكتافه إلى الغرفة التى حجزها بالفندق وعشت معه أسبوعاً

جميلا وكأننى كنت فى حلم ، وخرجت بعده إلى كابوس قاتل وفور انتقالى معه لشقته التمليك بشارع مراد ...

تغيرت تصرفاته تماماً وأصبح رجلاً نقيضا عما كان ... التكشيرة لا تفارق وجهه فور دخوله المنزل يرفض أن يعطى نقودا ويسألنى عن الطلبات التى أحتاجها للبيت ، وأقوم بكتابتها ويرسل سائقه الخاص لشرائها ، وعندما طلبت نقوداً تكون معى إذا خرجت ، أو حضر إلى محصل فواتير الكهرباء أو غيره يرفض تماماً وشعرت بعد ذلك أن معيشته عذاب ، وأنه رجل بخيل من الدرجة الأولى وأن كلام الصديقة التى همست فى أذنى ليلة العرس صحيح ، وأن كل زوجاته السابقات تركوه بسبب هذه التصرفات اللا إنسانية ... حاولت اصلاحه وتغيير طباعة القاتلة إلا أنه كان يضربنى ويوجه لى أبشع الألفاظ النابية ... ضاعت كرامتى أمامه وانهار كبريائى أمام اطماعى التى كانت تلاحقه للحصول على المال منه .

اشتدت الخلافات بيننا بعدما رفض استقبال أهلى وأقاربى استمر الحال بيننا ٤ أشهر لم أر فيها النوم فطلبت الطلاق ... فابتسم وطلب منى أن اتنازل عن كل شئ فى سبيل حصولى على الطلاق حتى الهدايا التى كان يقدمها لى فى وقت الخطوبة طلبها ، والملابس التى قدمها لأخواتى أيضا طلبها ، والمصيبة الكبرى أنه كان يدون كل هذه الأشياء فى أجندة خاصة به ويحدد التاريخ الذى قدمها فيها ونبذة عن الموقف حتى يتذكر ، لم أجد مفراً من الخروج من هذه الدائرة المظلمة إلا بالرضوخ لأوامره وإعادة كل شئ إليه حتى يطلق حريتى ويطلقنى ، وفى يوم مشئوم ذهبت إلى المأذون وقدمت ملابسى والهدايا وقدمت له ورقة تؤكد أننى حصلت على كافة حقوقى الشرعية حتى أحصل على الطلاق، وتم الطلاق ...

وعدت إلى أسرتى مكسوة الجناح ، وفقدت الزوج والثراء الكاذب وأنوثتى التى كانت تؤهلنى لكى أعيش مثل كل فتاة وجن جنونى من هذا الرجل وفكرت فى سرقته حتى أسترد جزءاً من حقى الضائع ، وذهبت أنا وشقيقتى إلى شقته فى الصباح، وفتحت الشقة بمفتاحى ، وحصلت على المشغولات الذهبية التى قدمها لى قبل الزواج وبعض الأجهزة الكهربائية ، ولكن كانت المفاجأة أنه حضر وقت السرقة وأمسك بى وشقيقتى داخل الشقة بعد أن أبلغه سائقه الخاص بعملية السرقة وأننى خسرت الدنيا بسبب هذه الجريمة التى ارتكبتها بدافع الانتقام فقط لأننى من أسرة طيبة وليس لها أى سجل فى الاجرام وانخرطت المتهمة فى بكاء عميق فأمر تامر رشاد بحبس الزوجة وشقيقتها ٤ أيام على ذمة التحقيق.

طموحات قاتلة (١)

عشت طفولتى المبكرة وسط أسرة متوسطة الحال .. قالوا عنى جميلة .. أمنية حياتى منذ طفولتى أن أكون نجمة .. وضعت نصب عينى الشاشة الكبيرة والصغيرة ، تعودت وأنا فى المرحلة الإعدادية الخروج من مدرستى لحجز تذكرة فى إحدى دور السينما، وفى المرحلة الثانوية اقترحت على بعض صديقاتى أن أذهب إلى شركات الإنتاج لأقدم نفسى وأعرض مواهبى.

ترددت على أكثر من شركة. اقتنعوا بى وشجعونى، لكنهم جميعا طلبوا منى أن أترك اسمى وعنوانى لحين وجود الفرصة المناسبة . طرت من الفرحة ظللت أحلم بلقب النجمة الصاعدة، وعيون الناس ترقبنى حين أظهر وجيرانى يتابعون أخبارى حيثما كنت.. لكن مضى عامان دون أن يسأل عنى أحد أو تتصل بى إحدى شركات الإنتاج.. رسبت فى الصف الثانى الثانوى ومرة أخرى

(١) جريدة الوفد ٩ يناير ٢٠٠٢م.

فى الثانوية العامة.. أصاب الغضب والدى وأقسم أن يزوجنى لهذا العربى وكان يكبرنى فى السن كثيرا الذى طلب يدى ووعد أسرتى بألا يكلفهم مليما واحد فى تجهيزى !!

بكيت بحرارة وأنا أطلب من أمى أن تمنحنى فرصة جديدة فى الثانوية العامة، توسلت إليها ألا تزوجنى رجلا لا أحبه.. فأنا أرفض الزواج من أساسه، واهتزت أمى فى البداية لكن سرعان ما تغير الحال أمام إغراءات العربى وحماس والدى.

بعد أيام انطلقت الزغاريد فى بيتنا المتواضع وتوافد الجيران للتهنئة. تحدد الزفاف بعد شهر واحد وازدحم الحى بأكمله لرؤية ابنة الحى التى ترتدى فستان الزفاف الأبيض قبل أن تتم عامها الثامن عشر، وأصر العريس على تعليق الزينات. كل ذلك وأنا أبكى فوق صدر أمى وهى تطمئننى بالسعادة ورغد العيش مع العربى الثرى لكن الوقت لم يسعفنى.. جاء المأذون وفى عجالة عقد القرآن.

كنت أرقب عيون الحاسدين من حولى على النعيم الذى جاء إلى حياتى دون أن أسعى إليه. ولا أحد يدرى ماذا يدور فى أعماقى.

إننى سرعان ما تأقلمت فى حياتى الجديدة شعرت بأننى أخطأت فى حق عريسى قبل زفافى إليه، فالرجل فى غاية الكرم معى. وفر لى كل ما تتمناه امرأة ومنحنى كل ما تحلم به أنثى وهبنى حبا بلا حدود، لم يبخل على بالمال، سيارة تحت أمرى وسائقها ينتظر أوامرى. أغدقت الهدايا على أسرتى الفقيرة.. ولم أنس امداد والدى الموظف الحكومى بمساعدة شهرية تعينه على مواجهة أعباء الحياة.

اعترف بأننى كنت أرفل فى النعيم والسعادة إلا أن الشىء الوحيد الذى كان ينغص علىّ حياتى هو غيرة زوجى علىّ فهو يغار على من ملابسى التى

أرتديها، لا يطيق أن يمس الهواء شعرى .. منعنى من الاختلاط ، راقب مكالماتى التليفونية، منعنى من الذهاب إلى السينما والمسرح بل تشاجر معى يوما حينما اشدت بأحد الفنانين وعنفنى عندما ضبطنى حالة مع إحدى أغنيات عبد الحليم حافظ .. وكان القدر كريما معى حينما رزقنى الله بطفلين، توأمين أشاعا فى حياتى المزيد من السعادة والهناء .. حتى كان اليوم الموعود.. مفاجئة لم أكن أتوقعها أبدا .. مفاجأة جاءت يحملها زائر جاء إلى بيتى لا أعرفه من قبل .. أبلغنى بأنه مندوب إحدى شركات الإنتاج السينمائى الكبرى .. وبأن الاختيار قد وقع على لتمثيل دور فى فيلم جديد أمام نجمة سينمائية كبيرة قفز قلبى من مكانه.. لم أصدق نفسى .. جلست أستمع إلى كلام زائرى المجهول وقلبى يكاد يرقص من السعادة حكى لى ضيفى كيف وصل إلى عنوانى بصعوبة، وحينما لم يجدنى فى بيت أسرتى سأل عن عنوانى الجديد وبصعوبة بالغة أمكنه الحصول عليه.

حدثنى الرجل عن فرصة العمل التى تنتظرنى وكيف سأنطلق إلى عالم النجومية والشهرة بسرعة الصاروخ .. فقد اختارنى مخرج الفيلم الجديد من بين عشرات الصور التى لديهم. نظرت إلى طفلى الرضيعين ثم إلى صورة زوجى التى تتصدر الحائط فى منزلى .. وتملكتنى الحيرة، كنت حريصة على إفهام زائرى أن يكون الأمر سرا دفينا حتى أعلنه بنفسى.. أيقظ فى أعماقى الزائر أملا غاليا كاد يتبدد ويموت.

انصرف الزائر، وظللت تائهة طوال النهار إلى أن عاد زوجى فى المساء .. لاحظ الشرود والقلق على ملامحى.. وحين سألنى عن سر هذا الشرود اقتربت منه وهمست له أسأله عن مدي حبه لى !! وأجابنى فى دهشة يؤكد حبه الجنونى الذى يعد الأول والأخير شجعتنى كلمات زوجى.

فقلت له فى حماس فرصة العمل جاءت لى للعمل بالسينما.. وهذا كان أمل عمرى وحلم حياتى ! كالصاعقة سقطت كلماتى على مسامع زوجى. لم أتوقع أبدا أن يتحول إلى بركان ثائر يحطم كل مافى طريقه.. اتصل بأهلى وطالبهم بالحضور فورا.. قص عليهم حكاية السينما وخيرهم بين أن ترجع زوجته فورا عن أفكارها السوداء وتعلن توبتها إلى الأبد.. أو أن يطلقنى فى نفس اليوم .. تملك الحزن والدى وعجز عن التعليق على كلام زوجى.. همست لى أمى تحذرنى من هذا الشرود.

تظاهرت بأننى رضخت لنصائح الجميع.. وأخفيت قناعتى بأن ما حدث لم يكن يستحق كل هذه الثورة.. اعتذرت لزوجى أمام العائلة.. ولا أدرى ماذا أفعل .. حلمى وطموحاتى فى كفة.. وبيتى وطفلى وزوجى فى كفة أخرى.

* * *

وحش الخوف (١)

رأيت الدنيا سوادا فى عينى بعد أن انطفأ نور الحياة أمامى، استسلمت لوحش الفقر وغول الخوف الذى ابتعلنى وقضى على أمالى، أطيح بأحلامى من جراء عواصف الحياة المدمرة.

لم تكن رحلة ٥٠ عاما سوى بكاء ونحيب على أيام محيت فيها مباهج الحياة ورغدها، ارتويت خلالها بالبؤس والأوجاع، كنت بمثابة سجينة بقفص محاط بأسوار الأحزاق والشقاء تظلنى بداخله سحابة مظلمة كئيبة لا يرجى منها خير.

نسبت لأسرة رجل عائلها هاجر من قريته منذ صباه طلبا للقمة العيش وبحثا عن الرزق بعد أن ضاقت به سبل الحياة فى ظل آفة الفقر والحاجة التى

التصقت بعائلته، اتخذ من إحدى المناطق الشعبية مستقرا يساعده على خوض معركة البقاء والعيش عاش بين أهلها واكتسب منهم ما كفل له الهدوء والأمان.

حظى بالصفات الطيبة التى جعلت منه مطمعا لأى أسرة تبحث عن السعادة والاستقرار لإحدى بناته معه وتحت مظلته وهبته الأقدار الزوجة التى تحمل ما ترضاه نفسه ويطمئن به قلبه.

أثمرت رحلة زواجهما عن أربعة أبناء كنت أصغرهم شهدت طفولتى السعادة بقدر ما أتيح لنا من سبل الرزق ونعيم الحياة. قدومى لوالدى على كبر جعلني الفتاة المدللة بين أسرتى، منيت بقدر من الرعاية والإهتمام لم يحظ بهما أشقائى سكنت تحت جناح أبوى ١٣ عاما. رسمت فيها لنفسى الحلم الجميل الذى يعطى للحياة جمالها وبريقها يمنعنى من الدراسة والتعليم الذى حرمنى من حلم تمنيت تحقيقه طويلا ومبرره أن تعليم البنت خارج حساباته.

وحياتى تسير علي وتيرة واحدة، أخرج صباح كل يوم مع والدى للعمل والوقوف بجواره بمحل البقالة الذى أسسه بعرق جبينه وبما كسبت يداه خلال مشوار شاق ومضنى بين الحرف والمهن كان المحل بمثابة المصدر الوحيد للأسرة الذى يغطى بالكاد ضروريات الحياة ومتطلبات المعيشة استسلمت لطبيعة أيامى ومصاعبها لحين أن يؤتى بجديد يزيح الملل والرتابة عن نفسى.

كنت قد تجاوزت الثالثة عشرة من عمرى وكشف مظهرى وجسدى عن أنوثتى التى لفتت الانتباه، سقط ما منحته من حسن وبهاء على بصر رجل يعمل سائقا وتربطه بنا علاقة الجوار اعتاد مراقبتى حاول محادثتى ولكن قابلت محاولاته بالرفض والتوبيخ لم يجد حيلة أخرى تحقق ما بداخله وما يريد غير طرق الباب راغبا فى استكمال نصفه الآخر لم تكن لى حرية الاختيار أو الرفض بعد موافقة أبوى ورغم أنه بلغ مبلغ الشيوخ.

هون أبى على الشاب المهر وتكاليف الزيجة رحمة بظروفه القاسية وحياته الشاقة. أتاحت عدم المبالغة والمغالاة فى المهر سرعة اتمام الزفاف استأجرنا شقة صغيرة متواضعة قضينا بها حياتنا الزوجية الأولى التى شهدت فرحتنا واستقرارنا.

لم تدم عيشتنا بالشقة طويلا فبعد أن استطاع زوجى تدبير وتوفير جزء من أجره انتقلنا إلى شقة أخرى بالجيزة أفضل حالا شعرت طوال أعوام زواجنا بالهناء والأمان الذى تضاعف بعثور زوجى على عمل ثابت كسائق لدى أحد الأشخاص الأثرياء كنت دائمة لثناء والشكر لله عز وجل على ما أتيح لنا من مال يكفى ضروريات العيشة ومصروفات المنزل. رزقت بأربعة أولاد بهم صارت الحياة أمامى حديقة تزخر بأجمل الورود والأزهار ومن فرط الإحساس بالسعادة دب شعور الخوف بداخلى أن تصير الحديقة والحياة خاويتين بفعل عواصف الأيام العاتية.

حرصت على الحاق أولادى بركب التعليم الذى حرمت منه ورغم ما قمت بتوفير المناخ الملائم لأبنائى للحصول على جميع حقوقهم إلا أن الظروف الطاحنة التى اجتاحت وغزت حياتى حالت دون إتمام ذلك، اكتفى أولادى بالمراحل الأولى من التعليم عدا ابنى الأصغر هيأ كل منهم طريق الحياة والعمل الذى يناسبه ويعملهم ساهموا بشكل كبير فى تحسين المعيشة ونقل الأسرة إلى حياة أفضل.

لم يستمر عطاء الأبناء والإنفاق على الأسرة كثيرا فبمجرد اشتداد سواعدهم أخذوا يجمعون المال لأنفسهم بهدف استكمال نصفهم الآخر توقفت مساهماتهم فى النفقات ولهم العذر بعد أن أصبح كل واحد منهم مسئولا عن زوجة وأولاد حاولت وزوجى تدبير احتياجاتنا بالاستعفاف والإمساك قليلا عن

نعم الحياة اتبعنا عيشة التقشف والزهد أعواما عديدة ساهم فيها تقدم العمر بزوجى الذى أفنى حياته لإرضائى.

فى ظهيرة أحد الأيام عاد زوجى من عمله تناول طعام الغداء جلسنا سويا نتحدث فيما وصل إليه وضعنا ونتدبر الحيلة لتوفير مستلزمات ابننا الدراسية غص عدة مرات أعددت سوائل بعض الأعشاب معتقدة أنها ستزيح هذه الغصة التى ظلت وقتا طويلا على أثرها لفظ أنفاسه الأخيرة. رحل زوجى عن عالمنا تاركا لى هما ثقيلا تئن منه الجبال ومنذ رحيله لم أر أمامى غير سواد حالك لا يتخلله بصيص نور، الدموع لم تفارق عينى اهتزت حياتى بفعل العواصف الكاسحة التى تشعل النار الخامدة صرت كالغريق الذى هوى إلى القاع لا أمل فى انتشاله، سعيت بكل قواى لهزيمة أحزانى وإيجاد ما يساعد على استكمال المشوار من رزق.

رسمت البسمة الكاذبة على وجهى وافتعلت الأفراح الوهمية حتى لا يشعر ولدى بقسوة العيشة ويغزو اليأس والبؤس نفسه، تضخم بمرور الأيام الخوف من مستقبل مجهول لا يعلم أحد ما يحمله بين طياته.

ساهم أبنائى بما تيسر كى أعيش وابنى لم يتركنى للحظ العاثر وشأنى توالت الكوارث فوق رأسى تعرض المأوى الذى يحمينا لحريق أثر على كل أثاثاته تصدعت وتشققت جدرانه وصارت الحياة فيه مستحيلة.

اليتامى يا حبيب (١)

أبلغ من العمر ٢٥ عاما، توفى زوجى المرحوم اللواء ولى بنتان ، بارك الله لى فيهما، أحيا لأجلهما ولولا ابنتى ما استطعت الحياة بعد زوجى فقد كان كل

---

(١) جريدة الوفد ٩ يناير ٢٠٠٢م.

شىء فى حياتى وأكن له كل الاحترام والحب، كان الأب والصديق والابن قبل أن يكون زوجا.. رحمه الله رحمة واسعة.

تبدأ قصتى عندما .. تقدم أحمد لخطبتى. طرت من الفرح فقد هبط على فارس أحلامى الذى انتظرته والذى حلمت به، اغتبطت أمى فرحا بأحمد لأنه سيكون زوجا لابنتها فهو معروف بالتدين والأخلاق الكريمة والأدب ووهبه لله حب الناس ويقدس أهله ودائما يقول لى من لا خير له فى أهله فلا خير فيه ، وكان أصغر أشقائه يدرس فى السنة الأولى بكلية الشرطة حين تقدم لخطبتى، لم ترفض أمى، بل على العكس تماما شددنا من أزره ووقفنا بجانبه وكان مثالا للوفاء والبر بأهله.

كما اشترط أحمد علينا أن أكتفى بتعليمى وكنت فى الصف الثالث الثانوى لأنه يؤمن بأن البنت مكانها البيت ويفضل البنت الخام – على حد تعبيره – لذلك اختارنى بعد فترة مراقبة منه ووافقنا على شروطه وفعلا يسر الله كل شىء وتمت خطبتى. وبعد سنة نقل أحمد من الفيوم إلى مرسى مطروح فى أحد الأجهزة الهامة هناك ، ونزل أحمد فى الشقة التى يقيم فيها أخى واتفقا على إتمام زواجى وأذهب معهما إلى مطروح وفعلا تم الزواج فى شقة قديمة بها غرفة نوم «عزابى» ولا يوجد شىء آخر فى الشقة سوى بوتاجاز مسطح.. كان زوجى يذهب إلى عمله فى الصباح ويعود فى الرابعة عصرا ثم يذهب إلى عمله مرة أخرى ويرجع فى الواحدة صباحا وأنا وحيدة فى شقة معزولة على البحر.

تألمت وتأقلمت مع الظروف الجديدة وبهذا المرتب الذى كان يقتسمه بيننا وبين أهله وخاصة شقيقه الأصغر.. ولا أقول لك عن الكم الهائل من زيارة الأسرتين لنا فى الصيف وكيف أقوم بخدمتهم ولا يوجد من يساعدنى، ومع ذلك

كنت سعيدة ويكفينى عطف وحب وحنان زوجى حبيب قلبى إلى أن تزوج اثنان من أشقائه واحد منهما أكبر من زوجى والثانى الصغير الذى رباه زوجى. فقد تزوج بعد تخرجه فى كلية الشرطة مباشرة وتم تعيينه فى الفيوم وساعده أحمد على الزواج لدرجة أنه أعطاه الشقة الخاصة بى فى الفيوم.

أخذ شقيق زوجى الشقة ونقل الأثاث الخاص بى والذى اشترته أمى لى من مالها وألقى به فى غرفة بواب عمارة تحت الإنشاء لأحد أقاربهم مع الأسمنت والمياه المتسربة من أعمال البناء ثم جدد الشقة وتزوج فيها وبعد عدة شهور رزق بمولود كما رزق شقيقه الأكبر.

انتبهت بعد زواجى بأربع سنوات أننى لم أحمل وبدأت أسعى لكى أكون أما وأربى ابنى بدلا من أن أربى القطط.. أرجوك لا تضحك ففى أيام الشتاء الطويلة بمدينة مطروح كنت أشعر بالوحدة والملل لذلك لجأت إلى تربية القطط وشعرت بأنها تؤنس وحدتى وذهبت إلى الأطباء ووفقنى الله إلى طبيب ماهر تمكن بفضل من الله سبحانه وتعالى من تحريك أولى مولود فى أحشائى لا تتصور كم كانت سعادتى وسعادة زوجى بعد أن أنجبت ابنتى الأولى ثم رزقنى المولى عز وجل بابنتى الثانية وأصبحت ابنتاى كل حياتى فقد جاءنا بعد أن يئست من الإنجاب وعشت بهم ولهما ولأبيهما.

استمرت اقامتنا فى مرسى مطروح ١٣ سنة إلى أن تم نقل زوجى إلى بنها وعشنا هناك سنوات وفجأة بدون مقدمات سقط زوجى على الأرض فى مكتبه أثناء عمله أصيب بالذبحة الصدرية وانسداد الشرايين التاجية كان ذلك فى مارس ١٩٩١ وهذا اليوم بالمصادفة كان يوم عيد ميلاده .. وأدى عدم نقله سريعا إلى المستشفى إلي اصابته بتليف الأذين الأيسر وعضلة القلب ودخل الانعاش لمدة شهر بمستشفى عين شمس التخصصى بين الحياة والموت واجتاز

الأزمة ولكن تركت أثرها فى قلبه العليل ونتج عن ذلك العديد من الجلطات وانسداد الشرايين.

كان المفروض أن تحتسب اصابة عمل ناجمة عن الإجهاد وقد تم عمل محضر بذلك برقم (١٠٠ عوارض) وأقر تقرير من جهة عمله بهذا ومنذ وفاة زوجى لا تريد جهة عمله احتسابها اصابة عمل.

بعد فترة من استقرار حالته الصحية نسبيا تقرر نقله من عمله الأصلى إلى أمن الموانىء بميناء بورسعيد وبعد عام تم نقله مرة أخرى إلى الاسكندرية ليكون مديرا لأمن مطار النزهة وتحمل زوجى مسئولية أمن المطار إلى أن مرض ودخل مستشفى جمال عبد الناصر وتقرر إجراء جراحة عاجلة لتغيير الشرايين واصلاح عضلة القلب وكان لابد من سفره للخارج وسافر على حساب الدولة إلى لندن ودخل مستشفى «كروموبل» وسافر شقيقه كمرافق له على حساب الدولة.

وسافرت أنا على حساب زوجى وتم إجراء الجراحة على يد الدكتور «جون كيتس» الإنجليزى وفى اليوم الثالث من إجراء العملية، وفى ذلك اليوم المشئوم وجدته يتقيأ دما وحوله أجهزة الإنقاذ وباب الحمام مكسور لكى يتمكنوا من إخراجه فقالوا لى أن زوجك مات فى الحمام لوحده وهو مغلق عليه من الداخل فى الساعة ٧ صباحا.. صرخت من أعماق قلبى، كيف أعيش من غير حبيب عمرى.

أغلقت عليه وعلى باب الغرفة وفكرت فى الانتحار لأبقى معه ولكن ذكرنى الله عز وجل بابنتى لمن أتركهما..! أتركهما لهذا العم الموجود معى فى لندن ولا يهمه سوى البحث عن الملابس المستوردة لزوجته ولبناته ولم يكن بجوار شقيقه حتى فى أحلك الظروف.

أتركهم مع هذا الأخ الذى أخذ يفكر بعد وفاة زوجى فى التعويض المناسب عن إهمال المستشفي الذى أدى إلى وفاة زوجى وطلب تشريح جثة أخيه.. مكثت بجوار جثة زوجى وجاء لى «شيخ» يعمل بالمستشفى وقال لى أن ما يطلبه شقيق المتوفى من تشريح جثة أخيه حرام ولا حق له فى التعويض الذى يطلبه لأن المستشفى لم يهمل فى عمله ولكن الذى أهمل شقيقه لأن معه حق الإقامة كمرافق وتركه ولم يقم معه فى حجرته لمراعاته أثناء الليل.

أصر شقيق زوجى على إجراء التشريح والمطالبة بالتعويض واضطررنا للانتظار يومين فى لندن حتى يتم التشريح وعدنا إلى مصر ولم يحصل على ما تمناه. عدنا إلى القاهرة ومعى زوجى ولكن هذه المرة لم يكن بجوارى فى المقعد الملاصق لى، كان فى صندوق حديدى بمخزن الطائرة، وصلنا المطار وأنا أرجف من الخوف عندما تسألنى ابنتى الكبرى «فين بابا» وتنتظر ابنتى الصغرى الحضن الكبير والقبلة الجميلة من بابا ماذا أقول لهما.

أبلغونى أن إدارة أمن الموانىء والدولة تستعد لعمل جنازة عسكرية وفوجئت بتليفون الساعة الثالثة فجرا من شقيق زوجى يتصل بى ويطلب منى عدم حضور جنازة زوجى لأنه على حد قوله لا تحضر السيدات الجنازات العسكرية..! لم أقتنع بكلامه وقررت حضور جنازة حبيب قلبى وكانت المفاجأة، جميع سيدات عائلة زوجى وعلى رأسهن زوجة شقيقه وزوجات باقى الأخوة حاضرات الجنازة ولو سمعت كلام شقيقه لكنت الوحيدة التى لم تحضر وبذلك يجعلنى أمام الجميع مقصرة فى حق زوجى الغالى ، أراد أن يضعنى أمام العائلة في موقف محرج.

من أول يوم بعد وفاة زوجى وتتوالى المواقف .. كان مع شقيق زوجى ٧ آلاف جنيه استرلينى الخاصة بأحمد التى أعطتها له الدولة للإقامة بها فى لندن

وكان المفروض أن أعود بها إلى الاسكندرية وبناتى لاستكمال العام الدراسى لهما ولم يكن معى نقود تكفى مصاريف البيت وابنتى وكذلك لشراء ملابس العيد (عيد الفطر) ودفع مصروفات المدارس الخاصة للبنتين.. تصور لم يعطنى سوى ٢٥٠ جنيها فقط من ٧٠٠٠ جنيه استرلينى ويشاء الله أن تصاب عين ابنتى الكبرى وليس معى نقود ولا أعرف أحدا فى الاسكندرية لينقذ عين ابنتى واضطررت أن أبيع سلسلتها الذهبية لعلاج عين ابنتى.

تصور هذا العم الذى لم يأت إلى زيارة البنتين منذ وفاة أبيهما إلا ثلاث مرات ويأتى فقط لإذلالنا ويتباهى علينا بأنه اشترى شقة جديدة وسيارة جديدة ويقضى الصيف وبناته فى الشاليهات الفخمة الخاصة به ويصف لنا كيف يدلع بناته ولم يراع أنهما محرومتان من حنان الأب وتسمع ابنتاى هذا الكلام وقلبى يتمزق وهما فى حرمان من هذا كله، هل تصدق أن من يفعل هذا يحافظ على مالهما ..! هل يخاف على المال ولا يخاف على اللحم الحى المتمثل فى ابنتى.

هناك موقف آخر يجب أن أذكره وهو بعد اسبوعين من وفاة زوجى ذهب شقيقه ومعه أخوه الكبير إلى هيئة أمن الموانىء بمدينة نصر والتى توجد بها مستحقاتنا والمكافأة الخاصة بالضباط عن عمله بالشرطة بواقع ٥٠٠٠ جنيه عن كل سنة قضاها فى الخدمة وكذلك أحد الصناديق التى تصرف لنا بعد الوفاة وقال للمسئول الذى يملك صرف المكافأة اننى لست أمينة على ابنتى ويجب عدم صرف المكافأة لى وفعلا رفض المسئول صرف المكافأة سنة كاملة إلى أن لجأت إلي وزير الداخلية آنذاك اللواء حسن الألفى وأمر بإعطائى المكافأة.. وطبعا لم اتخذ أى إجراء ولا شكوى احتراما لذكرى زوجى لأنه كان يحب شقيقه الصغير مثل ابنه وأكثر، وقلت ربما الأيام تصلح بيننا عندما يجدنى أفنى نفسى فى خدمة ابنتى ويطمئن قلبه.

أسير الحرمان (١)

أبلغ من العمر ٤٦ عاما ، أنتمى لأسرة فقيرة تعانى الفقر والجوع، لم تصف لها الحياة، فقدت كل النعيم والطيبات اتشحت بالسواد وجوه أفرادها من الشقاء والتعاسة، اقتسمنا الثياب والفراش، نطعم يوما ونجوع أياما، ضاع الأمن من القلوب، وسيطر الفزع والذعر على النفوس، لم يتوافر ما يتيح لنا الراحة والدعة، لم أسكن إيثارا للسكون، كانت حسرتنا تزداد عندما نجد أمثالنا ينعمون بطيب ورغد الحياة، لم نداعب الفراشة المزخرفة بالألوان فى حديقة مليئة بالزهور والأشجار، تملكنا الرعب والخوف من الغد المظلم، كنا نتطلع للحياة كبقية الناس، ولكل هيهات أن يتحقق ذلك.

نشأت بمنزل لم يعرف الهواء له طريقا أو لم تر الشمس بقعة منه عشنا فى صراع من أجل توفير قوت يومنا .

قدر لى أن أكون أكبر أشقائى وأتحمل المسئولية بجوار والدى حتى تحيا الأسرة، طفولتى خليت من المرح والبهجة والسرور، لم تعرف سوى الشمس الحارقة للهيب والانتقال بين الورش والمحلات لإيجاد فرصة عمل حتى لو مقابل جنيهات معدودة تحمينا من الحاجة للآخرين، عاهدت نفسى أن أحرم شخصى من طيبات الحياة، لم أحزن لعدم حصولى على حقوقى المشروعة فهذا قدرى ولا راد لقضاء الله تحملت الكثير ، سرت فى طريق الأشواك من أجل أشقائى، والدى لم يكن من ملاك الأراضى أو العقارات لم يرث الذهب والفضة، لم يرث أفخم الثياب بل كان يملك الستر، وقليلا من المال الذي كان يسد أفواه الأسرة بالكاد ظل يصارع الشدائد حتى وقع فريسة للمرض .

---

(١) جريدة الوفد ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢م.

دفعنى كل هذا للبحث عن عمل إضافى لتوفير نفقات علاج والدى وسد احتياجات البيت ومستلزمات أشقائى بمراحل التعليم، واصلت عملى ليل نهار لتحقيق ذلك ، توغل المرض فى جسد أبى وانتشر حتى شل حركته، وفى لحظة خاطفة دثره الموت، وفاضت روحه إلى بارئه رحت أبحث عن عمل ثابت يدر على دخلا أستطيع من خلاله مواجهة المتاعب ، هرولت يمينا ويسارا حتى عثرت على فرصة عمل بأحد المصانع كعامل باليومية، وفقنى الله إلى تلبية متطلبات أسرتى، تقمصت شخصية الأب رغم أن عمرى لم يتجاوز ١٥عاما لم أبخل بأى شىء على أفراد الأسرة، وزعت عليهم الحنان بالتساوى أغدقت المال إذا توافر بيدى.

سارت حياتى على هذا الحال سنوات طويلة وصلت شقيقاتى إلى سن الزواج ، ضاعفت ساعات عملى إلى أن أدخرت مبلغا معقولا من المال جهزتهن به حتى استقرت كل واحدة بحياتها.

واصلت رحلة الشقاء والمعاناة مع الحياة بعد أن أصبحت ووالدتى وأشقائى الصغار بالمنزل نجحت فى تحقيق حية كريمة مضت الأيام كما تمر بغيرنا دون جديد وفى يوم عبوس حزين كست فيه التعاسة وجهى أثناء عودتى من العمل شعرت بألم شديد أسفل البطن لم أعر إهتماما بالألم رجعت إلى المنزل ومارست حياتى بشكل عادى نمت ليلتى وحالتى الصحية غير مستقرة ، وفى اليوم التالى تكرر معى نفس التعب.

نصحنى البعض بعرض حالتى على طبيب متخصص للإطمئنان وبعد عدة توسلات من والدتى عرضت حالتى، وقد أظهرت الأشعة والفحوصات الطبية اصابتى بفتق سرى ، وبناء على ذلك قرر الطبيب سرعة إجراء جراحة، ولحدوث خطأ بالجراحة أصيبت بنسبة عجز كبيرة عجزت عن العمل ، عشت على مساعدات أهل الخير.

سقطت والدتى صريعة المرض شل عقلى عن التفكير، ضاقت بى سبل الحياة رويداً رويداً تحسنت حالتى، عملت بالأعمال الخفيفة استطعت ادخار مبلغ مالى بحثا عن نصفى الآخر حتى عثرت على الزوجة الصالحة التى تحملت معى شدائد الحياة، لم تغال أسرتها فى المهر، أقمنا بشقة أسرتى بعد رحيل والدتى عن الدنيا، وأشقائى عن المنزل، ساعدتنى أسرة زوجتى بقدر استطاعتها.

ورغم ضيق ذات اليد إلا أن أيامنا كانت سعيدة، وللأسف لم تستمر هذه السعادة طويلا ، فقد توالت ضربات القدر فوق رأسى، وتعرضت شقتى للانهيار أثر الزلزال ، وقفت عاجزا لا أدرى أين أقيم وزوجتى انتقلت للمعيشة مع أسرتها، بنفس غير راضية أشهر معدودة عشتها مع الأسرة ، وخوفا من حدوث خلافات ومشاجرات مع أشقاء زوجتى، تركنا المنزل، وأقمنا بغرفة لا تصلح للاستعمال الآدمى أعلى أحد العقارات.

شاء حظى العاثر أن أصيب بحادث بيدى اليسرى أعجزنى عن العمل تماما عشت مرة ثانية على مساعدات أهل الخير ضاقت بى الحياة بالحجرة، رحت أتردد على محافظة القاهرة أملا فى منحى وحدة سكنية من المساكن المخصصة لأصحاب الحالات القصوى إلا أن محاولاتى باءت بالفشل، تقدمت بعدة التماسات لوزارة الشئون الاجتماعية لمنحى مساعدة مالية ولا حياة لمن تنادى ، أحسست أننى كنت ضحية لثالوث المرض والفقر والحرمان.

زواج الحسرة (١)

كنت أعيش مع أبى وأمى فى منطقة الجيزة وكانوا يطلقون على أننى شديدة الجمال وشعرى نسيج من شمس ذهبية وكان عمرى لم يتعد الخامسة عشرة، والدى كان موظفا بسيطا فى هيئة النقل وراتبه لا يكفى أسرة مكونة من

(١) جريدة الوفد ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢م.

٦ أطفال وأنا أكبرهم يخرج أبى للعمل ويتركنا طوال النهار مع أم كادحة تحاول لملمة شتات أولادها بعد عودتهم من المدارس والحاجة تزيد كل يوم من مصاريف مدارس وكتب لم تعلم أمى أن هذا الكم سيكون مصدر أرق بالنسبة لها.

وأبى الذى يعود فى آخر النهار يجر رجليه من العمل فى الجراج التابع لهيئة النقل ويأتى فى آخر كل شهر بجنيهات ضئيلة لا تكفى لأيام معدودة ويظل جالسا بجوار أمى ويضع كفيه عن خديه ولا يعلم من أين يكفى قوت أولاده السبعة.

كنت فى الصف الثالث الاعدادي وأرى أمامى ضيق الحال وشكوى أمى المستمرة وأن الراتب لا يكفى وفى أحد الأيام اقترحت أمى عليه أن نجهز كشكا لبيع الحلوى وأن تتولى أمى إدارته إلى أن يأتى أبى من عمله فاغتبط والدى من الفكرة ووافق عليه واستدان بعض المال لإنشاء الكشك وبعد عشرة أيام كان الكشك جاهزا ووضعه أبى فى أحد الشوارع القريبة من منزلنا واستمر الحال عدة أشهر وبالكاد كان عائد الكشك بسيطا جدا لم يف بسداد قيمته التى استدان بسببها والدى .

وما أن انتهت المرحلة الاعدادية ونجحت بمجموع لا يؤهلنى لدخول الثانوى العام فاقترحت على والدى أن التحق بالمدرسة الثانوية التجارية وبدأت الدراسة وفى الأسابيع الأولى كنت أسمع همس الفتيات عن الزواج وأنه يحل أى معضلة تصادف البنت وأنه يبعدها عن وجع الدماغ من مصاريف ومذاكرة ويريح البنت فى حياتها.

كنت أدعو الله أن يرسل لى العريس الذى يفك أسرى ويخفف العبء عن والدى ليتفرغ لبقية أشقائى. وفى أثناء عودتى من المدرسة شاهدنى أحد

الجيران ويعمل فى ورشة ميكانيكا، رأيت فى عينيه أملا جديدا فى انتشالى من الفقر الذى أعيش فيه وظلت ابتسامته لا تفارقنى وذات مرة أثناء مرورى من أمامه وجدته يسير خلفى حاولت التخفيف من مشيتى حتى يلحق بى واستدرت إليه وعلى وجهى بسمة أعتقد أنها أسعدته كثيرا فقال لى أريد أن أتقدم لخطبتك فأومأت برأسى فتركنى مسرعا وكأنه يطير من الفرحة.

وفى اليوم التالى وجدت والدتى تجلس مع إحدى السيدات فاقتربت منهما قليلا وصافحتها وانزويت فى ركن من الشقة المتواضعة فى إحدى حوارى الجيزة وبعد أن غادرت الزائرة قالت لى أمى أنها أم «حسين» الميكانيكى جاءت لطلب يدى لابنها وأنهم سيأتون غدا لمناقشة أمور الخطبة مع والدك.

انتظرت إلى اليوم الموعود وعندما جاء «حسين» لم يكن معه إلا والدته جلسوا جميعا فى صالة الشقة الضيقة وما أن عرض «حسين» على والدى خطبتى حتى فوجئت بمبررات وبطلبات لا يستطيع أن يفى بها «حسين» وخرجوا جميعا مكسورى الخاطر وبعدها حدثنى والدى وقال لى أن «حسين» أمامه الكثير لكى يحقق لك جزءا من الشبكة وأنه يدخرنى لزواج يفك كربه ولا يكلفه مليما.

كتمت أحاسيسى بداخلى ولم أبد له ما يختلجنى من شعور تجاه «حسين» فى هذه الأثناء جاءت البلدية فأزالت الكشك من مكانه لأنه غير مرخص وأن المحافظة منعت التراخيص وجاء صديق والدى الذي أقرضه بعض المال ليطالب بحقه وقد مرت عدة شهور ولم يف أبى بوعده معه وما أن شاهدنى حتى انفرجت أساريره قائلا لوالدى كيف تعيش فى محنة وأنت عندك هذا الجمال فقال له والدى أريد لها عريسا مبسوطا لأنك تعرف أننى لا أستطيع أن أتحمل مصاريف زواجها فقال له لا تقلق أعرف أحد المحامين يعمل فى توفيق الرؤوس فى الحلال وسنكون عندك خلال أيام.

حاول حسين أن يستوقفنى ليعرف رأيى فقلت له أن والدى يرفض زواجى منه وليس أمامى إلا الانصياع لأمره فتركنى وقلبه يتحسر وقلبى يتمزق.

بعد مرور عدة أيام جاء صديق والدى ومعه المحامى وأختلى بوالدى لبضع دقائق وجلسوا سويا يتناقشون فى أمر زواجى وعرض المحامى على والدى مبلغ ١٠ آلاف جنيه وشبكة ٥ آلاف جنيه وأن العريس سيأتى غدا لرؤيتها وسيتم دفع المبلغ فى حالة الموافقة على العروس وأضاف المحامى عندما رآنى لو شاهدها العريس لن يرفضها أبدا وجاءوا فى اليوم التالى ثلاثتهم وجلسوا مع والدى ونادى والدى على فدخلت عليهم وشاهدت العريس العربى فى حوالى الخامسة والأربعين من عمره وعندما شاهدنى ابتسم وقال لوالدى أوافق على كل ما اتفقت عليه مع المحامى.

جريت من أمامهم وبكيت وتحسرت على حظى.. أتزوج رجلا فى عمر أبى لأنه سيدفع أكثر ولن يحمل والدى مليما ودخلت أمى على وقالت لى ليس أمامنا سوى هذا الحل فقلت لها اتبيعوننى لهذا الرجل فقالت لى ليس بيعا أنه زواج على سنة الله ورسوله قلت لها أنه سيكون زواجا غير سعيد فقالت لا أنك ستمكثين معنا فى مصر وسيذهب إلى بلده ويعود إليك بين الوقت والآخر ورضيت بما رضى به أبى.

وبعد يومين من الاتفاق تم الزواج وتم تسجيل العقد فى الشهر العقارى وانتقلت معه إلى منزل الزوجية شقة متوسطة بشارع الأهرام ايجار قديم واستلم والدى الثمن.

لقد شعرت أن حياتى انتهت منذ أن وطأت قدماى شقة زوجى وتملكنى الرعب من الوهلة الأولى فقد رأيته كالذئاب يريد أن ينهشنى وكتمت فى قلبى ما رأيته ولم أسعد كثيرا واضطرتنى الظروف للرضوخ للأمر الواقع عشت معه

الليلة الأولى وكأنها الدهر فلم أر النوم بعينى تحملته وأكاد أن أموت أنه همجى لا يعرف كيف يتعامل مع امرأة فى مثل سنى بعد أن أجبرت على هذا المسمى الجديد ولم أبلغ الثامنة عشرة .

مكث معى ٧ أيام بالضبط وقال لى لا تجلسى فى هذه الشقة وسأسافر إلى بلدى وعندما أعود سآخذك من عند والدك ونرجع إلى إليها وبالفعل تم له ما أراد وذهبت إلى والدى ومكثت عنده لمدة شهر ونصف الشهر.

وعاد زوجى واصطحبنى إلى شقته ومكث معى ١٠ أيام وفى هذه المرة طلب منى أن استخدم مانعا للحمل لأنه لا يريد أطفالا فى الوقت الحالى ثم سافر إلى بلده مرة ثانية استمرت حياتى معه على هذا النمط أكثر من سنتين أغدق على والدى ببعض المال فى كل زيارة يأتى فيها إلى مصر.

وفى إحدى زياراته إلى مصر فوجئت بامرأة تطرق باب الشقة وعندما فتحت الباب صرخت فى وجهى وكانت لهجتها عربية وخرج عليها زوجى فكانت الطامة أنها زوجته الأولى وأم أولاده فقد شكت فى تكرار زياراته إلى مصر وقررت أن تعرف الأسباب وراء هذه الزيارات المتكررة وانهالت عليه بالسباب والشتائم التى يعف اللسان عن النطق بها وأكثر من هذا قالت لزوجها هل تزوجتها فلم ينطق بكلمة وأحسست أن الدنيا أظلمت فى وجهى وصرخت فى وجهها أنه زوجى وأخرجت لها شهادة الزواج فبصقت على وجهه وطلبت منه أن يطلقنى فورا ويطردنى من شقته لم يتحمل كثيرا وكان مثل الذئب الذى يحاول الهروب من ميدان القتال ويتمسح فى التراب.

حملت حقيبتى وعدت إلى والدى وقصصت عليه ما حدث وجلست أمى تبكى وتندب حظى فقلت لوالدى لقد بعتنى بثمن بخس جدا . لم يعد لى فى الحياة ما أبكى عليه، كل عمرى الجميل انتهى منذ سنوات، لعنة الله على سماسرة

الأجساد لا أعرف كيف يأكلون من بيع أجسادنا حتى ولو تحت ستار الزواج.. أى زواج هذا؟.

نزوة الخريف ..!(١)

كان الفقر حليفا لى منذ مطلع عمرى إلا أننى لم أكن أحرص على شىء فى حياتى قدر حرصى على أن أكون أكثر شباب الحى أناقة ووسامة.

كنت انتقل من نزوة إلى أخرى. ومن قصة غرام إلى غيرها، حتى جاء يوم وافقت فيه على ابنة خالتى التى لم أرها يوما بعيون الحب إلا تلك الليلة التى التقيت فيها معها بأحد أفراح العائلة.. أنا من فرع العائلة الفقير، وهى من الفرع الغنى، حاولت التقرب منها فابتعدت كلمتها فلم ترد، حاولت لفت انتباهها تجاهلتنى .. لم تخرج هند من عقلى بعد انتهاء الفرح .. جعلتها هدفى الوحيد، طرقت كل الأبواب الموصلة إلى قلبها دون جدوى، ظهر الذل واضحا فوق ملامحى عندما قمت بزيارة خالتى فى بيتها تكسرت الكلمات فوق لسانى وأنا أبادر «هند» الحديث ، وأخيرا رق قلبها لى .. سمعتى السيئة فى دنيا الحريم سبقتنى إلى أبنة خالتى، التى صارحتنى بأن الكلام معى شبهة ولم أرد ، عابتنى على إهمالى لدراستى بالجامعة، عاهدتها أن أكون شخصا آخر غير الذى كانت تسمع عنه، وبادرتها أنا بحبك يا هند!! أجابتنى فى جرأة - كان من الممكن أن أبادلك نفس المشاعر لكننى لست على استعداد للمغامرة .. حتى لا أكون ضمن قائمة خليلاتك..!! اقنعتها بأنها ستكون محطتى الأخيرة، وبأن قلبى لو عاد إلى سابق عهده فمن حقها أن «تؤدبنى» بالشكل الذى تراه أقسمت لها بأن حياتى الحقيقية قد بدأت معها وبأن حبى الأول قد ولد معها!! وأكدت لى بعبارة صريحة سوف أمنحك عمرى كله، والأيام بيننا. هذا عهد بينى وبينك وإياك ونقض العهد.

(١) جريدة الوفد ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢م.

أعترف بأننى قد نجحت وبمهارة فى كل الاختبارات الأولى بتفوق انهيت دراستى بالجامعة وحصلت على بكالوريوس التجارة التحقت بالعمل فى وظيفة حكومية لم أكن قانعا بها.. لكن ما كان يهمنى هو إثبات ذاتى أمام «هند» التى تقدمت لخطبتها ، بعد أن وقفت إلى جانبى وأقنعت والدها بأنى العريس المناسب لها، تزوجت «هند» وحاولت أن تدفعنى للإحساس بالسعادة ومنحنا الله الأولاد والستر والحب إلا أننى ظللت أحلم بالثراء من خلال مشروع، وماذا يفيد لو ساعدتنى هند بالمال لإقامة ذلك المشروع ليكون نقطة الإنطلاق لم أكن أصدق أنها سوف تمنحنى تلك الفرصة التى أحلم بها.

الغريب أن «هند» خذلت كل ظنونى عندما صارحتها بأحلامى اقتربت من عالمى وباركتنى، اعتزلت الوظيفة الحكومية وتغير منحنى حياتى رأسا على عقب.. أصبحت صاحب شركة مقاولات لها مكانتها، وتحقق الثراء الذى كنت أنشده.

ورغم كل ما تحقق لى من الثراء والنعيم لم استشعر دفء الحب يوما مع هند كزوجة، ربما كان ثراؤها عوضا عن ذلك الدفء ، فرغم كل ما ترفل فيه من نعمة الثراء فهى لا تعرف للكوافير طريقا إلا نادرا، لا تراعى تناسبق ملابسها واختيار ألوانها حاولت مرات عديدة أن أثير فى وجدانها أمور الأزياء والأناقة والمكياج فكانت تلقى كلماتى باستخفاف وسخرية.. احتفظنا كزوجين بإيقاع هادئ رتيب ممل فى كل أمور حياتنا.

لم استسلم لنزعات التمرد التى كانت تراودنى بين الحين والآخر، فأنا لا أنكر أنها سر أسرار نجوميتى وثرائى فلولاها ما أصبحت على هذا القدر من الثراء، فقد منحتنى كل مالها عن طيب خاطر، الصفقات والمال أصبح شغلى الشاغل ، وحين أعود إلى بيتى لا أجد غير زوجة غارقة داخل المطبخ.. لا تتحدث

إلا عن أتفه الأمور، الإهمال الذى يبدو على ملابسها يصيبنى بالأسى والحسرة .. معظم أوقاتها داخل المطبخ وباقى الأوقات مع صديقات لا حديث لهن غير الغيبةوالنميمة.

ظلت حياتى هكذا بين الثراء والصفقات دون مشاعر أو عاطفة حتى فوجئت بأنى تخطيت الخامسة والأربعين عاما من عمرى، شعرت بأن دنيا المرأة لم تعد تحمل جديدا، أعلنت اعتزال النزوات وجافيت رغباتى.. أحسست بفقدان أسلحتى ، طردت كل أفكار السوء من خاطرى، انغمست فى معركة الصفقات والمشروعات حتى أكملت الستين عاما من عمرى.. حتى فوجئت بالعاصفة تهب على حياتى دون سابق إنذار، امرأة طاغية الجمال جاءت إلى الشركة للتعاقد على صفقة تجارية.. سمعت صوتا يهتف فى أعماقى من له القدرة على احتمال ذلك الجمال الساحر، وراودنى خاطر، بأن المال وحده لا يكفى والعمر لا يعيشه الإنسان غير مرة واحدة.

دون أن أدرى اندفعت نحو زبونتى ، توددت إليها، اقتربت منها، اختصرت المسافات، شجعتنى ولم أصدق مقاومتى خارت أمام موجات مغناطيسية كان مصدرها عيون ساحرة اغتالت مقاومتى ، وفوجئت بأننى أطلب منها الزواج !! بوضوح غريب بادرتنى بشروطها، أولها أن أطلق زوجتى ولا أمنعها من ادارة أعمالها التجارية ، ودون تردد أعلنت القبول، فتنة زائرتى طمست على ذاكرتى وعهودى مع «هند» العاصفة اقتلعت «هند» من حياتى .. طلقتها.. دون أن أدرى.. نسيت «هند» وربما نسيت هى نفسها بعد الكارثة.

أصبحت «فيفى» سيدة القصر وبأموالى قفزت تجارتها إلى الصفوف الأولى ثلاثة أعوام مضت وفوجئت بأن حياتى الخاصة معها تحولت ..!! أصبحت أشعر أننى أحد رعاياها وهى الملكة المتوجة، شعور مفاجئ انتابنى.. لم

تعد «فيفى» كما كانت تغيرت معى تماما ..!! غيابها عن المنزل يطول ويتزايد حتى منتصف الليل وحين تعود.. تلعن العمل والإرهاق الذى أصابها، تأوى إلى فراشها كجثة هامدة..!

لم يكن من الصعب على رجل مثلى محترف وله خبرة أن أعرف ماذا أصاب زوجتى نظرة واحدة في عينيها كفيلةُ بأن تكشف كل ما لا يعرفه الآخرون عنها التقطت من نظرتى فى عينيها أشياء تعلّمتها من تجاربى السابقة، لاحقتها بكل العيون والآذان حتى تاكد لى أنها تخوننى لم يكن خبر الخيانة أغرب من خبر شريكها.. كان سائقها الخاص شاب فى مقتبل العمر..!!

عقدت العزم على أن أضبطها بنفسى فى حالة تلبس، وكان لى ما أردت بالشاليه الذى أمتلكه بالساحل الشمالى، وبمنطق حضارى فريد تعاملت مع الموقف.. وقعت لها على تنازل كامل بكل حقوقها الشرعية نحوى، وأعلنت طلاقها، أحسست بالهزيمة ومرارة الندم..! واعتبرت الأمر خلاص ذنب لإنسانة لم تبخل على بشىء، عن طيب خاطر أعطتنى مفتاح الثراء والنجاح الذى انتشلنى من حضيض الفقر، وتذكرت عهدى القديم مع «هند» لعنت نفسى التى انكرت الجميل.. وغاصت فى أوحال الخسة والنذالة، أصبحت أعيش مرارة الحسرة والندامة ولا أدرى ماذا أفعل..!!

رياح الخريف (١)

أنا امرأة عاقلة من أسرة متوسطة أبلغ من العمر ٤٠ عاما لا أشعر بالسعادة ولا أعرف طعم الفرح منذ قدومى إلى هذه الدنيا المليئة بالغرائب والعجائب حيث نشأت فى قرية «بقطارس» بمركز أجا بمحافظة الدقهلية وسط أسرة كبيرة العدد مكونة من أبى وأمى وسبعة أشقاء خمس بنات وولدين.

(١) جريدة الوفد ١ أغسطس ٢٠٠١م.

تربيت على الطاعة والولاء منذ صغر سنى وحداثة عهدى بالحياة وتعلمت كيف أحافظ على عادات وتقاليد بيئتى الريفية التى فتحت عينى عليها، لم يكن لى أى حظ من التعليم مثل باقى أشقائى ولا أتذكر أى شىء عن مرحلة الطفولة، وقد يرجع ذلك إلى عدم شعورى بها أو الاستمتاع بعذوبتها وصفائها، وعندما بلغ عمرى ١٧ عاما وأوشكت على اقتحام مرحلة الصبا تقدم لخطبتى شاب من أهل القرية لم أكن أعرفه ولم تقع عليه عيناى من قبل، كان يعمل خفيرا نظاميا بمركز أجا وكعادة أهل القرية وافق أبى على زوجى دون الاحتكام لرغبتى،

وفى وقت قصير تمت الخطبة وتم عقد القران وانتقلت إلى حياة جديدة تماما على ، عاهدت نفسى أن أكون زوجة مخلصة، أحترم زوجى وأسهر على راحته مثلما تعلمت من أمى الطيبة وتمنيت أن يضعنى زوجى فى عينيه ويغمرنى بعطفه لكن الحياة ليست على هوى أحد ، حيث خيبت الأيام أمالى وأطاحت بأحلامى وجاءت شخصية زوجى غريبة الأطوار ومتقلبة المزاج فثورته لم تكن تهدأ إلا لتشتعل من جديد ولو لأتفه الأسباب ضربنى أهاننى سبنى بأسوأ الألفاظ جرح كرامتى ورغم كل ذلك تحاملت على نفسى ولم أفكر فى الرحيل عن بيتى حفاظا عليه من الانهيار، مرت سنة واثنتان وثلاث وتوفى والدى فجأة وترك لى ميراثا كبيرا مكونا، من قطعة أرض كبيرة ومبلغا ماليا كبيرا شعرت بالوحدة وتملكنى الإحساس بالخوف من هبوب الرياح المثقلة بالمجهول خاصة بعدما أثمر زواجى المفعم بالضجيج عن خمس بنات جميلات ،

كما أن شخصية زوجى لم تتغير وظل كما هو لا يهتم إلا بنفسه ولا يعجبه إلا مزاجه الضحل ودفعه تهوره وغباؤه لأن يتزوج على من إحدى الساقطات مما اشعل النار بداخلى حتى التهمت كبدى وراح يصرف عليها كل ما يملك حتى خسر كل شىء وأصبح على الحديدة دبت الخلافات بيننا وأصبح الشجار الدائم وجبة أساسية ،

وأخيرا انفصلنا فى هدوء. تفرغت لتربية بناتى وحمدا لله ربيتهن أحسن تربية وعلمتهن أحسن تعليم وبعد مرور عشرة سنوات من الانفصال وبدون مقدمات عاد أبو بناتى إلىَّ نادما وطلب أن يردنى إلي عصمته وافقت طبعا لصالح بناتى لكن للأسف اكتشفت بعد فوات الأوان أن الخسيس ردني إلى عصمته ليستولى على أرضى ويسرق مالى.

يعنى باختصار أخذنى لحما ورمانى عظما، كما ضربنى وضغط على حتى أرغمنى على تحرير تنازل له عن كافة حقوقى ثم طلقنى للمرة الثانية ورمانى فى الشارع ، هذه قصتى المؤلمة التى أبيض شعرى خلالها، وانحنى ظهرى على تربية بناتى ولم أعرف فيها طعم السعادة لكننى أتمنى أن استرد حقى الذى سلبه منى زوجى رغما عنى ليرتاح فؤادى ويهدأ بركان غيظى.

خريف العمر .. (١)

ليس هناك أصعب من الإنكسار فنحن نأتى للحياة، فتقابلنا إما بوجه حسن أو يكون لها معنا شأن آخر، وفى كل الأحيان نعلم أنها دنيا تدور ، تواجه مشاكلنا تتعثر مرة، وتقف مرة، أحيانا تربح، وأحيانا نخسر.. تجود علينا.. نأخذ منها الكثير ولا نشعر بالنعمة، إلا عندما نفتقدها.

«ليلى» سيدة أعمال .. تجاوزت الأربعين ربيعاً.. شاء القدر أن تكون نشأتها بين أسرة تنعم بالثراء والحياة الرغدة جاءت حياتها عامرة بالسعادة والبهجة مغموسة فى الثراء والمرح ، نصيبها من الحياة الثياب الحريرية الناعمة الزاهية والمجوهرات المرصعة باللؤلؤ والياقوت عرفت قصة الجميلة النائمة، والأمير الوسيم الذى بيده الخلاص ، فلا مكان للحزن والأسى وحياة التقشف

(١) جريدة الوفد ٢٤ يناير ٢٠٠٠م.

والطعام الجاف.. سنوات قليلة، واكتملت أنوثتها.. فالثراء والذكاء الحاد، ورشاقة القوام، وجاذبية العينين، دفعت مئات الشباب لنيل شرف الارتباط بها.. وبعد فترة من التفكير كان اختيارها لأحد الشباب الذين يعملون بمجال الأعمال الحرة، وبعد إتمام مراسم الزفاف، انتقلت إلى حياة أخرى لم تختلف كثيرا عن حياتها الأولى بمنزل أسرتها أشهرا قليلة، وأثمر الزواج عن طفل رقيق صاحب وجه ملائكى.. عكفت على تربيته حتى تجاوز عمره سبعة أعوام بدأت تشعر بالضيق والملل نتيجة أوقات الفراغ الطويلة بالمنزل، طلبت من زوجها العمل بنفس مجال عمله، على الفور وبدون تردد وافق،

كان حصاد العمل، عدة مصانع وشركات بمجالات مختلفة، ولكن بسبب انشغالها بمجال «البيزنس» أهملت حياة أسرتها فدبت الخلافات والمشاكل التى تزايدت بمرور الأيام والنتيجة كانت الانفصال بين الزوجين، قامت بشراء «فيلا» قريبة من شركاتها، عاشت سنوات طويلة، تسير حياتها على وتيرة واحدة، فالنهار عمل والليل صراع مع ذكريات الماضى،

لم يكن لها صديق سوى خادمتها البسيطة التى تعول أسرة كبيرة العدد التى تتركها عائدة إلى أبنائها مع أول خيوط الظلام.. وطوال ساعات الليل تتذكر «ليلى» كلمات الخادمة عن أبنائها وزوجها ولحظات السعادة التى تحياها الأسرة رغم حياتهم البسيطة، وتذكرت أيضا ابنها الوحيد عندما كان يرتمى بين ذراعيها.. حب المال والثراء الفاحش، جعلها تضحى بأسرتها الصغيرة فماذا يفعل الندم لإعادة بريق شبابها مرة أخرى الذى ارتسمت عليه تقلبات الأيام.

اغتيال البراءة (١)

كنا نعيش حياة هادئة مستقرة قبل مرض أبى، كان دخل والدى اليومى يكفينا ويسد رمقنا يوما بيوم حتى أصيب بمرض لا فكاك منه، فقد أصيب بشلل نصفى أقعده طريح الفراش، لم يكن لنا دخل آخر غير مورد أبى ونحن مازلنا أطفالا.

باعت أمى قطعة أرض صغيرة كانت ميراثها من أبيها ، لم يكف ثمنها نصف علاج أبى كنت وقتها فى الصف الأول التجارى ، والأخت الكبرى فى الصف الثانى الصناعى وكان عمرها ١٦ عاما.. بدأنا نفكر كيف العمل والسبيل للخروج من هذه المحنة التى ألمت بنا، بعد أن تخلى عنا الأقارب والأصدقاء فقررنا ترك المدرسة أنا وشقيقتى والنزول إلى سوق العمل ، لكى نعوض غياب مورد أبى ونستطيع أن نساعد بقية أشقائنا فى مراحل التعليم المختلفة وفى محاولة لتوفير نفقات علاج أبى.

تركنا المدرسة، وعملت شقيقتى فى محلات الملابس الجاهزة، وعملت فى كوافير للنساء ولصغر سنى وعدم خبرتى بالأعمال الخاصة بالنظافة طردنى صاحب المحل بحثت عن عمل آخر فالتحقت بعدة محلات، ولكن تركتها إما لسبب صغر سنى أو لقلة الراتب استقر بى الحال عاملة فى إحدى الصيدليات فى حى راق قريب من الحى الشعبى الذى نعيش فيه استطعت وشقيقتى بالراتب القليل الذى نتقاضاه أن نساعد اسرتنا التى كانت حالتها دائما من سيئ إلى أسوأ، واضطر شقيقى الأصغر لترك مدرسته وخرج إلى العمل.

مرت حياتنا على هذا الحال وأنا أعمل فى الصيدلية لمدة ٦ شهور غمرنى صاحب الصيدلية وزوجته بحنان وعطف كبيرين بعد أن علما بظروفى الصعبة،

(١) جريدة الوفد ١٧ أكتوبر ٢٠٠١م.

وكثيرا ما كانت زوجة صاحب الصيدلية تعطينى بعض الملابس الخاصة بأولادها وبعض المال رغم أن هذا التصرف كان يجعلنى أتصبب عرقا من الخجل ، إلا أنه لم يكن أمامى سوى القبول فالحاجة ذل ومهانة لا حدود لهما .

عاملنى الصيدلى كأب فهو يبلغ من العمر ٤٥ عاما وكبرى بناته فى عمرى تقريبا، أغدق علي بعطفه، وجعلنى أشعر بالأمان بدأ اهتمامه بى يزداد كل يوم ، وعندما يأتى أى صيدلى جديد للتدريب بالصيدلية وإذا حاول فتح حوار معى يعنفه بشدة.

كان صاحب الصيدلية يصف وجهى بأن به صفة الملائكة وبراءتها وأن جسدى الطفولى الأخضر فى حاجة إلى رعاية خاصة وعناية فائقة تقبلت كلامه ببراءة الأطفال من أب لابنته لم أكن أعلم ما يدور بداخله ، وأنه يخطط لاستغلال ظروفى وحاجتى الشديدة للمال.

كل يوم يمر على أشعر باهتمامه الشديد ولم أفهم السبب الرئيسى وراء هذا الإهتمام دون مقابل، ويغدق على الأموال فى الأعياد والمناسبات وكانت الهدايا تشمل أسرتى أيضا .

علت السعادة وجه أبى لأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى من يرق قلبه لى. أما أمى فدائما تتعجب وأشعر فى عينيها بسؤال حائر. وتخشى أن تطرحه .. كنت احسس الخوف فى كلماتها من تصرفات الصيدلى المبالغ فيها، كنت أبرر لها أفعاله بأن قلبه طيب وحنون وأنه يشفق علينا .

مر عام على عملى بالصيدلية وأصبح عمرى ١٧ عاما وحالنا كما هو بل احتياجاتنا للمال تزداد وهو يقترب منى أكثر فأكثر. وذات يوم طلب منى أن يأخذنى فى نزهة فى أماكن لم أرها من قبل، لم أتردد ووافقت على طلبه وكانت ثقتى به ليس لها حدود.. تكررت نزهتنا سويا إلى بعض الأماكن الجميلة، وفى

إحدى المرات أمسك بيدى فى رفق جميل انتفض جسدى وجرى الدم فى عروقى وشعرت أن الناس كلها ترى يدى فى يديه فانتزعتها من بين أنامله ونظرت إلي الأرض آسفة لما فعله فما كان منه إلا أن حاول رفع وجهى فى هدوء وطلب منى أن نتزوج دون أن يعلم أحد.. سمعت كلماته وكاد يغشى على .. زواج.. أى زواج هذا الذى يطلبه فأنا مازلت صغيرة.. كيف لى أن أتزوج رجلا أعتبره أبى ويكبرنى باكثر من ثلاثين عاما وكيف أتزوج دون علم أهلى.

أسرعت مهرولة وتركت له المكان ولا أعلم أين ستأخذنى قدماى وقفت أفكر فى كلماته كيف سأعيش زوجة فى السر.. قطع تفكيرى صوته.. وجدته بجوارى دون أن أنتبه. طلب منى عدم التسرع ويجب أن أتمهل وأنه سيوضح لى موقفه اصطحبنى معه إلى الصيدلية.. بدأ كلامه المعسول وأكد لى أنه يحبى منذ أن رآنى فى المرة الأولى، وقال : أن الحب لا يعترف بفارق السن أو المنصب، وأنه سيكون لى أبا وأخا وصديقا وزوجا حنونا. وعندما سألته عم إذا علم أهلى ؟! فأكد لى أنه لن يقابلنى كثيرا وأنه سيكون حريصا على الحفاظ علي. كما قال لى إذا تقدم لك عريس ترتضينه سأطلقك دون أذي وسأعالج أى أمر.. وقال لى : أنه لن يطلب منى حياة زوجية كاملا كأى زوجين، بل أن أقصى ما يحتاجه منى وجودى معه فقط لافتقاده الحنان وانشغال زوجته الأستاذة الجامعية.

تحت الحاجة وافقت ورضخت لطلبه وكلى خوف من الغد.. كتب ورقة زواج عرفى دون شهود واستغل عدم خبرتى وسذاجتى واقنعنى بعد التوقيع عليها بأننى أصبحت زوجة له - وأن الزواج ليس الا قبول وإيجابا- وقال لى : أنه سيحتفظ بالعقد معه خوفا من أن يراه أحد معى وقال لى : إننا سنتقابل فى شقة ملك له ٣ مرات فى الأسبوع.

فى أول لقاء لنا كاد قلبى يتوقف من شدة الخوف فهذه أول مرة يغلق على باب واحد مع رجل ، حاول أن يشعرنى بالأمان وأنه لن يفعل شيئا يؤذينى ، ثم تكررت لقاءاتنا يوما بعد يوم فزال الخوف والارتباك من قلبى وفى أحد اللقاءات اقترب منى كالذئب مستخدما كلمات ناعمة وساحرة وأهدر براءتى للأبد.. نسى وعده لى بكيت كثيرا.. بكيت إلي أن انفطر قلبى الطفولى الذى لا يعلم معنى ما حدث.. حاول أن يهدأ من روعى وأفهمنى أنه سيعالج الأمر بحكمة واقتدار وللأسف تعامل معى وكأن شيئا لم يحدث.

لم يكن أمامى إلا التسليم بالأمر الواقع وماذا عساى أن أفعل..؟! ما خسرته قد خسرته انتهى الأمر استمرت علاقتى به وأغدق على بالكثير من المال لدرجة أن أهلى بدأ يساورهم الشك.

كل شيء يهون على نفسى عندما أرى الفرحة فى أعين أشقائى وفرت لهم كل ما يحتاجونه زادت لقاءاتنا وتحولت براءتى السابقة إلي خطيئة بل خطايا تتكرر يوميا تحت ستار الزواج وأعطانى عقاقير كثيرة لمنع الحمل فقد كان حريصا جدا استمرت علاقتنا على هذا الوضع ٤ سنوات كاملة قضيتها فى خداع نفسى وخداع كل من حولى وزوجته مازالت تعطف على وتعاملنى كابنة لها.

كنت أتحدث مع نفسى كيف سيكون رد فعلها عندما تعلم بالحقيقة.. ماذا سيكون تصرف أبى وأمى وأشقائى إذا عرفوا بفعلتى الشنيعة..؟! وأنا لا أملك أى إثبات لزواجى . لقد كنت ساذجة ولا أعلم شيئا عن هذه الأمور ولكن لن يقدر أحد موقفي وجهلى ، وفى هذه الأثناء تزوجت شقيقتى الكبرى من زميل لها فى المحل الذى تعمل به وبعد زواجها بعدة شهور ، وأنا مستمرة فى غيى تقدم لخطبتى تاجر أدوات صحية شاب على خلق طيب كريم ويحبنى كثيرا وعندما

تقدم هذا الشاب لخطبتى وقعت فى بحر عميق كيف اتصرف ولماذا أرفضه ما المبرر وإلى متى سأرفض.

طلبت من زوجى المزعوم أن يجد لى حلا فقد وعدنى قبل ذلك فراح فى تفكير عميق وعندما الححت عليه ووصفت له المأزق الذى وقعت فيه، كان رده أنه تعلق بى ، ولم يعد يحتمل فراقى والبعد عنى وقال : كيف لى أن أتركك لغيرى وأنا أحبك.

أحسست أن المسألة أصبحت ملكية خاصة فقد ذكرنى بأنى فتحت عينى على يديه وعرفت معنى الحياة من خلاله، كيف يتركنى بهذه السهولة فاردفت له إذن تزوجنى أمام الناس وأعلن حبك لى أمامهم.. فقال : أن وضعه وسنه وزوجته عائق أمام زواجه منى.. ما معنى ذلك أيريدنى كما يحب ولا يهمه وضعه وظروفى أمام الناس وأمام أهلى توسلت إليه أن يرحمنى ويجد لى حلا لهذه المشكلة فلم يستجب لى.

لم أستطع أن أصارح أحدا ولو علم أهلى لقتلونى ، لم أجد أمامى إلا زوجته فهى امرأة صالحة طيبة حنون لجأت إليها ورغم صعوبة الموقف إلا أننى استجمعت قوتى وقصصت عليها كل ما حدث بالتفصيل ، أصابتها الدهشة واعتقدت فى بادئ الأمر أنى مجنونة ، طلبت منها أن تواجهه بما حدث صرخت فى وجهى واتهمتنى بسوء الخلق وشبهتنى بالحية الناعمة التى يختبئ السم بداخلها كلماتها كانت قاسية. والحق أقول التمست لها العذر فهى امرأة صدمت فى زوجها المخادع.. وبعد دقائق سألتنى ما المطلوب.. رجوتها أن يتركنى وحال سبيلى ويطلقنى وأن يعالج ما فعله بقليل من الحكمة ، فما كان منها إلا أن ابتسمت بسخرية وطلبت منى الخروج بهدوء قبل أن تفضح أمرى وخرجت مهزومة مكسورة لا أدرى ماذا أفعل..؟!

آه لو كان معى ما يثبت أنى متزوجة لعزز أمرى قليلا.. وماذا سيحدث لو أنكر علاقته بى.. ماذا سأقول.. بعت نفسى لشيطان وكنت أجهل ما يفعله بى.

رفضت العريس الذى تقدم لى رغم أنف أهلى وكادوا أن يجنوا مُن عدم منطقية رفضى بحثت عن الصيدلى المخادع لبحث الموقف فعرفت أن زوجته أخذته لقضاء بعض الوقت وأغلقت الصيدلية وبعد أسبوعين عادا من أجازتهما وعندما رآنى رمانى بنظرة اشمئزاز وكأنه لم يعرفنى من قبل وكأنه يقول لى أن محاولاتك مع زوجتى باءت بالفشل وأنك ادعيت علي ظلما وبهتانا.

والآن أخشى أن يفتضح أمرى أنا حاولت معالجة ما أنا فيه. لقد أصبحت نكرة وحيدة فى زمن اختفت فيه الرحمة والشفقة من قلوب البشر.. ألم يتذكر هذا الوحيش الكاسر أن له بنتا فى مثل عمرى.. ألم يخش عقاب الله سبحانه وتعالى بعد أن اغتال طفولتى وبراءتى.

أنين الأكباد (١)

كنت فتاة عادية جدا أحلامى متواضعة، وطموحى محدود، ومنتهى أملي الزواج من إنسان مهذب يخاف الله، ويحسن معاملتى ، وقد تقدم لخطبتى عدد كبير من أبناء القرية التى أقيم فيها وكان مصيرهم الرفض والاعتراض من جانب والدى.. ولا غرابة فى ذلك فلم يكن لى رأى فى هذه المسألة طبقا لعادات وتقاليد مجتمعى الريفى.

شاء القدر أن يتقدم لخطبتى رجل متقدم فى السن محترم من إحدى القرى المجاورة لقريتنا، كانت ملامحه تنبئ بالطيبة الخالصة، وحديثه يؤكد دماثة أخلاقه، وحسن تصرفه مؤشر على المروءة والشهامة التى تسرى فى عروقه مسرى الدم.

(١) جريدة الوفد ١٣ فبراير ٢٠٠٢م بتصرف.

وافق والدى على زواجى من هذا الرجل وانطلقت الزغاريد وكلمات التهانى فى كل أرجاء القرية.. خلال وقت قصير تم الزواج، وودعت منزل أسرتى بدموع مختلطة بنسيم السعادة وانتقلت إلى حياة الزوجية بكامل تفاصيلها.

أثبتت لى الأيام صفاء معدن زوجى ونبل مشاعره، عشت معه أحلى أيام العمر، ولمست فيه الصدق والوفاء ،كان يعمل بالأجر اليومى ولا يملك من حطام الدنيا شيئا، ورغم ذلك لم يقصر فى واجباته حتى بعدما رزقنا الله بستة أطفال فى عمر الزهور، اضطر للعمل ليل نهار حتى يستطيع الوفاء باحتياجاتنا، والحق أولاده بالمدارس لحمايتهم من آفة الجهل وبرائن الأمية، وظل يكد ويتعب حتى هاجمه المرض فجأة واقعده عن العمل وأجبره على ملازمة الفراش وفى غمضة عين حمله طائر الموت إلى مثواه الأخير، رحل عن الحياة ولم يترك خلفه أى شىء يساعدنى على مواجهة أعباء الحياة وتربية الأطفال الستة سيطر على الحزن، وتسرب اليأس إلى نفسى واسودت الدنيا فى وجهى بعد موت زوجى وتمنيت أن يمد لى الموت ظلاله ، هربا من كآبة الحياة ومرارتها،

إلا أننى تحاملت على نفسى وقهرت ضعفى وقررت أن أخرج لسوق العمل لاستكمال رسالتى فى الحياة، وفى النهاية عملت خادمة فى أحد المنازل بمركز قطور بالغربية، وأخذت أدخر كل مليم للإنفاق على تعليم أولادى، وأحرم نفسى من الطعام والملبس كى أوفر لهم طلباتهم.

مرت السنوات بسرعة خاطفة وتخرجت ابنتى الكبرى أمانى فى الجامعة وحصلت على بكالوريوس تربية شعبة اعلام تربوى بتقدير جيد جدا ومازال أشقاؤها بمراحل التعليم المختلفة وطلباتهم لا تنتهى ولا تقف عند حد معين الشئ المؤسف أن ابنتى عقب تخرجها طرقت أبواب كافة المؤسسات والهيئات الحكومية بحثا عن فرصة عمل لمساعدتى فى تحمل مصاريف أشقائها لكن

محاولاتها باءت بالفشل، ولم يكتب لها التوفيق ، ودفعتها الظروف لأن تعمل عاملة بأحد المصانع رغما عنها.

وفى يوم وليلة أغلق المصنع أبوابه وجلست بجانبى تبكى حظها العاثر، وظروفها الصعبة وزاد الأمر سوءاً بعمد أن أصبت بانزلاق غضروفى وأصبحت عاجزة عن الحركة وغيرُ قادرة على العمل ولا أعرف ماذا افعل للخروج من هذا المأزق الصعب فليس لى مصدر دخل ثابت ولا أملك أى شىء وليس لى من يعولنى أو يقف بجانبى وأولادى مازالوا يدرسون بمراحل التعليم المختلفة.

القتيل الذى لم يقتله أحد ! (١)

لم يكن لمسيو «أو كتاف برنار» من هم فى الحياة ، سوى الاستئثار بالغوانى الحسان، وأجود أنواع النبيذ المعتق .. وكان فى بداية حياته تاجرا ثم اعتزل التجارة - وسواها من الأعمال - بعد أن جمع ثروة طائلة واستقر فى فيللا أنيقة بضاحية كوديران، ببوردو، بفرنسا، يعيش عيش ذوى السعة، والبطالة.

لقد تزوج فى شرخ شبابه، ولكن زوجته ماتت بعد قليل، فعزف عن الزواج مرة أخرى، وإن لم يعزف عن النساء، وكانت « كوديران» فى ذلك العهد تعج بأجمل الفتيات الحديثات السن، وأروع السيدات اللاتى خلفن مرحلة المغامرات والطيش، فاكتسبن حكمة ووقارا .. على أن مسيو أوكتاف، كان كثير التحفظ فى علاقاته مع الفتيات العفيفات، ولا يكن لهن سوى مودة خالصة .. فإذا أراد إرضاء نزوة، تخير من الرفيقات من تتخذ الهوى سلعة وتجارة.

وكان خادماه وهما شقيقان مسنان يدعيان «بيير وفيليسى جارنييه» - يدركان نذواته، ويعرفان أمر مغامراته، إذ كانا يقيمان فى طرف من الطابق

(١) مجلة المصور مايو ١٩٤٩م.

الأول - والأوحد - الذى تتألف منه « الفيللا».. ولكنهما لم يكونا يعنيان بغير واجباتهما، أو يسعيان لغير الأجر السخي الذى كان «أوكتاف» يمنحهما إياه .. فقد كانت «فيليسى» فى الثامنة والخمسين، وكان «بيير» فى الخامسة والستين، ومن ثم كانا حريصين على أن يدخرا- منذ التحقا بخدمة الرجل قبل ذلك بثلاثين عاما - ما يكفل لهما حياة طيبة إذا أقعدتهما الشيخوخة عن العمل .. وكان يضاعف من تفانيهما فى خدمة أوكتاف، أن الرجل وعدهما بمنحة قدرها ١٠٫٠٠٠ فرنك، حين يتقاعدان .. وهى منحة إذا ضمت إلى ميراث صغير آل إليهما من عامين، وإلى مدخراتهما، كفلت لهما سعة فى الرزق بقية العمر.

الجريمة تمت بطعنة موسى

وكان «بيير جارنييه» هو الذى اكتشف الجريمة، حين دلف إلى مخدع مسيو اوكتاف فى صبيحة ٣ مارس سنة ١٨٦٧ ليوقظ سيده، كالمعتاد .. إذ ألقى الرجل مصابا بطعنة قاضية من موسى للحلاقة، وقد استلقى فى سريره، وبلغ من جرأة قاتله أنه غطى الجثة من قمة الرأس إلي أخمص القدمين بغطاء ثقيل لم يكن أوكتاف يستعمله قط، إذ كانت غرفة نومه تدفأ كل مساء بحرارة «منقد»، لاسيما فى الليالى التى ينتظر فيها رفقة ناعمة !..

وكان من الملاحظات الهامة التى استرعت الإنتباه، أن مسيو «أوكتاف» لم يعتد القراءة فى فراشه، بل كان يضطجع أحيانا- ولفترات طويلة - فى مقعد وثير،، ليستغرق فى مطالعة بعض القصص أو الكتب التى توافيه بها المكتبة التى يعاملها.. وقد وجدت - عند اكتشاف الحادث - قصة طرحت على المقعد، وقد فض نصف صفحاتها.. وعلى صفحتها الأولى، رؤيت هذه العبارة .. «هيلين موراندييه - ٣ مارس سنة ١٨٦٥».. وفيما عدا ذلك، لم يكن يوجد ما ينم عن المكتبة التى باعت الكتاب، ولا عن شخصية «هيلين»، أو العلاقة التى بين ٣

مارس سنة ١٨٦٥ و٣مارس سنة ١٨٦٧.. فهل كان مجرد مصادفة !؟.. وأكثر من ذلك، أن الأداة الحادة التى تفض بها الصفحات، والتى وجدت داخل الكتاب، لم تكن تمت إلى «أوكتاف» بصلة، كما قرر خادماه .. فهما لم يرياها معه قط من قبل !.. ولم يستطع أحد أن يتعرف على صاحبها.

الغموض يكتنف الحادث

وكان الدم قد نزف من الجرح الذى قضى على القتيل بغزارة حتى لوث البساط الذى كان إلى جوار الفراش.. وعلى منضدة صغيرة عند رأس السرير، وجد مصباح زيتى، وساعة صغيرة، وصحيفة تحمل تاريخ ذلك اليوم ،، لم تمس، رغم ماعرف عن «أوكتاف» من إهتمام بالأنباء.

وكانت دورة المياه المتصلة بالمخدع، تفضى، كما يفضى المخدع، إلى الشارع خلال باب شبيه بالنافذة.. وكانت مصاريع نوافذ المكانين مغلقة حين وفد «بيير» في الصباح لايقاظ سيده. وقد ظلت على حالها إلي أن وصل رجال البوليس.. ولم يلاحظ أحد على أى المكانين أقل فوضي، تنم عن عبث يد غريبة.. وإنما وجد جورب مفرد، من الحرير الرقيق، على مقعد فى مواجهة «الدوش» بالحمام، وقد طرز على طرف منه الحرفان «ا.ف» ولم يجد البوليس عناء فى البحث عن صاحبة الجورب، وقد ظن أنها مرتكبة الجريمة، أو شريكة فيها.. إذ ظهر أنها فتاة تدعى «أوجينى فينارد»، تحوم حول سمعتها الشبهات.

ولم تتردد الفتاة فى أن تعترف بأنها رافقت «أوكتاف» - ذا الستين عاما- إلى مسكنه، ولكن ذلك كان قبل الجريمة بثلاثة أيام أو أربعة، وقد قضت الليلة معه. فلما همت بالانصراف فى الصباح التالى ، وجدت أن أحد جوربيها ضائع، واضطرت أن تخرج بساق عارية وأخرى مكسوة.. وقد دل التحرى على صحة هذه الأقوال جميعا!.. والظاهر أن صاحب الدار وجد الجورب، فوضعه على

المقعد الذى فى الحمام، ريثما تعود صاحبته للسؤال عنه.. كذلك دل التحرى على أن «أوجينى» كانت ليلة الجريمة، خارج حدود «بوردو» فى صحبة أحد ضباط بوليس المدينة!..

شهادة فتاة كانت مع القتيل

وفيما عدا الدم الذى كان يلطخ البساط المجاور للسرير، لم يعثر فى الحجرة على أى أثر آخر للدم.. أما فى دورة المياه، فقد وجدت بعض لطخ بقرب حوض الغسيل، وكأنما غسل القاتل يديه فيه قبل فراره.. وفيما عدا موسى الحلاقة التى استعملت فى الحادث - على ما رجح البوليس - كانت جميع أدوات التواليت كاملة.. أما الموسى، فلم يعثر لها عى أثر قط !..

وسرعان ما ذاع نبأ المأساة فى « بوردو» فأثار ضجة.. وفى عصر اليوم نفسه، تقدمت شابة فى العشرين من عمرها - اشتهرت باسم «نيشيت» - إلى رجال البوليس فذكرت أنها قضت الليلة السابقة مع مسيو «أوكتاف»..

وعجب المحقق ، فصاح : كيف ذلك؟..

- ما الذى يدهشك؟.. أجل قضيت معه الليلة السابقة.

- فى أية ساعة ؟..

- لقد ولجنا داره معا حوالى التاسعة مساء، بعد أن تناولنا العشاء فى مطعم موريه بشارع بورت ديجو.. وكان قد منح سائق عربته عطلة في ذلك اليوم، فعدنا على الأقدام..

ودلت القرائن على صحة ذلك .. فلقد كان بيير جارنييه- وكان يقود العربة إلى جانب عمله - مدعوا للعشاء عند ابن أخ له، وقد عاد إلي الدار بَعد عودة مخدومه والفتاة ببضع دقائق، فأعد لهما بعض الشراب ثم لاذ بمخدعه.

وقالت الفتاة للمحقق :

– كنت أفضل قضاء السهرة فى المسرح، لولا أن أوكتاف كان يشكو تعبا وبردا، فنزلت عند رغبته، إذ كان رجلا طيبا.. وعندما مررنا بمسكنى – وكانت «نيشيت» تقيم فى شارع جوداثيك نفسه، فى منزل يقل رقمه عن رقم منزل «اوكتاف» بثلاثين – عرضت عليه أن يستغنى عن رفقتى ما دام متعبا ، ولكنه ضحك قائلا: «بل تأتين لتعتنى بى » !.. وقد مكثت معه حتى الساعة الواحدة صباحا، إذ انتبهت لدقة الساعة .. ولابد أن ١٥ دقيقة، أو ٢٠ مرت قبل أن أنصرف..

ولاح أن الفتاة كانت صادقة مخلصة. فقد تطوعت للشهادة دون أن يدعوها أحد، وذكرت أنها ترددت ساعتين قبل أن تقدم على ذلك إذ أنها لا تريد قط أن تقحم نفسها فى شؤون البوليس .. ولكن، لم لا يكون تطوعها حيلة لصد الشبهات عنها إذا ما تحولت إليها؟.. صحيح أن بيير لم يرها عند عودته للدار فى المساء، إذ كانت فى دورة المياه ولكنه كان يدرى وجودها، لا سيما وأن سيده طلب الشراب لشخصين.. فضلا عن أن الخادم رأى قبعتها على مشجب فى الحجرة أن أفرادا عديدين رأوها مع القتيل فى المطعم يتناولان العشاء.

ولكن أن حافز لـ «نيشيت» على ذبح «أوكتاف» ؟.. لقد وجدت فى درج نصف مفتوح بالمنضدة المجاورة لفراش القتيل عشر ورقات مالية من فئة المائة فرنك، واثنتا عشرة قطعة ذهبية لم تمسها يد،

ولقد كانت كل الفانيات اللاتى يترددن على المسكن، يعلمن أن العجوز كان يحتفظ دواما بمبالغ كبيرة من المال، وشهدت «نيشيت» بأنها رأت الأوراق المالية فى الدرج قبل انصرافها، حين فتحه الرجل ليتناول منه القطعتين الذهبيتين اللتين قدمهما لها، وذكر الخادمان أنه أخبرهما فى اليوم السابق على الجريمة، أن فى

الدرج ألفا وثلاثمائة فرنك يستطيعان أن يأخذا منها ما قد يلزم لمصروف البيت.. ومن ثم لم تكن السرقة هى الحافز !

ولكن .. إذا لم تكن «نيشيُت» هى القاتلة - وقد تأكد أنها غادرت القتيل فى الساعة الواحدة، وأثبت الأطباء الشرعيون أن الجريمة لم تحدث قبل الثالثة أو منتصف الرابعة - فكيف استُطاع القاتل أن ينفذ إلى داخل الدار ؟..

التحقيق يزداد غموضا

لم يكن ثمة ما يدل على أنه اقتحم أحد الأبواب، أو مصاريع النوافذ.. ولقد قدر رجال البوليس كل الاحتمالات الممكنة.. ربما كان القاتل قد استعمل مفتاحا زائفا، أو لعل «نيشيت» كانت متواطئة معه، فمهدت له السبيل، ولكن .. بماذا يمكن تعليل وجود الأبواب كلها مغلقة بعد الجريمة؟.. أيكون الخادمان أيضا متواطئين ؟- أم لعلهما صاحبا الجريمة فقد كانت كل العوامل فى صفهما.. فإن صح هذا، فما الذى دعاهما لارتكاب الجريمة ؟..

ولقد أسفرت تحريات البوليس على أن القتيل لم يكن له أقارب ينتفعون من جراء وفاته، بأن يرثوه، ومن ثم كان من المنتظر أن تؤول ثروته وأملاكه إلى الدولة، لاسيما وأن البوليس لم يجد بين أوراقه وصية ما..

وهكذا كان التحقيق يزداد غموضا، كلما اتسع نطاقه !..

خطاب من مجهول

ولقد تلقى البوليس أثناء التحقيق خطابا غفلا من التوقيع. ألقى ضوءا على بعض دقائق حياة مسيو اوكتاف الخاصة.. فقد جاء فيه أن القتيل كان على علاقة قديمة بامرأة ذات مكانة، فكان يذهب إلى باريس فى كل شهر ليلقاها خفية، ليتبادلا الهوى، ولكن .. كانت الحسناء - كما زعم كاتب الخطاب - تعمل

لحساب المخابرات السرية الايطالية فى فرنسا، وقد قامت بمعاونة «الكونتس دو كاستيليونى» الجاسوسة المعروفة، بدور كبير عندما نشبت الحرب مع ايطاليا .. وكان «اوكتاف» يعمل هو الآخر لحساب آل سافوا.. إلى أن كانت أواخر سنة ١٨٦٢. إذ حدث بينه وبين صديقته خلاف شديد، عنيف، مفعم بالتهديدات .. أما ما جرى بين عامى ١٨٦٢و١٨٦٧، فقد اعترف كاتب الخطاب بأنه يجهله، ولكنه أكد أن صديقة «اوكتاف» - وقد ذكر عنوانها - لن تتردد فى أن تقضى بكل شيء..

وكانت المهمة دقيقة، إذ كانت المرأة زوجة لصاحب مركز ادارى كبير في الدولة .. ولو ثبت صحة ما جاء فى الرسالة لتطور الأمر إلى فضيحة كبيرة .. لذلك آثر البوليس فى البداية، أن يبحث عن صاحب الخطاب، وما لبث أن توصل إليه، فإذا به مخبول انتهى الأمر بإرساله إلى مصح الأمراض العقلية!..

وعاد الأمل يساور السلطات حين تقدمت إلى بوليس «لانجون» - وهى قرية على مقربة من بوردو- حسناء فى الثانية والعشرين من عمرها تدعى «لويز ليسير»، فزعمت أن القتيل صارحها قبل الجريمة بيومين، بأن شخصا يدعى « درويون» - كان يعمل فى خدمته كصراف حين كان يمارس التجارة. وكان يحرز وثائق ذات خطر على سمعة القتيل التجارية - هدده بإفشاء سره، سعيا منه لإبتزاز بعض ماله. وقد دعاه القتيل لزيادته فى ٢مارس ، وهو يعتزم أن لا يدفع له درهما واحدا.

وثبت من التحرى أن الخادمين لم يكونا يعرفان «درويون» هذا، ولكنهما ذكرا أن غريبا طرق الباب فى الساعة الرابعة بعد ظهر ٢ مارس، فاستقبله اوكتاف بنفسه فى الحال، واستبقاه حتى الخامسة.. ولم يبد ما يشتم منه أن المقابلة كانت عاصفة، بل أنهما تبادلا تحية هادئة عند الافتراق.

وسعى البوليس حتى وجد «درويون» ، فما أن سمع القصة حتى انفجر ضاحكا دون أن يعروه أى اضطراب، وصاح :

- أن لويز كاذبة .. فلقد هجرتها منذ ستة أشهر أو سبعة، ومن ثم فهى تحاول أن تزج بى فى المتاعب .. والواقع أننى كنت فى تولوز فى ٢ مارس، لإبرام صفقة تجارية.

وقد أثبت التحرى صدق قوله .. وخبا أمل البوليس سراعا !..

بقيت نقطة واحدة .. أن الفحص الطبى لم يستبعد أن يكون الحادث انتحارا، فقد كان الجرح فى موضع يسهل على أى يائس أن يناله بالموسى.

ولكن ..

كان من المحتمل - إن صح هذا - أن يعثر البوليس على الموسى، ثم .. كيف يمكن تفسير الحالة التى كان عليها الجرح.. كيف يقدر الميت على أن يسحب الغطاء على جسده، ويضع طرفه تحت رأسه؟..

وأخيرا .. لقد قرر الفحص الطبى أن الانتحار ممكن، لو أن الموسى كانت فى اليد اليمنى .. ولكن القتيل كان أعسر، لا يحسن البتة استعمال يده اليمنى..

مرتا سلطانة المغرب (١)

كان الجنرال «جورجو» رفيقا لنابليون الأول فى منفاه بجزيرة «سانت هيلين»، وقد نقل فى مذكراته العبارة الآتية عن لسان الامبراطور العظيم : «كانت سلطانة المغرب فى ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا، وقد جاء أخوها «فراتشكينى» إلى باريس وعرض على وزير الشؤون الخارجية أن يسافر إلى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا. فاعتقدت فى بادىء الأمر أن فى المسألة نصبا

(١) مجلة المصور ٣٠ سبتمبر ١٩٤٩م.

واحتيالا. ولكن الوزير تثبت من الحقيقة فأعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض. وقد كللت المفاوضات بالنجاح، وبسط امبراطور المغرب حمايته علي الفرنسيين هناك وأسدى إلينا خدمات جليلة. فأرسلت إليه هدايا بنصف مليون فرنك».

هذا ما قاله الامبراطور الفرنسى للقائد الذى عاش معه فى المنفى. فمن هى تلك السلطانة الفرنسية التى تحدث عنها، والتى ولدت مثله فى جزيرة كورسيكا ؟

اسمها «مرتا فراتشكينى» وإسم أبيها «جاك ماريا» وهو من سلالة الكونت فراتشكو كولونا، النبيل الرومانى الذي استوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠. وقد ولدت مرتا فى ٢ يونيو سنة ١٧٥٦ ببلدة كوربارا الصغيرة، الرابضة بين الصخور على سفح جبل يشرف على البحر.

وكان البحر فى ذلك الوقت مسرحا لأعمال القرصنة، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من موانىء ايطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وكانت جزيرة كورسيكا عرضة لغزوات القراصنة من العرب والبربر، الذين كانوا ينزلون على شواطئها، ويسبون النساء والبنات والشبان، ويبيعونهم في أسواق الرقيق جريا على العادة المتبعة فى ذلك العهد، حيث لم يكن الرق قد ألغى بعد، وحيث كان الإنسان يستعبد الإنسان، والشعوب تستعبد الشعوب!

وحدث ذات يوم أن هبطت أسرة فراتشكينى من بلدتها إلى شاطئ البحر فى نزهة مسائية، فداهمها القراصنة وخطفوها وحملوها إلى سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجدتها، فوقفوا على الشاطئ ينظرون إلى السفينة تبتعد وعليها جاك ماريا وزوجته وولداه فنشنتى وأوغستينو وابنته مرتا الصغيرة.

وانقطعت أخبار الأسرة بضعة أعوام.

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولدان إلى كورسيكا، فرحب بهم أهل البلدة، وسألوهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا، فقص عليهم جاك ماريا قصته قال :

«ذهب بنا القراصنة إلى تونس حيث عرضونا للبيع فى سوق الرقيق، فكان من حسن الحظ أن ابتاعنا أحد وكلاء الباى فأقمنا جميعا فى قصره، وعوملنا معاملة حسنة، ولكننا كنا فى عداد الأسرى الأرقاء، نقوم بالأعمال التى يعهد إلينا بها، ونبكى الحرية الغالية والوطن المفقود. ولم يكن بوسعنا أن نفكر فى الهرب لتعذر وسائله ولشدة الرقابة عند منافذ المدينة وعلى شاطئ البحر. فرضخنا لحكم القدر وبتنا ننتظر الخلاص من الرب القادر على كل شيء!

« قضينا فى الأسر والعبودية ثلاثة أعوام، كنت فى خلالها قد انصرفت إلى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة، وكان الله قد استمع إلى صلواتنا، فقدر لى أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها فريق من الضباط والجنود لاغتيال سيد البلاد، وإسمه سيدى على باى، فأفضيت إليه بما علمت من أخبار المتآمرين، وكنت سببا فى إنقاذ حياته. فأغدق على العطايا والنعم، وأعاد إلى حريتى، وأمر بأن تمهد لى سبل العودة إلى بلادى!

« تنفسنا جميعا الصعداء . وأسرعت إلى الميناء فاستأجرت سفينة صغيرة وخمسة من البحارة، وركبت مع الأسرة وانطلقت بنا السفينة ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة! غير أن كارثة جديدة حلت بنا، أشد هولا من الكارثة السابقة.. فقد هاجم القراصنة المغاربة سفينتنا وهى فى عرض البحر، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا، فقتلوا رجالها، واضرموا فيها النار، وحملونا نحن إلى سفينتهم، وعادوا بنا إلى بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع فى سوق الرقيق!

«وكنا فى هذه المرة من نصيب أمير مغربى واسع الثراء والجاه، لم يشأ أن يفرق بيننا فاشترى الأسرة كلها دفعة واحدة، كما فعل وكيل الباى من قبل.

وهكذا شاءت الأقدار التى أنقذتنا من الأسر والعبودية فى تونس، أن تعيدنا إليهما فى المغرب، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية، وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز!

«ولكننى جعلت أفكر فى الخلاص منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامنا أرض المغرب. وخطر لى فى الحال خاطر وضعته بلا ابطاء موضع التنتفيذ : فكتبت رسالة باللغة العربية إلى سلطان المغرب مولاى محمد، رويت له فيها ما حدث لى فى تونس، وكيف أننى أنقذت حياة الباى من كيد المتآمرين، وطلبت أن ينظر إلى وإلى أسرتى التى تصحبنى بعين العطف والتقدير. فرق السلطان لحالنا، وأبدى رغبته فى رؤيتنا فذهبنا إليه فى قصره ومعنا السيد المغربى الذى اشترانا.. وبعد أن ثبت للسلطان أننى لم أكذب فيما أدعيت، أمر بأن يطلق سراحنا، وأن توضع تحت تصرفنا سفينة من سفنه، تحملنا إلى كورسيكا فى حراسة كافية تضمن سلامتنا، وتمنع وقوعنا فى أسر القراصنة مرة ثالثة!

«غير أن شيئا واحدا نغص علينا ما شعرنا به من فرح واطمئنان: فقد استرعت ابنتى مرتا، وهى اليوم فى الثالثة عشرة من العمر، أنظار السلطان بجمالها الباهر وشبابها الغض، فرغب فى الاحتفاظ بها فى قصره بين نسائه وجواريه، قائلا لى أنه سيجعل منها سيدة البلاد الأولى، ويرفعها إلى أوج العلى والسعادة والهناء!».

سكت جاك ماريا لحظة، وترقرقت الدموع فى عينيه، ثم استطرد قائلا :

«ولهذا أيها المواطنون والأصدقاء، فأنكم تروننى عائدا الآن إليكم مع زوجتى وولدى، محملين بالتحف والأموال والأرزاق. ولكنكم لا ترون معنا تلك الإبنة الحبيبة، التى اضطررنا إلى التخلى عنها هناك، والتى أرجو أن لا تطول غيبتها علنا».

لم تطق الأسرة صبرا على هذا الفراق. وما مرت شهور على عودة جاك ماريا إلى بلدته كوريارا، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطرة لإنقاذ ابنته وانتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس. فجمع حوله فريقا من الجبليين الأشداء، وجهز سفينة أقلعت به وبرفاقه إلى المغرب، فاجتازت البحر بدون أن يلحق بها سوء، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب. ولكن الحظ العاثر أراد للكورسيكيين أن يصلوا إلى «رباط الفتح» فى الوقت الذى كان فيه وباء الطاعون متفشيا فى البلاد. فأصيب جاك ماريا بالمرض الذى لا يرحم، ومات فى المدينة فى أول يونيو سنة ١٧٧٠ وهرول رفاقه مسرعين إلى سفينتهم وعادوا بها إلى جزيرتهم خائبين!

ومرت الأعوام بدون أن يتسرب إلى كورسيكا لا كثير ولا قليل من أخبار الفتاة المقيمة فى قصر السلطان مولاى محمد بفاس. وعبثا حاول أخواها وأمها الاتصال بها بوساطة القناصل والتجار وأصحاب السفن. فقطعت الأسرة كل أمل فى لقاء الإبنة التى صار سكان القرية يسمونها «المغربية» فى حين أن المغاربة كانوا يسمونها «الافرنجية».

ولكن مرتا لم تيأس من الاتصال بأهلها وعشيرتها. ففى سنة ١٧٨٦، رست فى ميناء كالفي على مقربة من بلدة كوريارا، قافلة من السفن المغربية نزل منها جماعة من الأمراء العرب، يتبعهم حراس مسلحون، وعبيد يحملون عشرات من الصناديق والأكياس : تلك هى البعثة التى أوفدتها مرتا فراتشكينى «سلطانة المغرب» إلى بلدتها بأمر من زوجها السلطان مولاى محمد بن عبد الله الحسنى!

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التى ملكت قلب مولاهم فأجلسها على العرش، وجعلها موضع ثقته، واتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلمة نافذة الرأى!

ما الذى حدث لمرتا بعد فراقها عن أبيها وأمها وأخويها فى مدينة فاس، وهى بعد فى الثالثة عشرة من العمر؟

لقيت الفتاة حظوة فى عينى السلطان، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاى محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويها، فجعل منها سيدة النساء فى حرمه، واتخذها زوجة له، وأحلها فى نفسه المنزلة الأولى.

كان مولاى محمد قد خلف أباه مولاى عبد الله على عرش المغرب فى سنة ١٧٥٧، فعرفت البلاد فى أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ. فقد عقد ذلك العاهل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الأوربية، وجلب إلى عاصمة ملكه لفيفا من الخبراء الأوربيين الذين هجروا بلادهم واتخذوا المغرب موطنا والإسلام دينا. فاستعان بهم لتحقيق طائفة من الإصلاحات فى جميع مرافق الحياة، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبات مع الملوك والأباطرة والأمراء فى الشرق والغرب، وكانت زوجته السلطانة مرتا تتولى كتابة الرسائل إليهم، والرد على خطاباتهم، وتفضى إلى زوجها بآرائها الصائبة فى كل كبيرة وصغيرة من شؤون الدولة، فازداد إعجابه بها، وتضاعف حبه لها.

وظلت مرتا تحدث السلطان عن أهلها وبلدتها، فأراد فى النهاية أن يستجيب رغباتها، وأمر بأن توفد إلى كورسيكا بعثة تتولى البحث عن أسرة فراتشكينى فى كوريارا، وتأتى بها إلى المغرب إذا شاءت، بعد استئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا فى ذلك الوقت.

تلك هى البعثة التى وصلت فى قافلة من السفن المغربية إلى ثغر كالفى، واطلعت سكان الجزيرة على حقيقة ما حدث للطفلة التى افتقدوها منذ أعوام .

وكتبت مرتا إلى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة إلى كورسيكا فاهتم لويس السادس عشر بالأمر، وبعد بضعة أسابيع من وصول الرسل المغاربة إلى

كوريارا، غادروا ميناء كالفى فى سفنهم، وقد انضمت إليها سفن فرنسية أخرى، تحمل أسرة فراتشكينى ورهطا من سكان الجزيرة، إلى بلاد المغرب!

وأمر مولاى محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن زوجته المحبوبة، فاصطفت «الحرس الاسود» فى طريق القصر، وحيا الضيوف بقرع الطبول والنفخ بالأبواق ، واستقبل السلطان فى أفخم ردهات القصر أم زوجته وأخويها، وكان اللقاء مؤثرا، فألقت مرتا بنفسها بين ذراعى أمها التى لم تعرفها لأول وهلة، واستأذنت زوجها فى أن تقبل الأخوين اللذين افترقت عنهما وهما فى مقتبل العمر. وحلت الأسرة فى جناح من القصر، وقد غمرها الفرح واكتنفتها السعادة!

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتا سمتها أيضا «مرتا» وعللت النفس بأن ترزق ابنا قد يخلف أباه على العرش. لكن هذا الأمل لم يتحقق، فحصر السلطان وراثة العرش فى ابنه الأكبر يزيد، الذى رزقه من امرأة ايرلندية كان أبوها قد اعتنق الإسلام واستوطن المغرب.

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها فى الخفاء. بل كان يكيد لأبيه ويتآمر عليه ويسعى لانتزاع الملك منه قبل موته. وبلغ الجحود بهذا الابن العاق أن رفع راية العصيان وجمع أنصاره فى الجبال، فقرر مولاى محمد أن يعاقبه على غروره، ويقضى على ثورته فى مهدها، فحشد جيشا من حرسه الخاص وتأهب للزحف بنفسه على مقر الابن الثائر. ولكن يدا خفية دست له السم فى الطعام، فشعر السلطان بأن ساعته قد دنت، ودعا زوجته المختارة إليه، وهمس فى أذنها قائلا :

– مرتا.. لقد أحببتك واخلصت لك بقدر ما أحببتنى وأخلصت لى.. ولك الآن أن تعودى إلى أهلك إذا شئت، أو أن تبقى فى هذا البلد المضياف معززة

مكرمة.. ولكن احذرى يزيدا فقد يدس لك السم كما دسه لى. ولا تثقى إلا بولدى سليمان.. الذى أرجو أن ينتقم لى من أخيه، وأن يؤول إليه الملك من بعدى، لكى يحافظ على هذا الوطن قويا منيعا.

وأسلم مولاى محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية سلطانة المغرب، فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٧٠، الموافقة لسنة ١٢٠٤ الهجرية.

تحققت أمنية السلطان الراحل بعد موته، فلم ينعم مولاى يزيد بالملك طويلا، بل مات فى ظروف غامضة، واقتتل أخوته بضعة شهور، وانتهى ذلك الصراع بارتقاء مولاى سليمان بن محمد عرش آبائه وأجداده، وظل جالسا عليه حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٢٢.

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاى محمد، وقد نسج على منواله فى السياسة والإدارة، وأحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر الإكرام والإجلال، وكانت المسكينة قد فقدت ابنتها الوحيدة، فوجدت بعض العزاء فى معاملة السلطان الجديد لها، واجتماع أعضاء أسرتها حولها بعد طول الفراق.

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة، قضاؤه على شرور القرصنة، ودعوته ملوك أوربا إلى التعاون معه فى تأمين السلامة للمسافرين فى البحار. وهو الذى راسل الجنرال نابليون بونابرت، وكتب إليه يقول إن سلطانة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا، وكان يعنى زوجة أبيه مرتا فراتشكينى، وفى سنة ١٧٩٩، أوفد مولاى سليمان شقيق السلطانة السابقة، فنشنتى فراتشكينى فى بعثة إلى بونابرت. وفى أثناء وجود البعثة فى باريس تفشى وباء الطاعون مرة أخرى فى المغرب، فأصيبت مرتا بالمرض القاتل كما أصيب به أبوها من قبل، وماتت فى ١٥ يونيو سنة ١٧٩٩.

ماتت مرتا فراتشكينى سلطانة المغرب فى الأربعين من العمر، بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاى محمد، حلو الحياة ومرها نحو عشرين سنة. ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا منذ أن خطفت منه طفلة صغيرة ولم تترك ابناء ولكنها تركت ذكرى طيبة عطرة، وخدمت الوطن الذى تبناها بأمانة واخلاص ووفاء.

البقرة الأرمنية (١)

كان الليل قد انتصف عندما أوفد السلطان إبراهيم أحد خصياته المقربين إلى يوسف أغا، وأحمد أغا، وكوين أغا، ليبلغهم رغبة مولاه فى أن يوافوه بلا ابطاء فى حجرة نومه. وأسرع الرجال الثلاثة مهرولين، تلبية لأمر البادشاه.

أما يوسف أغا، فهو أسير روسى أحبه السلطان وأعتقه وألحقه بخدمته فى القصر. وأما أحمد أغا، فهو دجال هنغارى، عرف كيف يستحوذ علي رضا السلطان ويستدر عطفه، فألحقه إبراهيم أيضا بخدمته. وأما ثالث الثالوث، فهو اليونانى كوير موسليوغلى، المشعوذ الذى يبتلع النار ويزرع فى جسمه الدبابيس والخناجر بدون أن تسيل منه نقطة دم واحدة. والسلطان يرتاح إلى مجالسة هذا القزم المهرج وينزله فى القصر منزلة الأخصاء. وقد قطع الثلاثة كل علاقة بأوطانهم وقومهم ودينهم، فأصبحوا مسلمين من رعايا السلطان إبراهيم الأول، وموضع ثقته. وأحب رجال حاشيته إليه.

أولئك هم الذين دعاهم السلطان إلى حجرة نومه فى تلك الليلة. وكان ينتظرهم مرتديا ثوبا من الفرو الناعم، وحوله سرب من الجوار البيض، حاملات المباخر والقماقم، وقد عبقت الحجرة بالروائح الطيبة والعطور النادرة.

---

(١) مجلة المصور ٢٨ يوليو ١٩٥٠م.

وانحنى الرفاق وقبلوا الأرض بين يدى سيدهم وولى نعمتهم، وقال كوير اليونانى.

– نحن فى خدمة البادشاه ورهن إشارته فى كل ساعة من ساعات الليلوالنهار!

ورحب بهم إبراهيم قائلا:

– لم يساورنى شك فى ذلك. ولهذا، فقد عهدت إليكم من قبل باكثر من مهمة وما دعوتكم الآن إلا لكى أعهد إليكم بمهمة جديدة من هذا النوع.

– نحن طوع أمرك يا مولاى. ومهما تكن الصعاب القائمة فى سبيل تلك المهمة. فإننا سوف نذللها ونتغلب عليها.

– اسمعوا : لقد تعبت من النظر إلى هذا العدد الذى لا حصر له من النساء، أريد شيئا جديدا.. شيئا لم تقع العين على مثله بعد فى حرم السلاطين، ولم يتمتع به بعد أحد من أسلافى، ولن يتمتع به أحد فيما بعد من خلفائى!

ونظر الثلاثة بعضهم إلى بعض، بدون أن يفهموا ما يريده منهم السلطان.

واستطرد إبراهيم قائلا:

– لا تتبادلوا النظرات فسوف تفهمون اننى أريد منكم أن تجدوا لى امرأة تمتاز عن جميع نساء القصر، من زوجات ومحظيات وأماء لا بحسنها ولا بجمالها، ولا بدلالها. ولا بشىء مما يمت بصلة إلى الدلال والجمال والحسن، بل بشىء يعده الناس فى عرفهم الأعوج من ظواهر القبح والبشاعة وأعده أنا، فى نظرى الخاص إلى المرأة، من أروع مستلزمات الكمال فيها

وعاد الثلاثة إلى تبادل النظرات بدون أن يفهموا، فصاح إبراهيم بهم بصوت ينم عن الغضب «اسمعوا إلى النهاية لكى تفهموا وتدركوا وتعلموا ما

أريد : إن النساء اللواتى فى القصر جميعا يخضعن لقوانين الطبيعة. والمرأة التى أتوق إلى اقتنائها يجب أن تكون خارجة عن القوانين وفلتة من فلتات الطبيعة!».

وقال اليونانى : « بدأنا نفهم يا مولاى!»

وواصل إبراهيم التعبير عن فكرته : «أريد منكم أن تبحثوا لى عن امرأة تكون أطول النساء قامة. وأضخمهن جسما .. امرأة يكون لها صوت كزئير الأسد، وذراعان أصلب من الحديد. وفخذان كهذه الأعمدة التى يقوم عليها سقف الحجرة، وفم يبتلع الدجاجة فى لقمة واحدة ولسان أطول من لسان البقرة ..»

قال السلطان هذا وهو يحدق البصر فى رجاله الثلاثة، فأدرك، عندما وصل إلى هذا المقطع من كلامه، أنهم أوشكوا أن يضحكوا، فضحك قبل أن يسبقوه!

وفعل الثلاثة مثله. ولكنه قاطعهم مستأنفا حديثه : «قلت إننى أريد لسانها أطول من لسان البقرة .. وأضيف على ذلك أننى أريدها كلها مثل البقرة.. وأريد أن يقول الناس فى مستقبل الأيام وحقبة بعد حقبة، أن السلطان إبراهيم الأول تزوج أضخم امرأة عرفها العالم من قبله ومن بعده!.. اذهبوا ..»

وذهب يوسف أغا، وأحمد أغا، وكوير موسليوغلى، وهم يتساءلون : «ألا يزال عقل السلطان فى رأسه، أم انطلق منه بلا أمل فى رجعة ؟»

ولكنهم أدركوا أن عودتهم إلى القصر معناها الموت الأكيد، إذا لم يجلبوا إليه معهم أضخم النساء !

وطافوا فى أرجاء المملكة طولا وعرضا، وهبطوا المدن وبحثوا فى القرى والمزارع والحقول، وبثوا الأعين فى كل مكان.

وكللت فى النهاية مساعيهم بالنجاح، فعثروا فى جبال أرمينيا، وفى أسرة رقيقة الحال، على فتاة دون العشرين من العمر، تتوفر فيها جميع الشروط التى فرضها عليهم السلطان فى الليلة التى ظنوا فيها أن ساعتهم الأخيرة قد دنت.

رفض أهل الفتاة أن يسلموها لزبانية السلطان فاختطفوها وحملوها إلى مولاهم.

وطار إبراهيم الأول من الفرح!

فقد كانت الفتاة الأرمنية حقا فلتة من فلتات الطبيعة.

ونفح السلطان رسله الثلاثة مكافأة عظيمة ، وقال لهم راضيا مسرورا : « إنها بقرة بشرية كما أردتها أن تكون !»

وعرفت المحظية الجديدة بين النساء والخدم ورجال الحاشية باسم «البقرة الأرمنية» وكانت جديرة بهذه التسمية!

فإن تلك البقرة التى أرادها إبراهيم خليلة له، على أمل أن تلد له ابنا فينعم عليها بلقب سلطانة وبعدها زوجة من زوجاته، كانت تبلغ من الطول نحو مترين ونصف، وتزن من الأرطال ما يوازى فى حساب هذه الأيام ثلاثمائة كيلو!..

وقد أصدر السلطان أوامره لاعداد جناح خاص لها فى أحد قصوره، فاضطر العمال والصناع إلى توسيع الأبواب وتعلية عتباتها، وصنعوا لها سريرا بحجم خمسة أسِرَّة عادية من أسرة الحريم، وكانت تلتهم فى وجبة واحدة خروفا كاملا، وتشرب زلعة من الماء، وخصها إبراهيم بثلاثة من الطهاة، وعشرة من الخدم، وعشرة من الجوارى، لتأمين راحتها واعداد الطعام والشراب لها.

وانصرف إبراهيم الأول بكليته إلى التمتع بذلك التل المتنقل من اللحم

والشحم، ونسى بين أحضان البقرة الأرمنية، زوجاته ومحظياته وجواريه. بل أنه اتخذها دون سواها مرشدة له فى كل كبيرة وصغيرة، وأهمل من أجلها نصائح أمه السلطانة الوالدة «قوسم» وإرشاداتها، مما جعل الأم والزوجات والمحظيات والجوارى يتفاهمن ويتآمرن على الغريبة التى جاءت تنغص عليهن العيش.

حاولت أمه أن تبعده عن تلك المرأة العجيبة، أو أن تضعف من نفوذها عليه، فكانت النتيجة أن منح إبراهيم البقرة الأرمنية ولاية دمشق، وأمر بأن تحمل لقب «والى خاتم !».

وأدركت السلطانة الوالدة قوسم أنه لم يبق أمامها غير وسيلة واحدة للتخلص من المرأة، وهى الوسيلة التى كان الالتجاء إليها شائعا فى ذلك العصر.

وقالت والدة السلطان له :

- اسمح لها يا بنى بأن تلبى دعوتى. وأنا الكفيلة بحمل جميع نساء القصر على ملاطفتها والتحبب إليها.

وصدق الابن أمه، وسمح لحبيبته الضخمة بأن تذهب لقضاء الليل فى الجناح المخصص للسلطانة الوالدة، حيث أعدت قوسم وليمة للنساء بلا تفريق ولا تمييز.

وأكلت المدعوات وشربن هنيئا مريئا. وللمرة الأولى منذ دخولها قصر السلطان، رأت الأرمنية الوجوه تبتسم لها وترحب بها.

فقبيل منتصف الليل، دخل القاعة التى جلست فيها قوسم وزوجات السلطان والمرأة المحتفى بها. عشرة من خصيان السلطانة الوالدة، وفى يد كل منهم حبل من القنب.

وأحاط بها الخصيان فحاولت النهوض ولكنها لم تستطع. وامتدت نحوها عشرون من الأيدى بحبال القنب والتفت الحبال حول ذراعيها وصدرها وعنقها. فجأرت البقرة الأرمنية وملأ خوارها القاعة الفسيحة.

وانهار الجبل المتحرك على الأرض كومة هامدة.

وانطلقت النساء نحو جناح السلطان صارخات باكيات، وقد حللن شعورهن ولطمن خدودهن، ناعيات حبيبة إبراهيم التى أسرفت فى التهام الطعام والشراب فماتت من التخمة.

وصدق إبراهيم أمه، وبكى الحبيبة، وحبس نفسه فى حجرته شهرا كاملا.

ثم بحث عن غيرها بين نسائه الكثيرات. وبين أفواج الحسان التى كان النخاسون يسوقونها إليه يوما بعد يوم، فوجد ضالته المنشودة فى امرأة أخرى أنسته البقرة الأرمنية التى ماتت خنقا. والتى لم يعرف العالم فى الماضى - وقد لا يعرف فى المستقبل - امرأة فى ضخامتها.

وفى سنة ١٦٤٨، ثار الجيش على إبراهيم، وتآمر الوزراء والعلماء مع الثائرين، بل قيل أن السلطانة الوالدة نفسها اشتركت فى تلك المؤامرة ، فدخل الخصيان على السلطان فى حجرته، وخنقوه أيضا بحبل من القنب، عملا بالتقاليد المرعية فى قصور السلاطين.

حدث ذلك فى سنة ١٦٤٨، وكان إبراهيم الأول فى الواحدة والثلاثين من العمر، ولم يمض على ارتقائه عرش آل عثمان غير ثمانية أعوام.

قطر الندى .. اليمامة والثعلب !(١)

أحضان هذا الفجر ضمت فى الربى قطر الندى وتألق الصبح الهنىء على المجالى والمدى لما بدت فى حزنها شمس البها «قطر الندى».

بغداد نادت ، فاشرأبت للنداء القاهرة أثرى منابرها البشير على القرى والحاضرة فى موكب لم يدر أوله الزمان وآخره.

تمتعت مصر فى العصر الطولونى بمكانة ممتازة بين الدويلات الإسلامية التى كانت خاضعة للخلافة العباسية ببغداد، وإن كانت تتمتع باستقلال ذاتى لا ينكر التبعية الأسمية للخلافة ببغداد وأرسى قواعد هذا الاستقلال أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ) مؤسس الدولة الطولونية بمصر، ودعمه من بعده ابنه خمارويه الذى حكم مصر فى الفترة من ٢٧٠ إلى ٢٨٢هـ . وقد شهدت بغداد يوم الخامس من ربيع الآخر سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥م)، زفافاً تاريخياً أسطوريا زفت فيه قطر الندى، ابنة الأمير خمارويه، وحفيدة أحمد بن طولون، إلى أبى العباس المعتضد الخليفة العباسى، فكان هذا الزواج بمثابة مصاهرة كبرى بين أكبر قوتين فى العالم الإسلامى فى العقد التاسع من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أى بين الخلافة العباسية ببغداد والدولة الطولونية بمصر.

ووصلت مصر فى العصر الطولونى إلى درجة كبيرة من الإزدهار الاقتصادى.

وقد ارتبط زواج قطر الندى على مر التاريخ بجهازها الفخم الذى أمر أبوها خمارويه بإعداده، بحيث يليق بابنته سليلة البيت الطولونى وزوجة خليفة المسلمين.

---

(١) غراميات فاتنات التاريخ ص٤٧ ، أ. أحمد خميس - مركز الراية للنشر والتوزيع .

وقد روى لنا الباحثون والمؤرخون قصة هذا الزواج الأسطورى، وحكاية قطر الندى وزواجها التاريخى، فيقول د/ أحمد صبحى منصور:

"فتحت سنة ٢٨٢هـ عينيها لتشهد زفاف يمامة جميلة إلى صقر عجوز.. فقد كحلت بغداد عينيها يوم الأحد الثانى من محرم سنة ٢٨٢ بنور الأميرة المصرية الفاتنة "قطر الندى" لتزف إلى الخليفة المعتضد بالله العباسى .. كان مقرراً أن تتزوج الأميرة الجميلة الصغيرة من الأمير على المكتفى ابن الخليفة المعتضد وولى العهد، ولكن الخليفة العجوز الداهية أراد أن يفسد خطة خصمه العنيد "خمارويه" حاكم مصر والد "قطر الندى" فطلب أن يتزوج هو نفسه الأميرة الصغيرة حتى لا يكون لخمارويه تأثير على مستقبل الخلافة العباسية من خلال صلته بولى العهد المكتفى بن المعتضد وأبنائه من الأميرة المصرية.

زواج سياسى بكل ما تحويه دهاليز السياسة من مكر وخداع، وكانت الضحية هى الأميرة الفاتنة الجميلة التى ضحى بها أبوها "خمارويه" على مذبح أطماعه وشهواته وكان الثمن الذى أرضى به ابنته الساذجة هو جهاز دخل موسوعة التاريخ القياسية.. إذ لم يسمع به أحد من قبل، ومن الطريف أن الأميرة المسكينة برزت بين سطور التاريخ أثناء رحلتها من القطائع والفسطاط المصرية إلى أن وصلت إلى بغداد ومعها جهازها الأسطورى، وبعدها دخلت فى أطوار النسيان فى قصور الخلافة العباسية فلم يسمع عنها أحد .. إلى أن ماتت مقهورة فى عمر العصافير ولذلك قصة أسطورية تقول سطورها:

كان أحمد بن طولون قد استقل بمصر استقلالا ذاتيا على حساب الخليفة العباسى ودارت حروب طويلة بينه وبين العباسيين، ومات والصراع على أشده فى الشام بين مصر والخليفة العباسى.

وتولى ابنه "خمارويه" الذى يهوى الترف والمجون والتمتع بالثروة الهائلة

التى تركها له أبوه أحمد بن طولون، ولكن التمتع بتلك الثروة يستلزم وقت من السلم وراحة البال وذلك ما لا يمكن توفيره بسبب الصراع العسكرى مع الخلافة العباسية، ولذلك أراد خمارويه شراء السلام مع الخليفة العباسى المعتضد بالله المشهور بدهائه وقسوته وأحقاده فأرسل له خمارويه التحف والهدايا وسأله أن يزوج ابنته قطر الندى من المكتفى ولى عهد الخليفة.. وذلك فى إطار معاهدة السلام، ورفض الخليفة أن يتزوج ابنه من قطر الندى وقال : إنما أراد أن يتشرف بنا، وأنا أزيد فى تشريفه وأتزوجها وبذلك حرم خمارويه من أماله فى التحكم فى ولى العهد وفى بناء نفوذه المستقبلى فى الدولة العباسية.

ولأنه زواج سياسى أو صفقة سياسية فقد دارت مفاوضات شاقة بشأنها تولى إدارتها بين الطرفين ابن الجصاص الجوهرى.. وفى سنة ٢٨٠ جاء ابن الجصاص الجوهرى بالهدايا للخليفة المعتضد وعاد إلى خمارويه بقرار من الخليفة بأن تكون ولاية مصر فى خمارويه وولده لمدة ثلاثين سنة وجعل له فى مصر كل السلطات مقابل أن يؤدى جزية للخليفة مائتى ألف دينار سنويا عما مضى من سنوات الإنفصال والثورة على الخلافة، ثم يؤدى ثلاثمائة ألف دينار عن كل سنة فى المستقبل.

واستمرت مفاوضات ابن الجصاص وسارت فى إتجاه جديد هو عقد المصاهرة وتزويج قطر الندى من الخليفة العباسى.

وحزنت الأميرة الصغيرة حين عرفت أن الخليفة العجوز رفض تزويجها من إبنه الشاب وأراد تزويجها لنفسه، وأراد خمارويه أن يسترضى ابنته فعزم على أن يكون زفافها وجهازها من أساطير التاريخ والخليفة العباسى من ناحيته كان يلح على أن يكون جهاز العروس الصغيرة بالغ الثراء والترف مع أن الخليفة لم يدفع صداقا إلا مبلغا نقديا قدره ألف ألف درهم.

يقول المسعودى إن ابن الجصاص حمل مع جهار قطر الندى إلى العراق جواهر لم يجتمع مثلها عند خليفة قط ومن مصر يقول المقريزى إن خمارويه أخذ فى تجهيز ابنته فجهزها جهازاً ضاهى به نعم الخلافة، فلم يبق طرفه من كل لون وجنس إلى حمله معها، فكان من جملة الجهاز دكة تتكون من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف له قيمة .. ومن جملة الجهاز مائة هون من الذهب وألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار و"التكة بنطلون حريمى داخلى" والمقريزى يقول إن ابن الجصاص بعد أن فرغ من إكمال الجهاز ذهب إلى خمارويه يقدم الكسر الذى بقى معه وهو أربعمائة ألف دينار .. فأعطاها له خمارويه.

ويقول ابن الجوزى - فى العراق - أن خمارويه أعطى ابن الجصاص مائة ألف دينار أخرى بعد أن اشترى ذلك الجهاز الخرافى من مصر، وقال له : لعل بالعراق ما نحتاج إليه ولا يكون موجوداً معك بالجهاز .. فلم يجد ابن الجصاص شيئا يشتريه.. فأخذ لنفسه الأموال .. أما ابن كثير فيذكر فى تاريخه أن خمارويه أعطى ألف ألف دينار لابن الجصاص ليشترى من تحف العراق ما ليس موجوداً فى الجهاز .. واحتفظ ابن الجصاص بالمال لنفسه.

وكانت رحلة قطر الندى إلى زوجها أطول رحلة زفاف، ولا نعنى طول المسافة، ولكن نقصد أن أباها خمارويه قد جعل تلك المسافة بين مصر وبغداد طريقاً مجهزاً للزفاف.. وذلك ما لم يحدث من قبل ولا من بعد حتى اليوم.

لقد أمر خمارويه ببناء قصر فى كل محطة تنزل فيها العروس، وذلك على طول الطريق بين الفسطاط فى مصر وبغداد بالعراق وخرج معها عمها شيبان بن أحمد بن طولون وجماعة من الأعيان وبالإضافة إلى ابن الجصاص، الجوهرى ويقول المؤرخون أنهم كانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد، فإذا

وصلت إلى المحطة نزلت فوجدت قصرا فاخراً مجهزاً بكل أنواع المفروشات والستائر وبكل أنواع التسهيلات والمؤن للإقامة والراحة، وبعد الإستحمام يواصلون السير إلى محطة أخرى حيث يستقبلهم قصر أخر .. ويقول المقريزى فكانت فى مسيرها من مصر إلي بغداد كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد فى أول المحرم ٢٨٢.

وكان عقد الزواج فى رمضان .. ومن يومها بدأت رحلة العروس إلى العراق بينما كان العريس العتيد يحارب حمدان الثائر فى قلعة ماردين، وبعد أن انتصر عليه ونهب القلعة وهدمها عرف أن العروس الصغيرة قد دخلت العراق، ومع أنه فرغ من قلعة ماردين إلا أنه واصل تحركاته نحو الموصل فى نفس الوقت الذى دخلت فيه قطر الندى بغداد وكان أعوان الخليفة فى انتظارها بينما ظل هو غائباً فى الموصل كأنما يريد إظهار عدم إهتمامه بها.

ثم أنزلوها فى "قصر صاعد" وظلت فيه إلى أن تم زفافها إلى المعتضد فى الرابع من شهر ربيع الأول .. وكان يوم أحد.

وفى يوم الزفاف نودى فى بغداد بألا يعبر أحد نهر دجلة وأن تغلق أبواب الدروب والطرقات التى تفتح على شاطئ دجلة، ومدوا شراعاً على شاطئ دجلة ومنعوا الناس من سكان الشاطئ من الظهور .. فلما أن وقت العشاء جاءت سفينة من دار المعتضد فيها الخدم ومعهم الشموع ورست السفينة مقابل "دار صاعد" حيث تقيم قطر الندى، وكانوا قد أعدوا أربع سفن صغيرة تحمل النفط وقد شدوها بحبال إلى دار صاعد التى تقع على دجلة.. وانطلقت قطر الندى من دار صاعد إلى السفينة، فأقامت فيه يوم الاثنين فى جناح خاص بها، ثم دخل بها يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الأول سنة ٢٨٢.

وانتهت قصة زفاف اليمامة البريئة إلى الصقر العجوز الشرس.

وأبطال هذه القصة ثلاثة من محترفى السياسة.

أولهم الخليفة المعتضد الذى اشتهر بسفك الدماء والإقدام على قتل أقرب الناس إليه بسبب ودون سبب، حتى أنه كان إذا غضب على قائد من قواده أمر بدفنه حياً ويحكى المسعودى أنه لما مات شكوا فى موته وخافوا أن يدخلوا عليه فاقترب منه الطبيب وجس نبضه ففتح المعتضد عينيه ورفس الطبيب برجله فتدحرج الطبيب ومات من الرعب والهلع ومات بعده المعتضد بعدة دقائق.. وكان ذلك يوم الاثنين ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩.

وذلك يعطينا فكرة عن ذلك الصقر الذي تزوجته اليمامة الوديعة التى إسمها أسماء بنت خمارويه ولقبها قطر الندى.

ولا شك أن العروس الصغيرة قد عانت الكثير من ذلك الزواج غير المناسب وسط ألاعيب ومؤامرات سيدات القصر وأخطرهن "شغب" أم الخليفة المقتدر ابن الخليفة المعتضد.

ولم تحتمل اليمامة الصغيرة هذه الحياة فماتت فى عمر الزهور فى ٧ رجب سنة ٢٨٧هـ ومات المعتضد بعدها بعامين.

وبقى لها فى سطور التاريخ صفحات تقال فيها :

"إنها من شهيرات النساء عقلا وجمالاً وأدباً.. ولكن تلك الصفات ما أغنت عنها شيئاً، حين أقدم أبوها على التفريط فيها ليسترضى الخليفة الشرس وهو يعلم حقيقته .. ووصل الخبر إلى قطر الندي فى شهر ذى الحجة فى نفس العام الذى تزوجت فيه .. فهل كان ذلك انتقاما من السماء ؟

ولحق الإنتقام بالرجل الثالث سمسار الزواج السياسى الحسين بن عبد الله المشهور بابن الجصاص الجوهرى، كان قد سرق الكثير من أموال الجهاز

نقداً وعينا، وحين دخل بمجموعات الجواهر إلى بغداد أقنع الأميرة الصغيرة بأن يحتفظ لديه ببعض الجواهر للزمن .. إلى أن تحتاج إليه، ووافقت .. وماتت سريعا واحتفظ ابن الجصاص بالسابق واللاحق من الجواهر والأموال.

وصار أثرى أثرياء عصره إلى أن أمرت السيدة "شغب" أم المقتدر بمصادرة أمواله فى خلافة ابنها سنة ٣٠٢هـ ويذكر المسعودى أنهم صادروا له أموال نقدية وعينية تبلغ خمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار.. بينما يذكر ابن الجوزى أن المبلغ المصادر يبلغ ستة عشر مليونا من الدنانير.. وتبقى من سيرة قطر الندى الموال الشعبى الذى يقول : الحنة .. الحنة.. يا قطر الندى يا شباك حبيبى يا عينى جلاب الهوى.

أما الباحث والمؤرخ الكاتب الصحفى جمال بدوى فيتناول هذا الزواج السياسى بنظرة المؤرخ فيقول :

الزواج السياسى ظاهرة تاريخية عرفتها الدول قديما وحديثاً.. وهو لا يقوم على اتفاق الإرادات أو توافق الميول والعواطف بين طرفى الزواج.. ولكنه تنفيذ لاتفاق سياسى بين دولتين مثل اتفاقيات الهدنة بعد الحروب، أو تقسيم المياه ورسم الحدود وحسن الجوار فى زمن السلم فالعريس والعروس لا يكون بينهما سابق معرفة، ولا يرى أحدهما الآخر إلا يوم الزفاف، وكان ملوك أوروبا فى العصور الوسطى يلجأون إلى المصاهرة السياسية فى أعقاب الحروب كدليل على حسن النوايا بين المنتصر والمهزوم.

وكان آخر زواج سياسى عرفته مصر فى عصرها الحديث : زواج شاه إيران الراحل محمد رضا بهلوى من الأميرة "فوزية" كبرى وأجمل بنات الملك أحمد فؤاد، ولم يثمر هذا الزواج سوى ابنة واحدة – شاهيناز– ولم يعمر سوى بضع سنوات عادت بعدها فوزية إلى مصر فتزوجت من إسماعيل شيرين آخر

وزير للحربية عشية قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهى تعيش الآن فى الاسكندرية فى عزلة وهدوء، وتلك طبيعتها منذ عادت إلى مصر عام ١٩٤٥ ولم يصبها أذاذ المجون الذى أصاب شقيقاتها وشقيقها- فاروق ؟ ومعهم أمهم الملكة السابقة "نازلى".. وكان هذا المجون من أهم الأسباب التى أطاحت بالأسرة العلوية كلها.

أما أشهر زواج سياسى عرفته مصر، فهو زواج الأميرة "قطر الندى" بنت أمير مصر خمارويه بن أحمد بن طولون، من خليفة المسلمين وسلطان الدولة العباسية "المعتضد بالله".. وهو زواج سارت بذكره الركبان، وأثار شهية المؤرخين على توالى العصور.. ولازال إسم "قطر الندى" ثابتا فى الوجدان المصرى.. ويتردد فى الألحان الشعبية وأغانى الأفراح .. صدى لهذا العرس الذى لم يشهد له التاريخ مثيلا.

ما هى دوافع هذه المصاهرة السياسية التى تمت بين "إمارة" مصر وبين دولة "الخلافة" فى بغداد.. وماذا كانت نتائجها؟

أولا : نتعرف على العروس .. أصلها وفصلها والظروف التى دفعت بها إلى قمة الهرم الإجتماعى لتقوم بمهمة تحسين العلاقات بين مصر وبغداد.

كانت مصر فى العصر العباسى ولاية يحكمها أمير يبعث به الخليفة ليدير شئونها، ويضبط أمورها، وينظم أموالها ولأن مصر كانت أغنى البلاد وأقواها، كان الخلفاء يختارون حاكمها من بين أهل الثقة المقربين من الخليفة، وهم فى ذلك الوقت طبقة الضباط الأتراك الذين صار إليهم النفوذ والسلطان، وفى عام ٢٥٤هـ ، وقع اختيار الخليفة "المعتز" على أحد هؤلاء الأتراك وإسمه "بقبق" ليكون أميرا على مصر، فانتدب ابن زوجته أحمد بن طولون ليحكمها نيابة عنه مؤثرا البقاء فى بغداد ليكون قريبا من عش المؤامرات والدسائس التى تدور فى قصر الخلافة، فلما مات "بقبق" لم يرجع أحمد بن طولون إلى بغداد، وشاء

حسن حظه أن تكون مصر من نصيب "بارقوق" والد زوجته.. فأقره على موقعه قائلا : خذ من نفسك إلى نفسك(!!)

كان والد أحمد تركيا إسمه "طولون" ومعناها بالتركية "بدر التمام".. أهداه أمير بخارى إلى الخليفة المأمون، فعاش فى كنف قصر الخلافة فى زمرة الضباط الأتراك حتى وصل إلى الصدارة، نشأ ابنه (أحمد) نشأة دينية فحفظ القرآن الكريم وعلوم الإسلام وفنون الحرب، حتى دفعت به الرياح إلى مصر فاستبد بشئونها، وساورته أعراض الاستقلال الذاتى عن دولة الخلافة، ولتحقيق ذلك أقام جيشا قويا كانت عدته مائة ألف جندى.. جلبهم من كافة الأجناس، ولم يكن من السهل أن تسكت دولة الخلافة على استقلال مصر فشبت بينهما حروب ومصادمات طوال عهد الخليفة "المعتمد على الله".

أما العدو الأكبر لأحمد بن طولون فكان "الموفق" أخو الخليفة وصاحب النفوذ الفعلى والذى قاد الجيوش لإخماد الثورات والفتن، ومن بينها حركة استقلال مصر. وضاق المعتمد من سيطرة أخيه على الأمور حتى فكر فى اللجوء إلى مصر، وانتهز أحمد بن طولون الفرصة، وزين له الفكرة، ورسم له الخطة.

وكان هدفه من ذلك انتقال الخلافة من بغداد إلى مصر فترتفع مكانتها فى العالم الإسلامى. ولكن عيون "الموفق" كانت له بالمرصاد، فقبضوا على المعتمد وهو فى منتصف الطريق ، وأعادوه إلى بغداد ليقضى بقية عمره شبه سجين.. واستؤنفت الحروب بين مصر وبغداد حتى أنهكت قوى البلدين.. وتدخل ملك الموت لإخلاء المسرح من أبطاله فى فترات متقاربة، الخليفة المعتمد، وأخيه الموفق، وأمير مصر أحمد بن طولون.

تركة أحمد :

آلت الخلافة إلى المعتضد" ابن الموفق.. وآلت إمارة مصر إلى "خمارويه" ولى عهد أبيه .. ونظر فى تركة أبيه فوجد أنه ترك له فى خزانة من الذهب الخالص عشرة آلاف دينار، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس، ومن البغال والحمير سبعة آلاف رأس، ومن الدواب لخاصته ثلاثمائة، ومن مراكبه الجياد مائة، أما ذريته فكانت ثلاثة وثلاثين.. منهم سبعة عشر ولدا وست عشرة بنتا وأما آثاره العمرانية فحدث ولا حرج أشهرها المسجد الكبير الذى لايزال قائما حتى الآن.. والذي كان يتوسط مدينة "القطائع" التى أقامها لتكون مدينة عسكرية تضارع الفسطاط والعسكر التى أقامها العباسيون، فضلا عن القصور الفخيمة.

نظر "خمارويه" إلى هذا الملك العريض الذي تركه له أبوه، والنفوذ الكبير الذى يمتد إلى أقاصى الشام ويتاخم العراق.. ورأى أن استمرار الحروب سيؤدى إلى مزيد من الخراب والدمار ثم نظر إلى بعيد وبيت النية على أن يمد بينه وبين الخليفة جسرا من المودة لا ينفصم وأن تكون ابنته "قطر الندى" هى هذا الجسر فيضمن استمرار الحكم فى أسرته، ويأمن حدوث أى إجراء يطيح به عن حكم مصر.

فلما اختمرت الفكرة فى ذهن "خمارويه" استدعى أحد خاصته وإسمه الحسن بن عبد الله وشهرته "ابن الجصاص" وأسر إليه بما يعتزم، ثم بعث به إلى بغداد مصحوبا بما خف حمله وغلا ثمنه من الهدايا والتحف ليعرض على الخليفة زواج "قطر الندى" من ابن الخليفة "المكتفى بالله".. وقام ابن الجصاص بالمهمة التى أوكلت إليه.. فلما مثل أمام الخليفة اختلى به العاضد ليسأله عن صفات العروس المرشحة للزواج من إبنه، واسترسل الرسول فى وصف قطر الندى وما تتمتع به من جمال يسحر الألباب ويخلب العقول .. فما أن فرغ من كلامه حتى فوجئ بالخليفة يقول له :

– ولماذا يتزوجها ولدى .. أنا أحق بها منه (!!)

وكانت مفاجأة أذهلت ابن الجصاص وأدرك أن مهمته حققت من النجاح أضعاف ما كان يتوقع .. لقد جاء يطلب يد ولى العهد.. فإذا بولى الأمر نفسه يعرض نفسه صهرا لأمير مصر.. وعاد الرجل إلى مصر وهو يرقص طربا، واستمع خمارويه إلى العرض الجديد وهو لا يكاد يصدق أن خليفة المسلمين سيكون زوج ابنته.. وبدأ على الفور فى الإعداد لهذا الزواج الذى سيربط بين كرسى الإمارة وعرش الخلافة برباط متين .. وصدرت الأوامر إلى كل أجهزة الدولة لترتيب مراسم عرس يضاهى مقام الخلافة.

وثار سؤال : كيف ستنتقل العروس من مصر إلى العراق وبينهما مسافات شاسعة، وصحراوات قاحلة، وبيداء مقفرة؟ عندئذ صدرت التعليمات ببناء سلسلة من القصور على طول المسافة بين البلدين، بحيث تقضى العروس فى كل مرحلة بضعة أيام فى منزل لا يقل رفاهية عن قصور أبيها.. وتقطع الرحلة كما يسير الطفل فى المهد.. وكان أول القصور عند حدود مصر الشرقية هو قصر "العباسة" الذى يحمل اسم عمتها العباسة بنت أحمد بن طولون التى قامت على رأس الوفد النسائى لتوديعها وهى تغادر وطنها.. ولا يزال إسم العباسة قائما حتى الآن على القرية المعروفة بمحافظة الشرقية.

وعلى مدى أربعين يوما أقيمت الأفراح والليالى الملاح فى كافة أنحاء العاصمة المصرية ونحرت الذبائح وأقيمت الولائم لكل طبقات الشعب، وكان المطربون يتبارون فى التغنى بهذا العرس السعيد مقرونا باسم "قطر الندى" حتى صار إسمها جزءا من التراث الغنائى الشعبى على مدى العصور.. ولما حانت الليلة الأربعون تصدر الأمير خمارويه الاحتفال الرسمى الذى شهده كبار رجال الدولة والقضاة ورجال الدين وكبار التجار وقدم الجميع تهانيهم إلى أميرتهم قبل أن تغادر البلاد إلى حياتها الجديدة مع خليفة المسلمين.

أما عن الجهاز الذى رافق العروس إلى بغداد محمولا على ظهور الإبل فقد كان صورة مما بلغته فنون الصناعة المصرية من تقدم، وقد استفرغ الصناع المصريون كل مهارتهم فى إنتاج صناعة تحمل إسم "مصر" وصار هذا الجهاز أثرا تاريخيا يتبارى فى وصفه المؤرخون بدءا من المقريزى إلى على مبارك وإليك بعض ما جاء على ألسنة المؤرخين :

قال ابن تغرى بردى : حمل معها من الجهاز ما لم ير مثله ولا يسمع به. وكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط (حلق) معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة، وقال الذهبى : وكان من جهازها ألف (هاون) مصنوعة من الذهب.

– والهون لمن لا يعرف من بنات الجيل المعاصر هو ذلك الوعاء الثقيل الذى يستخدم فى دق التوابل وكان يصنع عادة من النحاس ، فلما غلا النحاس يصنع الآن من الألمونيوم – وقال المسعودى وحمل ابن الجصاص جهاز قطر الندى وحمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة، وكان فى جهازها عشرون صينية ذهب فى عشر منها مشام صندل(أى لشم عطر الصندل) وزنها أربعة وثمانون رطلا، وعشرون صينية فضة فى عشر منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلا، وخمس خلع قيمتها خمسة آلاف دينار.

وكان ابن الجصاص يشرف بنفسه على صناعة الجهاز، فلما فرغ من إعداده سأله الأب : هل بقى معك شىء من الحساب، وقال : نعم كسر (أى فضل) قيمته أربعمائة ألف دينار، فقال خمارويه هى لك وقال المسعودى أن ابن الجصاص استقطع بعض الجواهر من جهاز قطر الندى، وأبلغ قطر الندى أنه يحتفظ بهذا المال عنده إلي وقت حاجتها، فلما ماتت قطر الندى ظل المال عنده، فكان ذلك سبب غناه. وقال الذهبى : أن خمارويه جهز ابنته بألف ألف دينار (أى

مليون بلغة زماننا مع فارق الأسعار) ويقول القضاعى : ويستدل من ذلك على سعة نفس خمارويه، وكثرة مال ابن الجصاص.

لما وصلت العروس : قطر الندى" إلى بغداد لم يكن الخليفة "العريس" فى انتظارها، فقد كان خارج البلاد فى محاربة الثائرين، ولدى وصولها صدرت التعليمات بحظر المرور فى شوارع بغداد- وكان مساء يوم أحد - وأغلقت أبواب الدروب التى تلى شط نهر دجلة، وارتفعت الأشرعة على النوافذ حتى لا يتطلع منها أحد علي موكب العروس وهى تختال بين صفين من حملة الشموع حتى انتهى بها الموكب إلى عش الزوجية السعيد فى قصر الخلافة .

وبعد يومين عاد الخليفة فرأى قطر الندى فراعه جمالها، وأعلن أن ما سمعه عن أوصافها لا يضاهى الحقيقة، وليس من رأى كمن سمع، فأحبها حبا جما.. ووجد من أدبها وسمو أخلاقها ما يسمو على جمال خلقتها، حتى أنه خلا بها يوما ووضع رأسه على ركبتها وراح فى سبات عميق.. فأزالت رأسه عن ركبتها ووضعتها فوق وسادة ثم تنحت عن مكانها وجلست بالقرب منه فى مكان آخر، فلما انتبه ولم يجدها صاح فزعا فعتب عليها إزالة رأسه عن ركبتها وقال لها : أسلمت نفسى لك فتركتنى وحيداً وأنا فى النوم لا أدرى ما يفعل بى (!!)

فقالت ما جهلت قدر ما أنعمت به على .. ولكن أبى خمارويه أدبنى بأن لا أجلس مع النيام.. ولا أنام مع الجلوس.. فأعجبه ردها .. وإزداد بها شغفا.

ويتفق المؤرخون القدامى - إلى حد الإجماع - على أن الخليفة المعتضد أراد بهذه الزيجة ليس تمكين العلاقات مع مصر، ولكن إفقارها (!!).

وهذا القول يحتاج إلى نظر ..

ولا شك أن حجة المؤرخين فى هذا هى النفقات الباهظة التى تكلفها زواج قطر الندى من الخليفة سواء فى بناء قصور (الترانسيت) أو فى إعداد الجهاز

ولكن لا يوجد دليل على أن الخليفة إشترط مواصفات معينة لهذا الجهاز كما يفعل بعض العرسان فى زماننا.

ثم .. هل كان مطلوبا من الخليفة أن ينصح أمير مصر بعدم تبديد هذه الأموال الجمة، ويطلب منه التقشف والاعتدال.؟ وهل يكون هو أحرص على أموال مصر من حاكمها؟ وهل كان الخليفة سيغضب ويعلن العصيان إذا وجد الجهاز فى مستوى أقل من المستوى الذى أراده خمارويه؟ ثم أن هناك حقيقة يغفل عنها المؤرخون ، أو يذكرونها على استحياء وهى أن الخليفة دفع فى قطر الندى مهراً يبلغ ألف ألف درهم وهو مبلغ يعوض المبالغ الباهظة التى تكلفها الزواج.

وكل هذا ينفى عن الخليفة النية الخبيثة فى إفقار مصر.. وإنما الذي تسبب فى إفقارها عمليا هو سفه خمارويه وحبه للفشخرة وإهداره أموال البلاد فى بناء قصور وملاه ومغان وحدائق يقصر عن وصفها الخيال .. إليك هذه الصورة الوصفية لأحد قصور خمارويه كما جاء فى كتاب ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة).

ولما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أحمد بن طولون أقبل على عمارة قصر أبيه، وزاد فيه محاسن كثيرة، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع، فجعله كله بستانا، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجلى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف النخل عيون الماء فينحدر إلى فسقيات يفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان، غرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى شكل نقوش وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة فتصعب قراءتها .. إلخ.

وعمل فى هذا البستان (دار الذهب) طلى حيطانه كلها بذهب فى أحسن نقش وجعل فى حيطانه صورا بارزة من خشب معمول على صورة الأمير وصور حظاياه والمغنيات اللاتى يغنينه فى أحسن تصوير، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة، وفى آذانهن الأقراط الثقال.. وجعل فى القصر فسقية ملأها زئبقا.. وسبب ذلك أنه اشتكى الأرق فأشار عليه الطبيب بعمل بركة مربعة طول كل ضلع خمسون ذراعا. وملأها من الزئبق.. ووضع على سطح الزئبق محفة مملؤة بالهواء ومشدودة بخيوط من الحرير إلى جدران البركة.. فينام الأمير على هذا الفرش الذي تحرك بحركة الزئبق حتى يغلب عليه النوم.

ويقول ابن تغرى بردى إن خمارويه بنى فى قصره مساكن للسباع والفهود وغيرها من الوحوش، حتى لكأنها حديقة حيوان .. وكان له أسد أزرق العينين مطلق السراح يقال له "رزيق" نشأت بينه وبين الأمير صداقة متينة حتى أنهما لا يفترقان.. ولا يتناول زريق هذا طعامه إلا على سماط الأمير.. فإذا نضبت المائدة أقبل زريق معها وربض بين يدى خمارويه فيرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة.. وهبرة اللحم بعد الهبرة ..

وكانت لزريق زوجة لم تأنس بالناس كما أنس زوجها، فتظل محبوسة فى قفصها وله وقت معلوم يجتمع معها فيه، وكان إذا نام خمارويه جاء "زريق" وقعد ليحرسه ولا يغفل عنه لحظة فلا يجرؤ أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً.. حتى أراد الله إنفاذ قضائه، ولقى خمارويه مصرعه على يدى بعض خدمه فى دمشق، وزريق فى مصر، ولو كان زريق حاضرا لما كان يصل إلى خمارويه أحد .. فما شاء الله كان وسبحان من له الدوام.

ولن أحكى لك عن بقية مظاهر السفه والفجور التى أحاطت بتاريخ

"خماروية" والتى كانت السبب الحقيقى فى إفقار مصر.. وليس زواج قطر الندى كما يحلو لبعض المؤرخين أن يغفلوا الحقائق ويركنوا إلى التفسير الأسهل.

جريمة حــب (١)

كنا أربعة من الرفاق مجتمعين ليلاً للمسامرة فى قهوة منعزلة فى ضاحية من ضواحى العاصمة. وكنا نورى قصصاً غرامية واقعية حدثت لنا إبان شبابنا. وكان بيننا صديقنا صبحى، رجل ممتلء بوجه أحمر وعيون براقة، يستمع لحديثنا بانتباه ولا يتكلم. فوجه أحدنا إليه السؤال الآتى:

– وأنت ياصديقى، أليس عندك ما تقوله عن ذلك الساحر العجيب الذى يسمونه «الحب»؟ فرفع صبحى رأسه ونظر إلى السماء طويلاً كأنه يعد نجومها، ثم قال :

– ليس عندى غير قصة مفجعة أفضل أن أكتمها عنكم.

– ولماذا ؟

– لأنها فاجعة لا تتفق وجلستنا هذه. كل شىء حولنا يبتسم : فالبدر يتلألأ فى كبد السماء ، والنسيم عليل يسكر النفوس بما يحمله على أجنحته السحرية من عطر الزهور، وأحاديثكم اللطيفة عن الحب قد ملأت قلوبنا بلذة الصبا .و..

فقاطعه أحدنا مداعباً :

– أن صديقنا صبحى يا أخوانى يفضل أن يتكلم بالشعر المنثور عن أن يروى لنا قصته الشائقة ... ثم التفت إليه وقال :

– مهما قلت فلن نعفيك من سرد «فاجعتك» ..أليس كذلك أيها الأخوان ؟

(١) مجلة الهلال ، نوفمبر سنة ١٩٢٩م – محمود تيمور .

فوافقنا على كلامه. وألححنا على صديقنا صبحى ليروى لنا قصته . فأجاب طلبنا وقال :

- القصة التى أرويها لكم يا صحابى قصة واقعية شاهدت حوادثها بنفسى منذ عشرين عاماً، أى حينما كنت أبلغ من العمر الثامنة عشرة. كنت فى ذلك الوقت فى مدرسة (س) الثانوية، وكنت كما تعلمون - غير مواظب على تلقى دروسى. وكثيرا ما هربت من المدرسة لاحظى بالمكث فى القهوة ادخن السجاير بحرية وبلا حساب.

وحدث يوما أن غافلت البواب بعد الغداء - أو بالأحرى تغافل هو عنى نظير البقشيش السخى الذى كنت أنفحه به كل شهر - وخرجت من المدرسة لانجو من حصة امتحان الهندسة. ولم أشأ أن أمكث فى القهوة القريبة بل فضلت الذهاب إلى أخرى بعيدة عن الحى بأجمعه- قهوة صغيرة معتمة فى ناحية شبه مهجورة يقصدها العشاق للخلوة الغرامية. وكنت كثيرا ما أقصدها للتفرج على ما يقع فيها من حوادث غرامية طريفة. وكنت وأنا سائر فى الطريق أحدث نفسى قائلاً :

- من فى الدنيا يفضل سجن « الفصل» ، يرى فيه وجه «الأستاذ» الأغبر ويسمع صوته الكريه، على هذا «الوكر» الجميل، يرى فيه وجوه الغانيات ويستمع لزقزقتهن اللطيفة...

وأخيرا وصلت القهوة ودخلتها فحيانى صاحبها بترحيب وقادنى إلى ركنى المعهود- الذى يشرف على المحل بأسره- وقال لى وهو ينظف لى الكرسى الذى اخترته للجلوس عليه :

- أن المكان هادىء ينفع للمذاكرة ...!

ثم ابتسم بخبث وأتم كلامه قائلاً :

– سوف أحضر لك القهوة وعلبة السجاير. أيلزم شيء أخر؟

– كلا ، وأشكرك.

وجلست على مقعدى باسترخاء وخلعت طربوشى وأخذت أهوى به على وجهى، إذ كنا فى ذلك الوقت على أبواب الصيف. ودرت بعينى فى المكان المظلم فلم أر أحداً فى بادئ الأمر. ولكن حينما تعودت عيناى الظلمة ظهر لى إنسان جالس فى أحد الأركان البعيدة. يكاد يظنه الرائى شبحاً من الأشباح. ولم يكن أحد غيرنا فى القهوة فأوقفت إهتمامى على مراقبته. فإذا به رجل أو شبه رجل ، ضئيل الجسم ساكن لا يتحرك. انعكس لون ملابسه السوداء علي وجهه فغدا كأنه جزء من الظلام المخيم على المكان. له عينان حائرتان تشعان ناراً، تخالهما جذوتين معلقتين فى الفضاء .

وجاء بعد حين صاحب القهوة يحمل طلبى. وما كاد يضعه على المائدة حتى ملت عليه هامساً :

– من يكون ؟

– من ؟

– هذا «الخيال» الجالس هناك !

– آه ، هذا الصنم .. حقا لا أعرف عنه شيئاً.. منذ ساعة وهو لم يغير جلسته هذه. وقد شرب للآن نصف زجاجة من الكونياك .. انه مخيف !

ونظرت إلى «الشبح» فى هذه اللحظة فوجدت «الجذوتين المعلقتين فى الفضاء» ترمقانتا من بعيد فحولت نظرى عنهما سريعاً. وتمتمت قائلاً :

– حقا أنه مخيف .

واشغلت نفسى بشرب القهوة وتدخين السجاير. ولكن على الرغم منى كنت دائم التفكير فيه. وبغتة شعرت بحركة خلفى استرعت انتباهى، وأوقعت الرعب فى قلبى. فجمدت فى مكانى لا أتحرك ولكن على أثر حركة أخرى شعرت برأسى يلتفت لفتة ميكانيكية، لم يكن فى وسعى منعها. فإذا «بالخيال» واقف خلفى ينظر إلىّ بشرارتيه المتقدتين، ووجهه الهزيل المحتقن. فلم أشعر إلا بوقوفى أمامه وجهاً لوجه، متحدياً إياه بشجاعة استمددتها من رعبى.

وقلت له على الأثر:

- ماذا تريد .. ماذا تريد ..؟

فابتسم ابتسامة كريهة ولاطفنى على كتفى وقال :

- لا تخف يا هذا. فما أنا إلا بشر مثلك.

وكان صوته منسلخاً متقطعاً. فزال عنى خوفى بعض الشىء. وتقدم الرجل إلى مقعد بجوار مائدتى وجلس عليه، واضعاً رجلاً على رجل، غير آبه بوقوفى. وأخذ يكلمنى وعيناه تحدقان فى الظلام تحديقا تائها. قال :

- إنها لن تفلت من يدى اليوم .. أبداً. لن تفلت من يدى اليوم ...

وكان يشد على كلمة «اليوم» شدا تنفرج على أثره شفتاه عن أسنانه المطبقة، فكأنه حيوان مفترس يكشر عن أنيابه. وأمسك بيدى وضغط عليها بدون أن يلتفت إلىّ، وصرخ مكررا :

- أسامع ياحضرة.. إنها لن تفلت من يدى اليوم وأقسم لك على ذلك. وستكون أنت شاهداً على صحة قولى.

ثم ترك يدى وجعل يضرب المائدة بشدة بكلتا يديه وهو يقول :

لقد هزأت بى طويلا.. ولكنى سأريها اليوم من منا الذى يهزأ بصاحبه.. سوف أرديها قتيلة فى لحظة. وسوف أدعك رأسها بقدمى.

ثم التفت بغتة إلىّ وقال:

- أفاهم يا حضرة .. أفاهم؟

فنطقت بالرغم منى مجيباً:

- فاهم .. فاهم.

وشعرت أول وهلة أنى أمام رجل «مجنون»، يجب أن أتخلص منه سريعاً بأية وسيلة. فأخرجت ساعتى موهما أن موعد انصرافي قد حل. وهممت بمناداة صاحب القهوة لأحاسبه. ولكنه أوقفنى بحركة من يده وقال لى بخشونة:

- يجب ألا تنصرف الآن، بل عليك أن ترافقنى إلي مكان الجريمة. وإذا أتيت بحركة ما مخالفا أمرى قضيت عليك الساعة.

وأخرج من جيب بنطلونه الخلفى غدارة[1] كبيرة وضعها أمامه على المائدة وأحاطها بيديه. فانشلت حركتى على الأثر. وشعرت كأن يدا قوية تهصر قلبى. وانحصرت قوتى كلها فى عينى تراقبان الغدارة باهتمام. ولم أعد أفكر إلا فى تلك الآلة الجهنمية ووجوب اطاعتى لها إطاعة عمياء. ومرت فترة لا أعرف مداها وأنا جامد كالتمثال أراقب أصابع الرجل وهى تداعب المسدس مداعبة عصبية وقلت لنفسى:

- حركة واحدة كافية لأن تنقلنى إلى عالم الأرواح.

وأخيرا تكلم الرجل وقال:

(١) غدارة. مسدس.

- هيه ما رأيك. أتريد أن ترافقني إلى مكان الجريمة أم ترغب فى رصاصة تخترق صدرك ؟!

فأسرعت بالإجابة بصوت مرتجف :

- طبعا سأرافقك طبعاً...

- إذن اتفقنا.. لا شأن الآن للمسدس.

وأدخله بهدوء فى جيب بنطلونه. فبلعت ريقى الجاف، وتشهدت فى سرى. ولكنى استأذنته بتملق قائلاً :

- أتسمح لى حضرتك بأن أخرج منديلى لأمسح به وجهى؟

- أوه طبعاً .. اخرج مائة منديل إذا أردت.

ولكنه غير لجهته على الأثر ونظر فى وجهى بعينيه الناريتين وقال :

- أما إذا فكرت فى الهرب أو في الاستنجاد بأحد فاعلم بأنى قاض عليك لا محالة.

- مطلقا مطلقاً.

وأخرجت منديلى باحتراس في سكون. وكنت أناجى نفسى قائلا :

لقد وقعت فى الفخ والسلام. وحياتى أصبحت فى قبضة هذا المجنون. فلا حول ولا قوة إلا بالله وسمعته يتكلم بصوت منخفض. فارهفت أذنى له. فإذا بصوته يرتفع شيئا فشيئاً حتى صار عالياً. وإذا به يقول :

- لقد نشأت وإياها فى منزل واحد. وأحببنا بعضنا أطفالاً وصبياناً وشباناً.. لقد كانت تحبنى - تحبنى حبا عظيما .. كنت أقرأ ذلك فى عينيها. وكنت أراه مرتسماً على محياها ... لم تكن تغشانى فى ذلك الحين. أبداً أبداً.

بل كان كل شىء فيها ينطق بالصراحة والإخلاص. هذا ما كان منها قبل الزواج .

وكنت أنا لا أقل عنها محبة وإخلاصاً. كنت أرى فيها كل آمالى وأحلامى .. كانت هى كل دنياى، لا أعبأ بشئ خلافها فى هذه الحياة... وكان الزواج. ويا ليته لم يتم. كان بداية تعاستى ومذلتى . لم أكد أبدأ بتذوق نعيمى معها حتى انقلبت شيئا فشيئاً من حمامة وديعة إلى نمرة مفترسة. وكنت إذا أردت التماس محبتها القديمة لى وجدت مكانها قوة غريبة. يا للعجب !. كانت تذلنى وكنت أقبل مذلتها صاغراً. ولم أكن أفكر إلا فى رضائها.

وقد بذلت فى سبيل ذلك مالى وجاهى وصحتى. فلم تكتف بذلك. ورأت أن كل ما أتته معى من صنوف البلايا لم يزدنى إلا تعلقا بها فأرادت أن تضربنى الضربة القاضية واتخذت لها عشيقاً.. أسامع ما أقول ؟ لقد اتخذت لها عشيقاً.. أى لوثت عرضى وغمست اسمى فى الحمأة المنتنة.

ونظرت إلى عينيه فى هذه اللحظة فإذا بهما بقعتين من الدم، على وشك الانفجار. وكان فمه ذو الشفتين الصفرتين المشققتين يعلوه رغوة بيضاء فائرة.. ولم يكد يتم جملته السالفة حتى رأيت رأسه يهوى على كلتا يديه. وأخذ ينشج نشيجا عاليا بصوت متألم حزين. فشعرت بشىء من العطف عليه. ومددت يدى لألاطفه. فرفع رأسه وأمسك بيدى. ورأيت وجها بشعاً قد تغضن في هذه اللحظة القصيرة بغضون عشرات السنين. ولم تفرز عيناه دمعة واحدة إذ كانت دموعه قد نضبت من زمن بعيد.. إن قلبه هو الذى كان يبكى ويولول داخل هيكل جسمه الفانى. وهز يدى طويلا بشدة ثم قال :

- أحزر ماذا فعلت. لقد كنت قادرا على قتلهما. إذ فاجأتهما معا متلبسين بالجريمة. ولكنى لم أفعل.. وكنت قادرا - على الأقل - على طلاقها. ولكن أيضا

لم أفعل .. ولم يكن أسهل عليّ بعد ذلك من أن أطرد ذلك العشيق، أو أمنعه من دخول بيتى. أو أرجو منه بالحسنى أن يتخلى عن زوجتى.. ولكنى لم أفعل !

ثم ضحك ضحكة مخيفة أشبه بعواء الكلب الكلِب[1]. وصرخ قائلا :

– أيمكنك أن تتصور ذلك يا حضرة ؟... وإذا قلت لك أننى منذ ثلاث سنين وأنا أعيش معها بجوار عشاقها، أتصدق ؟!.. أننى لا أعيش معها عيشة سالبة أتفرج على غرمائى ومشاركى فى حبها، بل أننى أبحث لها بنفسى عن العشاق وأقدمهم لها عن طيبة خاطر. كل ذلك ابتغاء مرضاتها وها قد اكتسبت عطفها أخيراً. ولكن أى عطف هذا! أتعرف ؟ إنه عطف السيد على الكلب بعد أن يثخنه ضرباً بالسوط.

ثم سكت. وأخذ يحملق فى حملقة تائهة. وعاد يتكلم ولكن بهدوء كأنه يحلم، وقد اكتسى وجهه بالطمأنينة، وأشرقت على محياه ابتسامة لطيفة. وقال:

– ولكنى مازلت أحبها. بل مازال حبى لها يتكاثر فى قلبى يوما بعد يوم : أنه مشرب بدمى أصبح جزءا من لحمى وقطعة من روحى... ليست بشراً هذه المرأة وحق السماء . إنها جنية تبعث فى قلبك الرهبة والرغبة. إذا نظرت إليها استطعت أن ترى ما هو خلفها : إنها شفافة مصنوعة من البلور والنور. وإذا خطرت بجانبك شعرت بهبة لطيفة مُسكرة : أنها قبة من نسمات الربيع... ليست بشراً هذه المرأة وحق السماء .

وأنا من أكون ؟!.. زوجها .. ! يا للوقاحة. ياللسبة الفظيعة.. قطعة دنيئة من الظلام تريد أن تعلو بجانب ذلك النور العظيم الذى يملأ الأبدية كلها.. ألا فلتطئينى بنعلك ياملكة النور. فأنى أستحق منك أكثر من ذلك بل افقئى عينى بأصابعك الحلوة النيرة، إذ قد دنست بهاءك برفع بصرى إليك !....

(١) الكلب المسعور .

وأخذ صوته يرق ويضعف وهو يناجيها حتى صار همسا. ثم لم أعد أسمع منه شيئا، وأن كانت شفتاه لم تهدأ عن الحركة. ومكث برهة وهو على هذا الحال تتحرك شفتاه بدون كلام. وأخيرا استطعت أن أسمع همسه من جديد. ثم عادت كلماته وجمله إلى الظهور واضحة ولكن بصوت منخفض. وشيئا فشيئا أصبح صوته طبيعيا مسموعا وبدأت تكسو وجهه ابتسامة خفيفة. وسمعته يقول:

- ومنذ ثمانية أيام دخلت على فى حجرتى، فوجدتنى أقلب بين يدى «مسدسى» فأحاطت رأسي بيديها الناعمتين وسألتنى مبتسة :

- أو مزمع قتل أحد ياعزيزى؟

فرفعت بصرى إليها فإذا بنظراتها تنفذ إلي صميم قلبى. فأغمضت عينى وأمسكت بيديها اقبلهما وأنا فى شبه غيبوبة. وغمغمت قائلا:

- مزمع قتلك ياحياتى!

فرنت ضحكتها عالية. وأنهضتنى قبالها ثم عرت صدرها باكمله وأدنت يدي القابضة على المسدس منه، وعانقتنى بشدة ووجها ملتصق بوجهى. وتكلمت ملحة فى القول :

- أقتل يا حبيبى اقتل، لقد جئتك مستسلمة فافعل بى ما تريد.

فلم أشعر إلا بسقوطى على قدميها. وأخذت أقبلهما بحرارة وأمرغ وجهى عليهما..

ثم هوى على يديه وأخذ يعضهما عضا مؤلما. ولما انتهت نوبته نهض واقفا وقال لى بحزم ورجولة كأنه صحا من حلم عميق :

- هيا لقد أزف الوقت .. كفي لغوا سأضع اليوم حدا لمثل هذه الألاعيب.. لقد صار لى الآن ثمانية أيام وأنا أهيم على وجهى كالكلب الضال، لا أعرف لى مسكنا.. لم يدخل فى جوفى غير الخمر وبضع فتات من الخبز، بينما الأفكار تنخر فى رأسى كما ينخر الدود فى الجيفة القذرة ...

ولكنى أصبحت بحمد الله شخصا آخر، ذا قلب صخرى لم يعد يؤثر فيه أى مؤثر.. لقد أصبحت قادرا على مواجهة جيش جرار بأسره. فلتأت زبانية الجحيم كلها ولتجرب منعي من قتلها، انتهى كل شيء.. لقد صممت على قتلها. سأنفذ تصميمى اليوم مهما كلفنى الأمر.. بل الساعة سأنفذه ، هيا..

وقام مهرولا وهو يشدنى من يدى فتبعته من غير ممانعة. وصادفتنا عربة حال خروجنا من القهوة فركبها وأجلسنى بجواره فيها. ثم أخبر السائق على الناحية التى يرغبها. وأمسك فى ليمنعنى من الهرب، كأنه يريد أن يستأنس بوجودى معه، وكنت فى ذلك الوقت جالسا كالصنم أفكر فى الجريمة التى يصر صاحبى على ارتكابها. أحقا سوف يزهق نفسا بشرية أمامى.! يا للفظاعة! كيف أستطيع مشاهدة ذلك، واختلست النظر إليه فوجدت وجهه ممتقعا بالرغم من احتقانه، وعيناه مفتوحتان لا تحركان، فكأنه جثة بلا روح.

وعندما اقتربنا من المكان أوقف العربة. ونزلنا منها بعد ما أعطى للسائق أجرته. ثم قادنى إلى كمين بجوار سور المنزل وقفنا فيه. وكان فى تلك اللحظة يهذى بكلام غير مفهوم وهو يتحسس من حين لآخر موضع المسدس من جيبه، وأخيرا أبرقت عيناه وأخرج المسدس فى لمح البصر وهمس فى أذنى بصوت كأنه حشرجة المائت ، قائلا :

- هاهى .. هاهى

فنظرت فإذا بسيدة حسناء مقنعة بقناع شفاف، خارجة من المنزل ومتجهة

ناحية الباب القائم على جانبيه السور. وإذا بصاحى يقفز من مكمنه ويتصدى للسيدة فى طريقها مسلوحا أمامها بالمسدس فجزعت السيدة لهذه المباغتة فى بادىء الأمر وارتدت خطوتين إلى الوراء. ولكنها. عندما تبينت مهاجمها تمالكت روعها وابتسمت. ثم نظرت إليه طويلا. فإذا بصاحبى يرتد على عقبيه. وبحركة سريعة صوب المسدس إلى رأسه وأفرغ رصاصه فيه. وسقط لوقته جثة هامدة.

نساء اليوم (١)

دخل جون إلى المحكمة ، وهو يتحسس أوراقه، وأخذ ينظر إلى هذا الجمع الغفير الذى حضر لمشاهدة محاكمة القاتلة الحسناء برندا..

ونظر إلى قفص الاتهام ... ونظر إليها.. والتقت عيناها بعينيه.. وأخذت تنظر إليه بحدة لا تلتفت يميناً ولا شمالاً.. واحمر وجهه فى آخر الأمر، وأشاح بوجهه بعيداً..

وراح يتساءل عن سر هذا الجمال الهائل الموهوب لها بكرم وسخاء زائدين... وهل من المعقول أن هذا الجمال الثائر يعرف القتل ...

كيف اطلقت لنار على عشيقها لأنه أراد أن يحب امرأة أخرى ..

وكيف سمح لها زوجها بهذه العلاقة وهو شاب معروف؟..

وكيف .. وكيف .. مئات الأسئلة راحت تجرى على لسانه وقلمه وهو يحاول أن يهتدى إلى جواب شافى .. ووقف المدعى العام، وأجال طرفه بين هذا الجمع الغفير، وكلهم من علية القوم، ثم قال :

---

(١) نساء اليوم – وفيق العلايلى – مجلة المعارف – بيروت .

«نعم أيها الجمهور ... لا تتأثروا بالمظاهر .. إنها جميلة نعم .. ولكنه جمال حيوانى مثير .. إنه جمال الجسد دون الروح .. جمال القالب دون القلب. جمال اللحم والعظم دون النفس..

انظروا إليها يا حضرات المحلفين .. إن الشهوة تنطق من شفتيها الشهوانيتين، وعينيها الفاسقتين .. وجسدها المثير ..

إنها لم تكتف بزوجها الشاب، بل أرادت أن تحب وتعشق وتمثل أدوار بطلات الغرام .. دون خجل أو حياء .. ولم تشفق على ابنتها البالغة عشر سنوات، بل كانت تستقبل عشيقها أمامها، وتظهر هكذا بالثياب الفاضحة الشفافة وتقبله ...

وعندما اهتدى هذا العشيق المسكين .. وعندما علم أنه سائر فى طريق الضلال والخطايا .. أراد أن يطهر نفسه ويبتعد عن هذه الأفعى، قتلته ولم ترحم شبابه ..

وها هى الآن بين أيديكم ، لا ترحموها .. ولا تنظروا إلى جمالها، واعلموا أن وراء هذا الجسد الفاتن نفساً خليعة قاتلة ..

وسكت المدعى العام، ونظر إلى الحاضرين والمحلفين .. وكان الجميع فى وجوم كبير ..

وبعد ذلك قام محامى الدفاع ..

«نعم .. إن السيدة برندا قد قتلت .. ولكن دفاعاً عن العرض والشرف ... وهل الذنب ذنبها إذا كانت ذات فتنة وإغراء .. وهل يجب معاقبتها لأنها دافعت عن أثمن شىء لدى المرأة .. إن القتيل كان يعمل عندها كسائق ..

لقد أشفقت عليه، وأنعمت عليه بالمال والثياب .. ولم يمض ستة أشهر إلا وكان يريد الإعتداء عليها ..

نعم أيها السادة .. إن براندا قتلت .. وأنا احترمها لأنها فعلت ذلك » ..

وجلس المحامى وهو ينظر هنا وهناك ..

وكان الناس فى حيرة يتساءلون ..

أما جون، فلقد أخذ يسأل نفسه ..

ترى .. لماذا كانت عارية إذاً عندما حضر رجال البوليس .. ولماذا كانت تستقبل السائق فى حجرة نومها كما شهد بذلك الخدم والجيران ..

وأين كانت تذهب معه فى الليالى وحدها رغم أنف زوجها .. ومن أين له المال كى يرتدى الألبسة الأنيقة؟..

وقال جون بينه وبين نفسه .. سوف أجد الحقيقة كاملة ..

ودخل المحلفون إلى الغرفة الداخلية .. وبعد نصف ساعة خرجوا، ثم نطقوا بالحكم .. ثمانى سنوات ..

ونظرت برندا إلى الصحفى جون .. وكان شاباً جميلاً فاتناً، نظرة طويلة فيها لذة الانتصار..

وارتبك جون وهو لا يدرى ما يفعل ..

وفى اليوم التالى .. ذهب الصحفى إلى مكتب زوجها فى المدينة، حيث كان يعمل كتاجر كبير ..

واستقبله هذا الأخير، وكان فى نحو الخامسة والأربعين من عمره، استقبله بكل ترحاب .. وقال له جون :

- أنا أريد يا سيد روبر أن أكشف الحقيقة للجمهور والعالم .. أريد أن يعرف الناس حقيقة المأساة .. وقد قررت أن أحقق أنا بنفسى وأعرف كل شىء ..

- سل ما تريد وأنا أساعدك..

- ما هى علاقة زوجتك بالسائق ؟..

- علاقة السيدة بخادمها طبعاً ..

- هل كانت تسقبله فى غرفة نومها ؟..

- نعم .. وهذا لا يعنى شيئاً مطلقاً.. فقد اعتادت على استقبال الناس وهى جالسة فى سريرها..

- ولماذا كانت عارية عندما قتلته؟..

- لقد كان الوقت حاراً جدا.. وبرندا اعتادت الظهور كذلك.. إن أكثر الخهدم شهدوا جسمها عارياً..

- وأين كانت تذهب معه فى الليالى بمفردها؟..

- كانت تطلب منى أن أذهب برفقتها .. ولكننى كنت أفضل النوم .. وبرندا تحب الرقص والشرب واللهو.. ولا عجب فى ذلك، فهى فى الخامسة والعشرين..

- هل شككت فى سلوكها فى أحد الأيام؟..

- اسمع يا مستر جون .. سوف أكون معك فى غاية الصراحة .. إن برندا تحب رفقة الشباب، وتحب واثارتهم وتحب اللهو على أن لا يتعدى بعض القبل والرقص.. ولقد شاهدتها فى بعض الأحيان ترقص وتلهو وتقبل الشباب،

وكنت لا أخشى عليها مطلقاً لأنها معتادة على ذلك .. وأكثر من ذلك أنه فى كثير من الحفلات عندنا فى البيت كانت تقوم هى ببعض رقصات مثيرة أمام المدعوين .. حتى أنها فى حفلة عيد الميلاد الأخيرة .. عندما كان عندى حاكم المدينة وجميع الأعيان والنبلاء، قامت برقصة وقحة .. فقد أخذت تخلع ثيابها قطعة قطعة إلى أن أصبحت عارية كالحقيقة. وقد بيعت ثيابها الداخلية بالمزاد، وقد اشتراها كلها المليونير شارلى ..

وكان جون يسمع وهو لا يكاد يصدق..

- وكيف كنت تسمح بكل هذه الأشياء ؟..

- وهل أقدر على منعها .. لقد اعتادت على ذلك .. ثم إنها كانت سبباً كبيراً فى نجاح أعمالى التجارية مع أصحاب البنوك ورؤوس الأموال .. ولا تنس إنها هى سبب ثروتى الكبيرة..

ثم، إن برندا ليست من النوع الذى يتعلق بشاب واحد، ومن .. سائق بسيط .. كلا يامستر جون.. ان برندا قتلته لأنه كان يريد الاعتداء عليها .. ولو كان بينه وبينها أية علاقة، لما فعلت ذلك ..

- أريد منك أن أعلم شيئاً واحداً يامستر روبر .. أريد قصة زواجكما .. كيف .. وأين ..

ونظر روبر بعيداً وعادت به الذكريات .. ثم ابتسم وقال بصوت منخفض :

«وعندما تزوجتها كانت هى فى الخامسة عشرة، وكنت أنا فى الخامسة والثلاثين .. كانت فقيرة جداً.. ولكنها كانت معتادة علي رفقة الشبان .. فكنت أراها كل يوم مع شاب جديد .. كانت تحضر إلى محلى حيث كنت أبيع الحلويات وتأكل معهم وتشرب كأسين من الخمرة..

وكان الشباب يتسابقون إلى خطب ودها، لما فيها من جمال حيوانى مثير .. كان لها جسد امرأة من نار، وشفاه من جهنم .. كانت تخرج من المدرسة وتأتى إلى محلى مع بعض الرفاق . وكانت الفتاة الوحيدة بينهم.

وكثيراً ما كانت تراقصهم الواحد تلو الآخر على نغمات الجاز .. وكانت تلتصق بهم بحرارة وتدعهم يصرفون كل ما فى جيوبهم .. وكثيرا ما كانت تعود إلى المحل بعد أن يخرجوا كى تأخذ منى دولارين أو ثلاثة .. وكنت أعطيها عن طيب خاطر لأننى كنت أربح كثيراً بواسطتها.

وكثيرا ما كان يأتى أبوها، وهو صديق لى، ليأخذها ويضربها أمام الشباب ، ثم يشدها من شعرها ويذهب بها إلى البيت.

وكثيراً ما كان يشكو من سوء أخلاقها وشراستها والدمعة فى عينه .. كانت وحيدة فى البيت، وقد ماتت أمها باكراً .. وكانت تعيش مع جدتها ووالدها الموظف فى سكة الحديد .. كنت أرثى لحال هذا الأب المسكين، وكثيراً ما كنت أنصح برندا وأقول لها أن تكف عن مثل هذه الأعمال، وكانت تضحك بصوت مرتفع ثم تقول : سوف أصبح غنية، وسوف ترى.

وفى أحد الأيام، حضرت كالعادة عند خروجها من المدرسة، وكانت وحيدة .. وتعجبت للأمر، وقلت لها : أين الرفاق .. فقالت. انهم سوف يأتون بعد ساعة.

ثم راحت تلتهم الحلويات والشراب وهى تنظر إلىّ ..

وكنت أنظر كالمشدوه إلى ساقيها العاريتين وقد ارتفع ثوب المدرسة القصير الضيق .. وكان جسدها جميلاً مثيراً ..

وشاهدت نظراتى المحمومة .. فضحكت بخلاعة ثم رفعت الثوب إلى أعلى وهى تقول : هل رأيت مثل هذين الساقين .. كلهم فى المدرسة يقولون لى أننى

جـ ـلة جداً، ولا يدعونني وشأني .. حتى الأساتذة والمدرسين . كلهم يتحرشون بى .. وأنت أنت تقدم لى النصائح بينما تلتهم جسمى بنظراتك المحمومة الشهوانية .. وليس الذنب ذنبى ولا ذنبك .. انه ذنب هذا الجسد الجميل الذى أحمله .

وكنت أنظر إليها وأنا فى حيرة وارتباك ..

وجاء رفاقها ورقصوا إلى ساعة متأخرة..

وعندما ذهبت ، اقتربت منى قليلا وقالت :

– لن أذهب إلى المدرسة بعد ظهر الغد، وسوف آتى لعندك كى نتحدث فى «أمور مهمة».

قالت ذلك ثم خرجت على مهل، وهى تمشى بغنج ودلال.

واجتاحت رأسى شهوة جامحة ..

وفي اليوم التالى حضرت بعد الظهر، وطلبت منى أن أقفل الزجاج الخارجى، وأضع الورقة الكبيرة التى كان من عادتى أن أعلقها خارجاً إذا ذهبت لبعض العمل، وكان مكتوباً عليها : « سأعود بعد ساعة، وفعلت ذلك .. وجلسنا معاً بعد أن اسدلت الستائر.. وقدمت لها الحويات .. وكانت ترتدى ثوبا غاية فى القصر .. ثوباً ضيقاً يظهر مفاتن هذا الجسد القاتل..

هل رأيت جسمها يامستر جون .. هل رأيت نهديها .. إنك لم تر شيئا من ذلك.. إنك لم تشاهدها عارية حتى تعلم عن أى شىء اتكلم وتعذرنى .. وفخذيها الطويلين الممتلئين ..

وكانت تجلس وتدعنى أشاهد هذين الساقين حتى أعلى .. وقلت لها وأنا أنظر إليها كالمحموم : ما هى هذه الأشياء المهمة التى سوف نتحدث عنها؟..

وجلست بعيداً عنها ..

- اسمع يامسيو روبر .. قلت أموراً مهمة .. وأنا عند كلامى .. أريد أن أسألك : لأى شىء تستعمل هذه الغرفة الداخلية ؟..

- أبداً .. أضع فيها بعض الحاجات المهملة..

- أريد منك أن ترتبها وتجعلها صالحة، وتضع فيها أريكة كبيرة مريحة وطاولة وبعض الأشياء..

- ولماذا ياحضرة الأنسة كل هذا ؟..

- سوف نربح كثيراً من الفلوس ياروبر .. وسوف أدعك تكسب أكثر مما تكسب من بيع الحلوى والخمرة..

- وكيف ذلك ؟..

- سوف استدرج إلى هنا هؤلاء الرجال الهرمين الذين لا يكفون عن ملاحقتى .. فعندما يشاهدوننى فى الشارع يتركون سيارتهم الفخمة ويتبعوننى أينما سرت .. إنهم أغنياء وسوف آتى بهم إلى هنا ، ثم نقفل الزجاج كما نفعل الآن وسوف العب معهم البوكر فى الغرفة الداخلية .. ولا تخف سوف أكسب دائما ويكون لك النصف ..

وبعد جدال بسيط، اتفقنا .. وحاولت أن أقبلها كعربون للاتفاق .. ولكنها كانت تنفر منى ضاحكة . وفى الختام قالت لى :

- إسمع .. إبق مكانك .. وسوف أرقص لك وحدك ..

واقتربت من الراديو وأدارته .. ثم وقفت فى وسط المحل وراحت تتمايل بغنج وإغراء على صوت الجاز الناعم ..

وكانت تأخذ بثوبها إلى فوق ، وترفعه حتى وسطها، وعندما ابتدأت فى رقص الرومبا، قلت فى نفسى اننى لم أر فى حياتى كلها ولن أرى فتاة فى مرونتها وجمال جسدها وخلاعة حركاتها .. وخرجت وهى تتمايل وتقول لى أن أسرع فى إعداد الغرفة .

وبعد أربعة أيام، كان كل شىء جاهزاً.

ولم تعد تأتى مع الشباب كالأول .

وأصبحت تحضر دائما بعد الظهر أو بعد المدرسة، ومعها رجل كبير فى السن عليه مظاهر الغنى والجاه الكبير.

وكانت تدخل إلي الغرفة الداخلية معه وأغلق أنا الزجاج والستائر، وكنت أراها تلاعبه البوكر وهى شبه عارية، وأحيانا حين كنت أدخل كنت أشاهدها وقد جلست على ركبتيه وهى تلعب الورق .

وكنت أكسب كثيراً.. وأصبحت تحضر كل يوم مع رجال مختلفين .

وقلت لها مرة : ألا تخافين من هذه الأعمال يابرندا .. وهل تريدين أن تبقى هكذا .. من الذى سيتزوجك غداً..

- لا تخف .. فأنا لا أزال عذراء . وسوف أظل عذراء وغنية حتى مرحلة الزواج.

وكانت الأيام تمر بسرعة خارقة.. وكان دخلى يومياً بين الخمسين والمائة دولار عن طريقها فقط.. وكنت أتساءل : ترى ماذا كانت تفعل بالمال الذى تأخذه.

وكانت تزداد جمالاً على جمال، وفتنة على فتنة، وشهوة على شهوة .. وكنت أحاول دائما أن أتحرش بها.. فكانت تصدنى بكبرياء ولؤم..

وكنت أشاهدها كل يوم شبه عارية ترقص لرجال مختلفين. وتجلس على ركبهم، وتقبلهم، وتدعهم يعبثون بأجزاء جسمها البض، فيصعد الدم إلى رأسي..

وقلت لها ذات يوم بعد أن خرج الرجل الكهل :

– لماذا لا تدعيني أفعل مثلهم وأنا أعطيك أكثر.– اسكت أيها الصعلوك ..– أرجوك يابرندا .. انني مجنون بك، انني أدفع لك ما تريدين.. ونظرت إلى باحتقار وخرجت ..

وأصبحت تحتقرني ولا توجه الكلام لي إلا نادراً.

وسارت الأيام .. وكنت لا أقدر أن أنساها وأنسى جسمها الهائل مطلقاً..

ومرت بعض الأيام دون أن تحضر .. وفي المساء ، ذهبت إلى بيتها.، ولم أجد والدها الذي كان مسافراً.. وجلست مع جدتها نتبادل أطراف الحديث ..

وسألتها عن برندا .. فقالت :

– الا لعنة الله عليها من فتاة شريرة عديمة الأخلاق..

عندما يكون والدها غائباً فهي لا تحضر إلا بعد أنصاف الليالي.. سوف أقول لوالدها كل شيء حتى يقتلها ونرتاح منها ..

وانتظرت حتى الساعة العاشرة.. ولكنا لم تحضر..

وخرجت، وكنت أريد الذهاب إلى منزلي، ولكن قوة خفية كانت تدفعني للبقاء .. ومرت الدقائق والساعات وأنا انتظر بعيداً تحت شجرة وارقة وانظر إلى البيت ..

وعند نصف الليل تماماً، رأيت سيارة تقف، تنزل منها برندا ثم تذهب السيارة بسرعة فائقة ..

واقتربت على عجل.. وعندما أرادت أن تصعد درج المنزل، ناديتها : برندا .. وألتفتت إلى بسرعة..

- آه .. أهذا أنت، ماذا تريد؟..

- أين كنت حتى هذه الساعة ؟..

- وهل هذا يعنيك؟.. وبأى حق تسألنى هذا السؤال؟..

- لماذا لم تعودى إلى المحل كالسابق؟..- . لقد اشتقت للمال.. اعلم إذاً أن كل شيء قد انتهى.. والرجل الذى كان معى الآن هو خطيبى ..

وشعرت أن قلبى قد هوى من مكانه عند سماعى هذا القول.. ماذا.. خطيبها .. وهل ضاعت منى برندا إلي الأبد.. وهل أقدر أن أعيش بدونها وقد شعرت الآن فقط مبلغ حبى لها وهيامى الجنونى بها وهذه الشهوة التى تكاد تحرقنى.

- ومن هو هذا خطيبك ؟..

- انك تعرفه .. أنه بول الموظف فى شركة التأمين.

- ولكنه فى الأربعين من عمره.. وأنا أكسب أكثر منه..

واقتربت منى بدهشة، والتصقت بى ورائحة الخمرة تفوح من فمها وقالت: أنا أعلم أنك أحسن منه، ملائم أكثر منه. ولكنك لم تحدثنى عن الزواج أبداً.

- أريدك يابرندا .. سوف أتزوجك . فقد كنت أخاف أن لا تقبلينى.. سوف أكون خادماً لك. ورحت أنهال عليها بالقبل المحمومة، وكانت تشدنى إليه وأنا أشعر بهذا الصدر النافر والجسد النارى..- اذهب الآن، وغدا سوف نرتب كل شيء.. سوف أنهى علاقتى مع بول غداً.

- لا أقدر أن أنام من فرحي يابرندا.. انني لا أصدق .. اسمعى، إن والدك ليس هنا، ولن يحضر.. وسوف نتدبر الأمر مع جدتك التى لن تقول شيئاً عندما تعلم أنك أصبحت خطيبتى. هيا بنا نسهر حتى الصباح.

وقبلت بسرعة .. وذهبنا إلى مرقص زنجى لا يأتيه أحد من البيض مطلقا.

وكانت ترقص وتشرب الويسكى.. وتركتنى ثم قامت إلى حلبة الرقص وأخذت ترقص بمفردها والزنوج من حولها يصفقون ويوقعون بأقدامهم.. وكانت تتمايل على أنغام الكونغا.. وتدع الزنوج يشاهدون كل مفاتن جسدها.

واقترب منها زنجى شاب وراح يراقصا ويرفعها بيديه القويتين ويشدها إليه.

وفى وسط هذا الجنون وقد لعبت الخمرة برأسها، خلعت ثوبها وبدت هكذا بالثياب الدخلية المؤلفة من قطعتين فقط.

وصاح الزنوج وكأنهم وسط الغابات.. وأقبلوا عليها يرفعونها على أكتافهم ويلعبون بهذا كالكرة الطائرة .. وكانت تضحك بصوت مرتفع، واقتربت من حلبة الرقص أريد أن أردها إلي صوابها، ولكن أحد الزنوج دفعنى بعيداً إلى الأرض.

وكنت أرى جسمها الأبيض النقى متلصقاً بهذه الأجسام السوداء اللامعة. وراح الذى كان يراقصها فى أول الأمر يهمس فى أذنها ببعض الكلام وهى تضحك.

ومرت الدقائق وكان الآخرون فى هرج ومرج يصفقون، وكنت أريد الاقتراب وهم يمنعوننى.

وطال الرقص وهو يعبث بوسطها ويشدها إليه. ويتحرك معها ببطء كلى على حلبة الرقص وقد اتحدا وأصبحا كجسم واحد.. ومرت عشر دقائق على

هذا الحال.. واقتربت كالمجنون رغم الضرب.. وعندما رأتنى دفعته عنها، وقلت لها : أنا ذاهب! فقالت لى : إسمع ياروبر.. لا تكن هكذا متأخراً، اننى مبسوطة وأرجوك أن لا تزعجنى.. أنا رضيت بأن أتزوجك لأنك رجل عصرى.

- أنا ذاهب وبوسعك أن تبقى هنا.

وتبعتنى على مضض بعد أن أشارت بيدها مودعة للزنجى الذى كان يراقصها.. وأخذت ثوبها وارتدته وهى خارجة.. وكانت تلعننى لأننى عكرت مزاجها.

وكانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل .. وقلت لها:

- لماذا فعلت هكذا يابرندا؟..

- ألا تريد أن ألهو وألعب وأرقص؟..

- ولكنك كنت عارية بين يديه .. وقد دامت الرقصة أكثر من عشر دقائق.

- وهل تعتقد بأنى أحب العبيد .. اننى ألهو به فقط وأضحك على ذقنه.

وسكتت وأنا حائر .. واقتربت منى والتقصت بى، وكانت رائحة العبيد لاتزال تفوح من جسمها.

ورحت أنهال عليها بالقبلات، ورافقتنى إلى منزلى..

وفى الصباح الباكر، ذهبنا معاً إلى جدتها، وأخبرتها بأنها أصبحت خطيبتى، واختلقت لها الأعذار المختلفة عن تأخرها.

وحضر أبوها .. وفرح جدا لأنه تخلص منها ومن مراقبتها دائما، وبعد أسبوعين أصبحت زوجتى.

ومرت الأيام، ورزقنا بابنتنا لانا التى أصبحت الآن فى العاشرة.

ولم تتغير برندا بعد الزواج مطلقاً.. وكانت تحب الشباب كثيراً وتحب أن تدعهم يشاهدون جمال جسدها.. ولكنها لم تخنني مطلقا بكل معنى الكلمة.

انها دائماً عارية تقريبا فى المنزل وفى الملاهى .. وعرض الجسم هكذا مرض، وقد قال لى طبيب نفسانى من أصدقائى بأنها تشعر بلذة هائلة وهى تدع الرجال يشاهدون جسمها وصدرها.. واسم هذا المرض هو Exhibition.

واعتقد أن عجبك الآن قد زال عن سبب وجودها عارية عندما قتلت السائق..

وقد فهمت أنا الحقيقة .. كان هذا السائق يراها دائماً فى أوضاع مختلفة، عارية تظهر محاسنها، فاعتقد المسكين أنها تدعوه وتتحداه .. فكان ماكان.

وكان الصحفى جون يسمع وهو فى حيرة ما بعدها حيرة.. وقام مودعاً.. وقال له روبر وهو يودعه :

- أريد أن تحضر غدا إلى العشاء فى منزلى .. نعم .. نعم.. أريد.. وسوف نتحدث فى أشياء وأشياء.

وفى اليوم التالى حضر جون، وشاهد المنزل الفخم والرياش الثمينة.. وصعدا إلى غرفة برندا، وكانت فى غاية الأناقة والعظمة.. وكان السرير العريض فى لون أحمر مخيف.. وشاهد موضع الجريمة وتعجب عندما علم من روبر أن برندا تنام وحدها فى الغرفة بينما ينام زوجها فى الطرف الثانى، لأنها لا تحب أن ينام أحد بالقرب منها وهى تتضايق كثيراً.

وشاهد الفتاة الصغيرة لانا الشقراء .. وكانت ضعيفة الجسم نحيلة عليها مسحة من الجمال الباهت.

ومرت الأيام والشهور والأعوام ..

وأصبح جون من أصدقاء روبر دائماً فى منزله.. ونسى الناس قصة برندا التى كانت فى السجن.

وأصبحت لنا فى الخامسة عشرة من عمرها .. وابتدأ جمالها يظهر.. ولكنه الجمال الملائكى الحزين بعكس أمها الشهوانية المثيرة .. وكان جون يشعر بنظراتها الدافئة الحزينة.

ومر عامان.. وصارت فى السابعة عشرة.

وأصبح من المفهوم أن لانا أصبحت خطيبة جون.. وكانت فى سعادة ما بعدها سعادة.

وكان موعد خروج برندا من السجن يقترب بسرعة.. وكان جون يتساءل : ترى كيف أصبحت .. لابد أن جمالها قد ذوى وأصبحت هرمة عجوزة قبل الأوان.

وبعد أسابيع، خرجت برندا..

واتصل روبر بجون يدعوه إلى العشاء .. وكان جون يعلم أن برندا فى المنزل، برندا القاتلة .. برندا التى يعرف قصتها بحذافيرها.. برندا التى أصبحت أم خطيبته.

وأراد جون أن يتهرب ، ولكنه لم يقدر..

وفى المساء ، حضر..

واستقبلته لانا بفرح ظاهر.. وجلس مع روبر ولانا يتناولان الويسكى فى الصالون.. وكان يتساءل كيف يستقبلهاوماذا يقول لها وهو مرتبك أشد الإرتباك.

ودخلت إلى الصالون..

ونسى جون كل شيء.. لأنها محت كل شيء.. انها هى هى .. بل أنها أزدادات جمالاً على جمال. إن هذه السنوات لم تنل من فتنتها شيئاً بل زادتها.. لقد أصبح جسدها أشد فتنة.. وأصبحت نظراتها أشد عمقاً..

وكانت ترتدى ثوبا للسهرة عارى الظهر حتى الوسط، وظهر كتفاها وصدرها كالفتنة العمياء.

وأصبحت لانا أمامها شيئاً تافهاً باهتاً لا قيمة له مطلقاً. واقتربت بغنجها ودلالها ومدت يدها باغراء إلى جون وهى تقول : أهلا بالصحفى الذى دافع عنى، والذى أصبح قريبى الحبيب.

وأخذ يدها بين يديه وقد شهر بالنار تأكله أكلا. وكان يتأمل مفاتن جسدها وهو يشعر بأنه لا يستطيع أن يحول نظراته عنها. انها الآن فى الثالثة والثلاثين.. ولكنها تبدو أقل من ذلك بكثير.

ومرت الأيام وهو يراها كل يوم، وكانت تساعده فى تحضير العرس.. وكثيراً ما كان يشاهدها فى الثياب الداخلية والشورت القصير الضيق.

وكثيرا ما كان يأتى فيقال له أن لانا فى المدينة، وروبر فى العمل. وتطلب منه برندا بواسطة الخادمة أن يصعد إلى غرفتها. وهناك كان يشاهدها عارية وقد سجد زنجى عملاق عند قدميها وهو يدلك لها جسمها وساقيها وبطنها وردفيها.. وكانت عارية تماماً كالحقيقة.

– أنا أعتذر أن أستقبلك هكذا.. ولكن زوج ابنتى كبنى تماماً.. فأرجوك.. تعال اجلس هنا.. حدثنى عن حبك للانا. كيف تعرفت بها.

وكان الزنجى منهمكا يمر بيديه الكبيرتين على صدرها وبطنها وكل أجزاء جسمها وقد جحظت عيناه فى وجهه.

وعندما ينتهى تدفعه عنها بقدمها ثم تقوم إلى الحمام وتدع الباب مفتوحاً..

وكان يوم الزفاف يقترب بسرعة فائقة.. وأصبح جون كالسكران لا يدرى بماذا يفكر.

وفى أحد الأيام، شعر بفخذ برندا على فخذه على مائدة العشاء .. وشعر بقدمها على قدمه.. وبساقها يلامس ساقه.. وبعد أيام، وقبل العرس بيوم واحد، عندما أراد أن ينصرف استبقته برندا قليلاً.. وصعدت لانا للنوم .. وصعد روبر..

وصعد جون مع برندا إلى غرفتها. وبقى هناك حتى الفجر. وخرج ولم يشعر به أحد مطلقاً.

ونسى الدنيا بأسرها عندما عرف هذه المرأة.. إنها أفعى خرجت من جهنم بعد أن ذاقت طعم قبلات ابليس.

انه شعر بعد هذه الخيانة الكبرى أنه أصبح من الشياطين.

وتم الزفاف.. وذهب مع لانا فى سياحة قصيرة امتدت إلى أسبوعين .. وعاد من بعدها وهو لم يستطع أن يطرد صورة برندا من رأسه.

وعاد إلى حياة الإثم والخيانة.. وكان يترك عمله وامرأته ويأتى إلى برندا كالجائع النهم.

وكثيراً ما كانوا يذهبون جميعاً إلى الملاهى.. فترقص برندا مع جون، ويرقص روبر مع ابنته التى ابتدأت.. تشعر وكلمت والدها فى الأمر.. فنفى لها ذلك.. وقال لها:

- أنا أعرف أمك أكثر منك.. لا تعتقدى مطلقا أن هناك علاقة إثم بين الإثنين. كلا، ولكن برندا امرأة مرحة تريد جلب نظر الشباب.

وكانت برندا ترقص لهم فى البيت شبه عارية. وفى حفلة كبيرة راحت تقلد الراقصات الشرقيات فى رقصة البطن أمام عشرات الرجال.

ثم راحت تقص على الموجودين نكات عن السجون وغرام النساء ببعضهم والفضائح المخزية.

وكان جون يشعر بالإرتباك والخجل، وزوجها يصفق ويضحك كالمجنون المعتوه.

وفى ذات يوم، طلبت أن يذهبوا إلى أحد ملاهى الزنوج الوضيعة، وتذكر جون قصة الزنوج فى ملهى العبيد.

وبعد اصرارها، قبل جون وروبر. ولكن لانا لم ترض بالذهاب.. واقتربت منها والدتها وصفعتها على خدها بشدة، فأخذت تبكى وتنتحب.. وصعدت إلى غرفتها.. واقتربت برندا من التليفون وطلبت رقما، ثم أخذت تتحدث مع شخص مجهول، ولعله صاحب الملهى :

- نعم. سوف نأتى إليكم فى ملهى الغابة.. نحن ثلاثة فاحجز لنا طاولة قبل الازدحام. إلى اللقاء.

وبعد قليل، نزلت من غرفتها وهى ترتدى ثوبا فاضحاً، ثوبا شفافاً من قطعتين يترك البطن والظهر عاريين تماماً. وكان الناظر يرى ساقيها ونهديها وكل شىء.

وكنت كالمشدوه أنظر بعين الاستغراب.. ووضعت معطفها الثمين على كتفها. وعند الخروج أطلت لنا وهى تنتحب وتقول :

- سوف أذهب معكم. انتظرونى.

- الحقى بنا .. نحن فى ملهى الغابة.

- جون . جون . انتظرنى.

ولكن جون كان قد ذهب.. وكان بقرب برندا فى السيارة وقد شعر بجسدها الملتهب.

ووصلوا إلى الملهى، وكان ضيقاً حقاً لا يأتيه إلا الطبقة السفلى من الزنوج.

وشاهد جون هذا الذى يقوم بتدليك جسم برندا يقترب وقد بدأ كأحد الشياطين بحجمه الكبير الرياضى وكتفيه العريضين.

وجلسوا فى ركن بعيد، وعندما خلعت معطفها وقامت إلي الرقص نسى العبيد كل شىء إلا هذه الفاتنة.. وكانت ترقص وحدها ثم مع جون، ثم مع الزنوج.. ورقصت مع أستاذ التدليك، وكان يرفعها ويشدها إليه، وقد بدت أكثر من عارية.

وجاء الزنجى وجلس معهم وقد لعب الخمر برأسه.. وكان يشرب من كأس برندا وهى تشاركه هذا المرح.

وطلبت منه أن يخلع قميصه كى تشاهد جسمه وعضلاته الهائلة .. وفى لمح البصر خلع قميصه وجلس بينهم هكذا عارى الصدر.. وراحت برندا تتحسس عضلاته وصدره بيديها.

وكان جون يرى وهو لا يصدق..

وفى ساعة متأخرة من الليل عادوا جميعاً بعد أن أصبحت فى حالة من السكر الشديد .. وبعد أن أتت من ضروب الخلاعة ما يندى له الجبين خجلاً.

وشعر جون بأنه أمام امرأة ساقطة لا تتورع عن شيء..

وفي أحد الأيام، وفي نشوة الشهوة الجامحة، اعترفت له بأنها قتلت السائق، وهو عشيقها منذ زمن.. وقد حضرت الجريمة ودبرتها بحذافيرها.

وعندما سألها عن السبب، قالت له أنه في أحد الأيام، وقد كانت في حالة السكر الشديد، قبلت أن تتصور معه عارية في أوضاع مخجلة.. وقد أخذ يستعمل هذه الصور لتهديدها وقد استدرجته إلى اعطائها الصور، ثم قتلته .. ورأى جون الصور.. ولم يصدق عينيه.. هل من المعقول أن تصل امرأة بهذا الجمال إلى هذا الدرك الأسفل؟ هل من المعقول أن تسقط النساء في هذا المضمار.

ولكن الغريب في شعور جون أنه كان يتعلق بها أكثر وأكثر.. وكان يصعد كل يوم تقريباً إلى غرفتها... ولم يعد يأبه بكلام الناس وأنظار زوجته وروبر.. وكان يظهر معها في الملاهي والمقاهي والحفلات.. وأصبح مكانهما المفضل هو الملهى الزنجي.

وابتدأ الهمس في المجتمع والمدينة، وجون غائب عن الدنيا وعن الوجود.

وأرادت امرأته أن تطلب الطلاق، فلم يأبه لها مطلقاً.. وكان الزوج روبر يشعر بكل شيء، ويصر على أنه لا علاقة إثم بين الإثنين.

وكان جون يشعر بالغيرة الشديدة عندما كان يشاهد برندا عارية أمام غيره تراقص الرجال ولكنها كانت تفهمه بأنه لا يدخل ولن يدخل إلى مخدعها سواه.

وترك جون عمله، وأصبح لا يهتم إلا بجسم برندا... وساءت صحته وأخذ يتقهقر، وأصبح لونه أصفر كالتراب..

وذهبت لانا إلى مدينة أخرى حيث عمة لها، ولم يهتم جون للأمر مطلقاً.. وأصبح ينام مع برندا، ويقوم مع برندا وليس هناك إلا برندا.

وعرفته برندا بأصدقائها وأصحابها، وكانت تدعوهم إلى منزلها وترقص لهم.

وتعرف بواسطتها على جميع أنواع الموبقات والخطايا، وكانت الغيرة تأكله أكلا.. ولكنه، رغم مهارته، لم يستطع أن يراها أبداً في الجرم المشهود.

كانت تسكر وتعربد وتتعرى وتقبل الشباب..

وفي أحد الأيام، قال لها أنه سوف يذهب لرؤية لانا وأنه يريد الطلاق.. وكانت لانا قد طلبته ورضخ جون خوفاً من الفضيحة.

وقالت له : اذهب وطلق هذه المعتوهة وعد إليّ حراً، سوف نذهب معاً إلى فرنسا وهناك سوف ننسى الدنيا بأسرها..

وذهب .. وعندما وصل إلى المحطة، تذكر أنه نسي محفظة أوراقه كلها.. فاستقل سيارة وعاد.. وفتح الباب بمفتاحه الخاص ودخل..

وأراد أن يأخذ المحفظة ويذهب، ولكنه قال : كلا، قبلة أخيرة واذهب.

وصعد إلى غرفتها، وفتح الباب، فوجدها عارية مع الزنجي العاري أيضاً، وكانا في الجرم المشهود.

أيتها الساقطة : سوف أعرف كيف أفضحك... وقامت من المفاجأة، ثم ضحكت وقالت :

- أنا أعلم أنك كنت هنا، ولهذا كنت أتظاهر..

- تتظاهرين أيتها الساقطة.. سوف أكتب قصتك فى جميع الصحف.. سوف أحكى للعالم أية امرأة خليعة أنت.. ماذا فعلت بى وبابنتك.

وشعر جون بعمق الهوة التى نزل بها، وشعر بفداحة جريمته وهولها.. وأراد أن يركض إلى لانا يواسيها ويعيش حياة جديدة بقربها.. وخرج وهو لا يلوى على شىء.

وصرخت - جون .. جون .. اسمع .. عد قليلاً. إياك أن تكتب شيئاً..

سوف أكتب كل شىء أيتها الفاجرة..

- خذ إذاً..

ودوى طلق، ثم تبعه طلق آخر..

وهوى جون على السلم وهو يتدحرج.. وأصابه الرصاص فى قلبه وعنقه.

وعندما حضر رجال البوليس كانت لاتزال عارية والمسدس بيدها.

وقالت لهم إنه أراد الإعتداء عليها عندما رآها عارية يقوم الزنجى بتدليك جسمها.

وشهد الزنجى الذى ارتدى ثيابه بذلك.

وفى يوم الجلسة كان النائب العام يقول وهو يجيل طرفه بين هذا الجمع الغفير:

«نعم أيها السادة، لا تنخدعوا بالمظاهر.. إنها جميلة نعم.. ولكنه جمال حيوانى مثير، إنه جمال الجسد دون الروح.. وجمال القالب دون القلب، جمال اللحم والعظم دون النفس..»

نادى الخطايا

أنت يا من دخلت إلى هذا العالم.. ثق أنك لن تخرج منه إلا مثقلاً بالخطايا الكثيرة.

- هل سمعت؟ لقد مات البارون..

- مات ..وكيف مات؟.. أنه فى ريعان الشباب؟.

- يقال أنه مات بالسم.. لست أدرى مبلغ الحقيقة فى ذلك.. ولكن هكذا سمعت!..

هكذا كانوا يتكلمون فى البلدة الصغيرة التى تقع على الساحل الفرنسى، وهكذا كانوا يتكلمون فى كل مكان..

مات بالسم .. ومن قتله!..

فريدا .. فريدا .. فريدا الجميلة الفاتنة ، فريدا الخلابة، أجمل امرأة عرفها العالم منذ وجد العالم. فريدا الالمانية التى جمعت كل ما فى أجناس البشر من جمال فتان وحصرته فى نفسها..

ولكن لماذا تقتل البارون وقد فتح لها قصره الكبير وأغدق عليها المال والذهب الأصفر؟..

لماذا تدس له السم فى الطعام وهى لم تلق منه إلا المعاملة الحسنة والحب العميق؟..

وانتشر الخبر سريعاً فى جميع أنحاء فرنسا.

وكان أكثر الناس يهاجمون فريدا ويطلقون عليها النعوت والصفات الوضيعة.

وانبرت الجرائد تطالب بتحقيق واسع..

وابتدأ التحقيق ونبشت الجثة بعد أن دفنت، وشرحها الأطباء، فوجدوها خالية من كل سم.

وراح أعداؤها يقولون إنها قاتلة مهما كانت نتيجة التحقيق، وأنها استعملت سما خاصا لا يعرفه إلا الهنود فى الشرق الغامض، وأن هذا السم ليس له أى أثر.

وكثرت الإشاعات حول فريدا، وموقف فريدا. وقالت أكثر الجرائد : لماذا لا تذهب عنا هذه الدخيلة.. لماذا لا تعود إلى المانيا موطنها.

وفى غمرة هذه الحوادث الكبيرة، كان موريس يفكر.. هل من المعقول أن تكون فريدا قاتلة؟.

فريدا الجميلة التى تحير العقول وتدير الرؤوس وتجعل الرجال حيوانات أمام جمالها المشرق المتألق.. جمالها الشهوانى المثير، جمالها الفتاك المتوحش؟..

وكان يتحدث مع صديقه الحميم عندما سأله :

- ولكن هل تعرفها أنت يا موريس؟

- أعرفها؟.. ثم انفجر ضاحكاً بمرارة وألم.. وغادر الغرفة وهو لا يلوى على شىء.

وكان موريس يعمل فى دائرة الاستخبارات، وقد وصل إلى رتبة مرموقة وكسب احترام رؤسائه وتقديرهم لنشاطه وذكائه وحسن سلوكه.

وعادت به الذكريات إلى عام ١٩٣٥..، كان فى فينا .. مدينة الرقص والموسيقى والنساء.

ودعاه أحد الأصدقاء .. وهو يقول له :

- سوف ترى أعجب شىء فى حياتك !.

- ماذا .. أنا لا أحب العجائب !..

- ألا تحب النساء الجميلات ؟..

- بلى أحبهن..

- إذا أنا منتظرك فى الساعة العاشرة.. ويجب عليك أن ترتدى السموكنج. وفى الساعة العاشرة كان هذا الصديق ينتظره.

وسارت بهم سيارة المرسيدس الكبيرة فى بعض الشوارع. ثم اتجهت نحو الضواحى وهى تقطع الأميال بسرعة البرق..

- إلى أين تذهب ؟..

- اسكت وانتظر .. ولكننى أقول لك إننا فى طريقنا إلى نادى الخطايا .

- نادى الخطايا .. وراح موريس يردد هذا الإسم وهو يسبح فى حلم بعيد.. نادى الخطايا .

ترى .. ماذا يضم هذا النادى، ولماذا دعى بهذا الإسم..

وبعد ساعة .. وصلا، ودخل الحديقة بمفرده .. ثم عاد بعد ربع ساعة وهو يقول :

- لقد عملت المستحيل حتى قبلوا أن يسمحوا لك بالدخول.. أنت تعرف أنهم لا يحبون الأجانب كثيراً..

ودخل موريس وهو يتبع صديقه.

وعندما تخطى الباب فاحت رائحة البخور والعطر والعنبر.. وتصاعدت موسيقى الفالس فى أنحاء القصر الكبير الذى حوّله هؤلاء إلى نادى كتب على بابه بأحرف من ذهب يتصاعد منها النار: «نادى الخطايا».

« أنت يا من دخلت إلى هنا .. لقد بعت روحك للشيطان».

ودخل موريس إلى الدار الكبير وهو يرتعد من هول هذه الكلمات .. وما أن دخل حتى نسى كل شىء ..

عشرات النساء الجميلات الفاتنات يتمايلن على أصوات الموسيقى .. الزنود والنهود والسيقان .. كل ذلك كان يظهر جلياً واضحاً للعيون النهمة..

كانت النساء جميعا شبه عاريات لم تخفى إلا القليل، وظهرت أكثر الأجساد الجميلة وهى تتحدى الحشمة وتتحدى الخجل.. وكانت كل النساء جميلات.

أما الرجال، فقد كانوا جميعا فى ثياب السهرة السوداء .. فلقد ارتدوا السموكنج التقليدى. وكان مظهراً عجيباً حقاً أن ترى الفرق بين الرجال والنساء.

وأخذ يرقص ويلهو، وقبل الشفاه النهمة وضم الخصور المتهادية. وكانت النساء تقبل عليه عندما يعلمن أنه فرنسى . وقالت له إحداهن :

- يقولون عنكم الكثير، خصوصاً عن طريقتكم فى الحب .. أريد أن أجرب ذلك معك أيها الفرنسى الجميل.

ومضى الليل سريعاً بين الحب والخمر والموسيقى..

واقبل رجل فى الخمسين من عمره طويل الجسم عريض المنكبين تدل هيأته على القوة والبأس..

والتف حوله الجميع يسألونه بلهفة ظاهرة :

- فريدا .. أين فريدا؟..

- لا تخافوا، سوف تحضر بعد ساعة.. لقد ذهبت مع بعض الضباط فى مهمة خصوصية.

وضحك الجميع بصوت مرتفع.

وسأل موريس صديقه عنه فقال له أنه دكتور نمساوى كبير وشخصية معروفة فى الأوساط السياسية الكبيرة.

وسأله عن فريدا.. وضحك صديقه ثم تمتم قائلا :

فريدا .. فريدا.. سوف تشاهدها الآن، وثق أنها أجمل امرأة وقعت عليها عيناك.. إنها أكثر من جميلة، إنها مخيفة، والدكتور هو خالها.

وبعد ساعة من الزمن .. كان موريس يراقص إحدى الفتيات وقد خلعت جميع ملابسها، عندها توقفت الموسيقى فجأة.. واتجهت الأنظار نحو الباب وإذا جميع النساء ينشدن بصوت جميل على لحن بديع :

- أهلاً بك يا فريدا.. أهلا بك يا فريدا..

ونظر موريس نحو الباب، وكانت تتقدم بخطى ثابتة موزونة وكأنها إحدى الملكات.

وابتدأت تفك أزرار معطفها وهى تنظر إلى الجميع وتبتسم ..

وركضت إحدى النساء وأخذت من يدها المعطف الثمين..

وتراجع موريس إلى الوراء وهو لا يصدق عينيه .. لقد بدت فريدا عارية

تماماً، وظهر هذا الجسد الهائل بجماله الفتاك ونهديه الطليقين. ولمعت حبات عقد اللؤلؤ الكبيرة على صدرها العاجى.

وتقدمت نحو البار، ورأى موريس ظهرها وهو يتعجب من هذا الكمال فى الجمال.

والتفت فريدا نحو اليمين، فشاهدت موريس ينظر إليها بعيونه النهمة الجائعة. وعبست قليلا ثم نادت أحد الرجال القريبين وقالت بصوت مرتفع :

– من هذا الغريب، وكيف تسمحون الآن بدخول الغرباء والجواسيس . أريد أن أعرف الآن من هو المسؤول عن وجود هذا الدخيل بيننا .

وسمع موريس هذا الكلام وهو يغلى من الغيظ.

وجاء الدكتور، خال فريدا، وهو يسأل عن سر غضبها .. فأشارت إلى موريس قائلة :

– ألا تعرف يا خالى بإننى لا أحب دخول الغرباء إلى نادى الخطايا .. أنا أكره الجواسيس.

وتقدم موريس وهو يقول بصوت مرتفع :

– إننى لست بجاسوس أيتها السيدة.. وأنا أعجب كل العجب كيف أن الله قد أعطاك كل هذا الجمال ولم يعطك شيئاً من الأدب ..

فابتسمت ثم قالت بسرعة :

– إذاً، أنت أيضا تجدنى جميلة .. وهل أعجبتك أيها الفرنسى الجميل ؟! وهنا قال الدكتور خالها:

– تعالوا نشرب نخب الصلح بينكما ..

وسار الثلاثة إلى غرفة داخلية، وكانت فريدا تسير أمام الإثنين وهى تتهادى يميناً وشمالاً على الحذاء العالى. وكان موريس ينظر إليها وهو فى شبه غيبوبة، لقوة الجاذبية الحيوانية التى تتصاعد من كل جزء من أجزاء جسد فريدا النارى، وشاهد الدكتور نظرات موريس الجائعة وقال له :

- إنها جميلة جداً، أليس كذلك .. حتى أنا، إننى أنسى أحياناً بأنى خالها شقيق والدتها .. إن جماله ينسى المرء كل شىء .. ولكنها مخيفة أيها الفرنسى، فحذار، حذار.

وجلس الثلاثة إلى طاولة، وكان صدر فريدا لا يبعد عن موريس إلا بعض السنتمترات.. وابتدأ الثلاثة بالشرب، ولم يمض بعض الوقت إلا وقد أصبحوا أصدقاء ..

ولما سألته فريدا عن نوع عمله فى فرنسا وعلمت أنه موظف فى الحكومة، بدا على وجهها الإهتمام .. ونظرت إلى خالها من طرف خفى - وتبادلت معه إشارة خفيفة .. وطلبت من موريس أن يراقصها، فقام إليها يشد هذا الجسد العارى إليه، واحترق بناره، وكان يشعر وكأنه أصبح فى جهنم .. وكانت تلقى بجسدها اللدن عليه.

وأحس بنهديها القويين وكأنهما يريدان أن يخترقا صدره.. وعندما عاد إلى الطاولة ، كان الدكتور يعب كؤوس الويسكى عباً. وجلست فريدا على ركبتى موريس وهى تطلب منه أن يصب لها الشراب..

وفى آخر الليل، خرج موريس برفقة الدكتور وفريدا، وذهبوا جميعاً بسيارة خال الفتاة .. ولم يعلم موريس أين هو ذاهب إلا عندما وصلوا إلى فيلا كبيرة فى غاية الأناقة والترف .. وصعد وهو يشد جسد فريدا إليه، وكانت قد ارتدت معطف الفرو الثمين.

وكان السائق ينظر إليهم ويساعدهم فى الدخول وهو فى غاية الأدب، وكأنه لا يرى جسم فريدا العارى الذى كان ظاهراً بوضوح تحت المعطف المفتوح.

ودخلت فريدا معه إلى غرفة كبيرة فرشت بالرياش الفاخرة .. وعندما سألها عن خالها دفعته إلى السرير دفعاً وهى تقول له:

- لا تخف .. فأنا أفعل كل ما يحلو لى..

ومضت الأيام سريعة هانئة، وهو غارق فى هذا الحب النارى .. وشعر فعلا أنه أصبح من أفراد نادى الخطايا قلباً وقالباً، وأخذ ينكب على السهرات فى هذا النادى برفقة فريدا الجميلة. فريدا التى أحبت فى موريس شبابه وجماله وقوته وتعمقه فى أصول الحب والغرام.

وكانت فريدا تغيب عنه فى بعض الأحيان، فيشعر بالوحدة القاتلة المميتة .. ويبحث عنها وهو يسأل خالها وأصدقاءها .. ولكن عبثاً ..

ثم تعود إليه بعد أيام وتتصل به، وعندما يسألها أين كانت ، تغضب وتصرخ وتطلب منه بأن يكتفى بالشىء الذى يأخذه منها :

- وهل تعتقد بأننى أحبك أيها الأبله .. وهل امرأة مثلي تحب .. إننى آخذ الرجل الذى يعجبنى .. وثق أننى سوف أسأم منكم بعد قليل .. أما الآن فإنك تعجبنى لأنك قوى .. ولكننى سوف أمتص قوتك وشبابك وألقى بك بعيداً كأى شىء مهمل .. أما الآن، فتعال معى .. اتبعنى إلى غرفتى ..

وترمى ثيابها إلى الأرض قبل أن تصل إلى غرفتها، وتستلقى على السرير وهى عارية من كل شىء .. ويتبعها موريس وهو يريد أن يثور ويصرخ ويحطم ويبرهن لها بأنه رجل .. ولكنه يسكت عندما يرى هذا الجسد المتألق، ويصبح كالحيوان الشرس - ويلقى بنفسه بقربها على السرير.

وانتهت مدة أجازته، وعاد إلى فرنسا وهو يطلب منها أن تكتب له .. وهناك .. فى قلم الاستخبارات - كان ينتظر الأيام والليالى .. ولكن عبثاً ..

وهاهى الآن ، فريدا تعود .. ها هى فى فرنسا..

الآن فقط يسمع عنها بعد مضى ثلاث سنوات ..

لقد عرفها على الفور بعدما شاهد صورتها فى الصحف .. إنها تبدو حتى أجمل مما كانت قبلاً..

وتعجب كيف أنها كانت تعيش هنا.. فى باريس، منذ مدة طويلة وهو لايزال يبحث عنها.. بل أنه ذهب إلى فينا وطرق باب نادى الخطايا، فلم يجدها بين النساء وسأل عنها الكثيرات، فقالت النساء أنهن لم يشاهدنها منذ سنتين ... وذهب إلى عنوان الدكتور خالها، فلم يجده أيضاً، ولم يقدر أن يحصل على عنوانه..

وها هو الآن يعلم أن فريدا هنا .. هنا فى فرنسا..

وفى اليوم التالى دخل موريس على رئيسه، وطلب أجازة لمدة عشرة أيام .. ونظر إليه رئيسه ثم قال :

- أنت تعلم يا موريس كم أنا أحبك وأعطف عليك، وتعلم أيضا مبلغ ثقتى الكبيرة بك، وتعلم أكثر من كل إنسان بأن الحالة حرجة جداً فهتلر يتحدى يريد الحرب، وتشمبرلن يذهب إليه كى يستعطفه، وايطاليا تميل إلى ألمانيا، وأقلام الاستخبارات فى جميع هذه البلاد تنشط وتعمل .. وقد كنت أريد أن أطلبك اليوم لمهمة خطيرة جداً، وها أنت تأتى كى تطلب إجازة ، وأنا لا أبخل عليك بأية مدة تطلبها. ولكن قل لى بصراحة ياموريس :

- الإجازة أم الواجب ..

وأجاب موريس دون أدنى تردد : الواجب أيها الرئيس.

- إذن اقفل الباب .

وقفل الباب ، وجلس موريس ينظر إلى رئيسه وهو يفكر : أين يا ترى سوف ترمى به هذه المهمة.. لقد كان يريد أن يذهب إليها، هى فريدا .. يريد أن يذكرها بالماضى يريد أن يرى جسدها البض.

وها هى الوظيفة تأتى وتجعل بينه وبينها سداً.

وقدم إليه رئيسه لفافة دخان ثم ابتدأ يتكلم :

- اسمع يا موريس .. أعتقد أنك قرأت فى الجرائد عن هذه الألمانية الرائعة الجمال التى تدعى فريدا .. نعم .. هى هى التى اتهمت بمقتل البارون ..

وقفز قلب موريس من بين جنبيه وهو يسمع ذلك، وقال وهو يحاول أن يخفى كل شىء :

- نعم، لقد قرأت شيئا يشبه ذلك، ولو كنت لم أنتبه إليه كثيراً..

- إن المكتب الثانى يراقب هذه المرأة منذ زمن بعيد، إنها تحب كثيرا صداقة الضباط والطيارين والقواد الحربيين.. وهى لم تتصل بالبارون إلا لأن له علاقات كثيرة فى عالم السياسة وروابط قوية بالقواد العسكريين.. ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنها جاسوسة كبيرة،

ولكننا لم نتمكن حتى الآن من الحصول على برهان قاطع .. وقد فكرت بك، وقلت ليس لدينا إلا موريس، وقد علمت أن خالها، وهو دكتور نمساوى شهير، يعاونها، وقد كان يتردد كثيرا على القصر، حتى أنه كان يمضى عندها أسابيع طويلة ينام ولا يخرج إلا نادراً..

وأنت مطلق الصلاحية يا موريس، فاستعمل إذاً الطريقة التى تجدها مناسبة، واتصل بها بأى شكل، وأريد منك بعد الدرس والتنقيب تقريراً كاملاً شاملا فيه الجواب الشافى ..بهل يكفيك شهر لهذه المهمة ؟..

– أفضل أين يكون شهراً ونصف ..

– فليكن .. ثم اسمع .. لقد سمعت أنها جميلة جدا ومخيفة، فكن على حذر، وأنا أتمنى لك التوفيق والنجاح، وربنا يحرسك.

وفى اليوم التالى كان القطار ينهب به الأرض نهباً.. إلى هناك، إليها .. ترى ، هل صحيح أنها جاسوسة.. هذا مستحيل، إن فريدا فى غاية الغنى والثراء، ثم أنها لا تعرف من دنياها إلا البحث عن اللذة والجرى وراء الحب والشباب، لابد أن أحدهم قد لفق لها هذه التهمة التى فتحت أنظار رجال المكتب الثانى عليها.

ووصل فى الليل إلى البلدة، وأخذ يبحث عن تاكسى قديم يوصله إلى قصر البارون، ولكن عبثاً، فالقصر بعيد والقرية صغيرة قد آوى سكانها إلى منازلهم..

وأخذ يسير نحو القصر وهو يشعر بالتعب من المشى على الرمال العميقة.

وبعد مسير ساعة، وصل، ورأى الأسوار العالية تحيط بالقصر الكبير، ووقف عند الباب الضخم وراح يدق الجرس وهو يسمع نبح الكلاب المخيفة.

ومضى بعض الوقت قبل أن يسمع أى جواب، ثم سمع خطوات، تقترب، وارتفع صوت أجش يقول :

– من أنت وماذا تريد ؟

– أريد أن أقابل السيدة فريدا..

– انها لا تسقبل أحداً خصوصا فى الليل.. لقد قلت لكم مائة مرة أنها لاتحب الصحفيين..

– اننى لست بصحفى، وقل لها بأن عندى أخبارا بغاية الخطورة.. اننى قادم من باريس كى أراها .

وذهب الرجل .. ثم عادت الخطوات تقترب، وقال صوت : من هناك ؟..

وعرف موريس صوت الدكتور خالها، فقال :

– أنا موريس أيها الدكتور.. هل تذكر نادى الخطايا..

– نعم تذكرتك.. ولكن ماذا تريد فى هذا الليل ؟..

– أريد أن أراها لأمر بغاية الخطورة..

– سوف آخذ رأيها فى الأمر.

وبعد ربع ساعة، فتح الباب، ودخل موريس وهو ينظر إلى هذه الحديقة المترامية الأطراف، فيها الأشجار الوارفة والأزهار العطرة، وفى وسطها حوض كبير للسباحة يلمع ماؤه فى هذا الليل الموحش.

ودخل إلى القصر وهو يتساءل بينه وبين نفسه هل هو فى حلم أم فى يقظة، لأنه لم يشاهد فى حياته كلها قصوراً بهذه الفخامة والترف إلا فى الأفلام الأمريكية الملونة ..

ومد الدكتور يده مسلماً، ثم قال : اتبعنى ..

وتبعه موريس فى القصر الكبير، إلى أن وصلا إلى جناح فريدا، ودخل وراء الدكتور..

رأها تجلس على السرير العريض وقد تدلى شعرها على كتفيها العاريين ويقول :

-فريدا .. حبيبتى..

- لا تكن كالطفل الصغير .. لقد أمضينا وقتاً طيبا، ولكن كل شيء قد مضى .. اننى الآن فى حزن وأرجوك أن تفهم حالتى.. إلا ترى بأننى أرتدي الأسود حداداً على البارون.

وكانت فعلا ترتدى ثوبا أسود، ثوبا شفافاً لا يخفى شيئاً من جسدها الهائل، لأنها كانت عارية تحته تماماً، وقد ظهر بطنها وصدرها وساقاها ووقفت فى الغرفة وهى تنظر بنفسها فى المرآة، ثم التفتت إليه قائلة :

- هل تعتقد بأنى لا أزال جميلة.

- أنت أجمل مما كنت، أرجوك يا فريدا.. ارحمينى.. ونظرت إلى خالها ضاحكة وهى تقول :

-الا ترحمه يا خالى..

وابتسم خالها .. ثم قالت .. اسمع يا دكتور.. اذهب وقل لجولى أن تحضر لنا عشاءًا خفيفاً مع بعض الشراب، ثم لا تنس أننا فى حداد.

وذهب الدكتور، واقترب موريس منها، والتصقت به وهى تقول : كيف علمت بأننى هناك؟..

- من صورك فى الجرائد والمجلات..

- آه، صحيح.. وهل تزوجت ؟..

- أبداً، اننى لا أقدر أن اقترب من امرأة بعد أن عرفتك..

- وهل تقول الصحيح أيها الولهان؟..

ثم لمعت عيناها ببريق الشهوة المخيفة وقالت :

- لقد أرسلتك العناية الالهية كي تخفف آلام أرملة مسكينة حزينة.. قالت ذلك ثم وقع ثوبها على الأرض، واستلقت على السرير وهى تشده إليها..

- وهل تزوجت بالبارون يافريدا؟..

- نعم ياموريس، وقبل أن يموت بيوم واحد فقط.. وقد ترك لى كل ثروته..

وبعد قليل دخل الدكتور، ولم يشعر به أحد، وتراجع هو بعد أن شهد موريس يخفف عن آلام الأرملة الحزينة.

وجلست إلى المائدة وقد ارتدت سترة البيجاما فقط، وظهر نصفها الأسفل عاريا تماما، وتعجب موريس بينه وبين نفسه كيف أنها لا تخجل أن تبدو هكذا أمام الخادمة.. وكانت جولى جميلة حقاً.. سمراء جذابة، جميلة الجسم والعينين، شهوانية الشفتين.

وكانت ترتدى ثوبا قصيرا جداً يكشف عن ساقيها، وقد شعر موريس بالنظرات المتبادلة بين جولى وفريدا.. وعندما اقتربت جولى من فريدا كى تقدم لها الفواكة جذبتها من يدها وراحت تعبث بصدرها ثم رفعت ثوبها إلي وسطها وهى تقول لنا : بربك ياخالى، وأنت ياموريس .. الا تعترفان بأن لجولى أجمل ساقين فى العالم..

وقال الدكتور : إن ساقيك أجمل..

كلا .. كلا .. هى أجمل منى ..

واقترب الدكتور من فريدا وهو يقول :

- نعم، إن جولى جميلة ولكن هيهات أن تصل إلى حذائك يافريدا..

وأمضى الليل فى القصر، وطلبت منه فريدا أن يبقى بعد ذلك، ويمضى أسبوعا بينهم.

وأخذ موريس يحاول أن يهديها إلى طريق الصواب ويأخذ بيدها .. ولكنه كان يعلم أنه لا فائدة ترجى منها بتاتا. إن الفساد قد أصبح يسرى بدمها، والشهوة تقتلها قتلاً.

وراح يراقب حركاتها واتصالاتها، وكان يمضى معها الساعات الطوال يحدثها فى الحديقة أو يسبحان فى الحوض..

واعترفت له بأن خالها هو سبب سيرها فى طريق الشهوة والفساد، وبأنه كان أول من تعرف على جسدها.. وأنه هو الذى قطف زهرة شبابها.

ولم يبد عليها وهى تقول ذلك أنها متأثرة. بل على العكس لاحظ أن هذه العلاقة لا تزال قائمة بين الإثنين، لأنه كان يرى نظراتها الجائعة إلى جسم خالها العارى. جسمه الغليظ القوى والشعر الكثيف فى كل أجزائه.

وكثيرا ما كانت تختلي بخالها وهو لا يعرف ما يدور فى هذه الخلوات..

وعندما فاتحها بذلك، ابتسمت ولم تنكر وقالت له : إن اليهود يتزوجون بنات اخواتهن.. ولا يجب أن ينسى بأن أمها يهودية وجان خالها هو شقيق أمها.. إذاً فهو يهودى أيضا، ولا يرى فى هذه العلاقة شيئا من الإثم.

وأبدت رغبتها فى الذهاب إلى المانيا لتمضية بعض الوقت.. وطلبت من موريس أن يرافقها، وذهب معها وبقي الدكتور فى القصر.

وراحا يشربان كأس اللذة حتى الثمالة.. ومضى شهر تقريباً..

وفى أحد الأيام، بينما كان ينظر إليها أمام المرآة وهى عارية تماماً التفتت إليه وقالت :

- لماذا لم تقل لى يا موريس بأنك من قلم الاستخبارات؟.

وعلم موريس بأنها تعرف كل شىء عنه، وأنه من الأفضل أن لا ينكر فقال:

- ولكنك لم تسأليني أبداً. نعم، وأنا فى أجازة.

- أنت فى أجازة أم فى مهمة خطيرة؟.

- كلا، فى أجازة.

وتأكد منذ ذلك اليوم فعلاً أنها جاسوسة خطرة تعمل لألمانيا ضد وطنه فرنسا، وعلم أيضا أنها مغامرة بالدم تعمل فقط لأجل لذة المخاطرة والتحدى.

وتعجب كيف أن أمها يهودية وهى تحب المانيا.

وشعر بأنها تحتقر اليهود كثيرا وبأنها لا تحبهم بل وتحاربهم وتشى بهم، وبأنها منعت خالها من الدخول إلى المانيا لأنه الوحيد بين اليهود الذى تشعر ببعض العطف عليه، ويقال أن المرأة لا تنسى مطلقا الرجل الأول الذي يقودها فى طريق الحب.

وبدأت تقود موريس فى طريق الخيانة وتزين له الجريمة. وكانت تغدق عليه الأموال الطائلة، وعرفته بالرجال البارزين فى المانيا، وأخذت تدعوه إلى حفلات خاصة حيث الشهوة والمجون.

وشعر بأنه لم يعد باستطاعته أن يعيش بدون هذا الجسد، وأنه أصبح عبدها وأسيرها حتى الموت.

وشعرت هى بذلك أيضا، شعرت بسلطانها وجبروتها. ومنعت عنه هذا الجسم الذى حرقه، وراحت تصده كلما أراد الاقتراب منها.

وأخذ يشعر بالجنون رويداً رويداً لهذه المعاملة، وكانت تظهر أمامه دائما عارية وفى غلالات رقيقة تزيدها فتنة وجمالاً على جمال.

وأخذت تغيب عن المنزل وتتركه وحيداً، ثم تعود فى آخر الليالى برفقة الضباطوالشباب.

وكانت تقف أمامه وهى تعبث بأجزاء جسمها وتقول :

- ماذا ياموريس، هل قبلت بأن تفضلنى على وطنك.

وفى أحد الأيام لم يتمالك نفسه، فهجم عليها وراح يقبلها ويرفعها بين يديه ويركض إلي السرير وهو يقول : نعم، سوف أخون وطنى لأجلك أيتها الفاجرة. سوف أكون جبانا سافلاً، فدعينى أتمتع بجسدك.

وأمضى الليل بطوله بقرب هذا الجسد يحترق بناره، ونام فى الصباح فقط بعد أن هدهما التعب.

وعندما استيقظ، رآها بقربه، رآها جسداً فاتناً، وشهوة من جهنم. فأخذ يمر بيده على جسدها العارى. وراح يتمتم وهو فى شبه ذهول :

- أما هى ، وأما الوطن.. وأنا، ماذا أفعل ؟.. وعندما حضرت الخادمة عند الظهر، وطرقت الباب ولم تسمع جواباً، دفعته بشدة، فشاهدت الجثتين، وكانت أصبع موريس لاتزال قابضة على المسدس الصغير.

من هذه الفتاة ؟

بعض الرجال يحبون المال.. وبعضهم يحب المجد.. أما النساء فهن عند الرجال أغلى من المجد وأثمن من المال.. «ديكنز»

دخل سامى إلى منزل شقيقته، ورآها تقف أمام المرآة تتزين..

– إلى أين ذاهبة أيتها الشقيقة العزيزة؟.

– إلى السينما، فهناك فى الروكسى فيلم جميل لتيرون بلور، هل تأتى معنا؟. اننى انتظر زوجتى كى نذهب!.

– كلا .. كل . فأنا مشغول. ولكن قولى لى ، من هذه الفتاة الجميلة التى فتحت لى الباب؟.

– من ، فوزية، إنها الخادمة الجديدة. ألا ترى معى أنها جميلة.– جميلة ؟ أنها هائلة، ولكن كيف هذا .. ولماذا لا تعمل غير هذا العمل؟ أنها جميلة جداً.

– لقد قلت لزوجى مراراً أنها جميلة، ولكن حضرته يقول أنها على العكس، عادية جداً. بل وأقل من عادية وضحك سامى ضحكة عالية، ثم قال :

– اسمعى أيتها الشقيقة العزيزة.. أننى أعرف نوع النساء الذى يعجب الرجال، وفوزية هى من هذا النوع، أنها جميلة جداً، ومثيرة.. ثم جسمها.. هل رأيت جسمها..

وأن أنصحك نصيحة لوجه الله أيتها الشقيقة العزيزة، إذا كان صهرى العزيز يقول أن فوزية عادية وأقل من عادية، فهو يعترف بينه وبين نفسه أنها جميلة جداً، وأنا أنذرك من ذلك.. أنه معجب جداً بفوزية.. ونحن الرجال هكذا.. لا نعترف بجمال فتاة لفتت أنظارنا.

- أرجوك أرجوك يا سامى .. ليست فوزية جميلة إلى هذه الدرجة.. ولم تصل بعد إلى درجة ريتا هاورت وهيدي لامار. ثم اننى لست فى غاية الدمامة أيضاً كى أخاف من خادمة..

ونظر سامى إلى شقيقته، فى جمالها الهادىء الرزين، جمالها الأرستقراطى، وابتسم ثم قال :

- أنت جميلة جداً يا أختاه.. ولكن الرجال، آه من الرجال.. وأنا قد حذرتك على كل حال..

وخرج سامى ولمح فوزية عند الباب وقد وقفت على السلم، وظهر ساقها الممتلىء ونظرت إلى سامى ثم ابتسمت له من طرف خفى وهى تقول :

- حضرتك ، شقيق الست..

- نعم، أنا هو شقيق الست..

- لقد قلت ذلك، لأن الشبه بينكما كبير جداً.. وابتسمت له بشفتيها الممتلئتين، ثم صعدت الدرج وهى تتمايل .. ولمح الثوب الضيق يشد محاسنها البارزة ويظهرها بوضوح تام..

وخرج سامى وهو يرسل زفرة حارة.

وعادت من السينما برفقة زوجها فى الساعة الثانية عشرة، وقالت له وهى تتوجه إلى مخدعها..

- اذهب واطلب من فوزية أن تحضر لى فنجانا من الشاى..

وذهب الزوج إلى غرفة الخادمة، وأدار زر الكهرباء، ثم تراجع إلى الوراء كمن مسه سلك كهربائى.

كان الوقت حاراً، وقد بدت فوزية وهى فى الفراش وكأنها عارية. فقد ظهر ساقاها وبطنها، وارتفع الثوب حتى الخصر.. وراح الزوج يتأمل هذا المنظر المثير وهو يقول في نفسه :

- يجب أن أتخلص منها بأقرب وقت .. ان الفتنة نائمة، ولعنة الله على موقظها.

ثم انحنى قليلاً، ووضع يده على الساق، فاحترق بناره، وأخذ يهزها طالبا منها أن تقوم ..

وتثاءبت ثم جلست دون أن تهتم بستر محاسنها، وبروز نهديها من فتحة الثوب الواسعة وقالت :

- آه .. أهذا أنت يا سيدى.. أهلا وسهلاً..

- الست تريد فنجانا من الشاى ..

- على راسى.

وقامت وهو لا يزال ينظر إليها .. ومرت بقربه والتصقت به ورمت نفسها عليه وهى تتصنع بأنها سوف تقع، فأخذها على صدره وهو يعبق بمحاسنها، ثم تركها وانصرف غاضباً من نفسه وهو يلعن الشيطان.

ومنذ ذلك اليوم، وهو يحاول أن ينساها وينسى مشهد الليل، ولكن دون جدوى..

وكثيراً ما طلب من زوجته بأن تتخلص منها، والح فى ذلك.

- ماذا، تريد منى أن أطردها.. وفى هذه الأزمة الخانقة.. وأين أجد خادمة الآن وقد أصبحت أندر من الأحجار الكريمة، ومن يكنس ويغسل ويخدم؟

أنا. لا أرجوك.. أنت تريد طردها لأنها لا تهتم بك كثيراً، وهذا حقها، الخادمة يجب أن تأخذ أوامرها من سيدتها فقط.

وابتسم بينه وبين نفسه، وهو يقول .. لا تُهتم بى، إن كثرة إهتمامها بى هو سبب محاولتى طردها.

المصيبة أنها كانت تهتم به أكثر من اللازم.

كانت تتعمد تعرية جسمها كلما لمحته وحيداً..

وعندما كانت تدخل إلى غرفته وتراه جالسا وتكون سيدتها فى مكان آخر، تنظر إليه والإبتسامة على شفتيها ثم ترفع ثوبها عن ساقيها الجميلين وتدعه ينظر بعين نهمة إلى جسدها.. ثم تذهب دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

وحدث فى أحد الأيام أن ذهبت زوجته إلى رحلة برفقة الأهل والأصدقاء.. وعاد فى المساء إلى البيت، وكانت فوزية فى الحمام، تجلس في حوض الاستحمام، وهى تعلم حق العلم أن سيدتها سوف تتأخر كثيراً.

وعندما شعرت بأنه دخل صاحت قائلة بصوت مرتفع:

- أنا هنا يا سيدى، فى الحمام.

واقترب من الباب، وطلبت منه أن يدخل..

ووقف ينظر إليها بجسدها العارى الجميل والصابون الأبيض يخفي بعض أجزائه، ونظرت إليه وهى تبتسم ثم قالت :

- أرجوك ياسيدى .. اذهب وضع سيارتك فى أى جراج، ثم عد إلى هنا فى التاكسى.. وهكذا لن يعكر صفونا أحد، وإذا دق الجرس، فلا نجيب، فيذهب الطارق وهو يعتقد أنه ليس فى المنزل إنسان .

وتعجب من أفكارها الجهنمية، ثم قال :

- ولكن لماذا؟..

- لماذا .. وهل تسألنى، الست مشتاقا إلى.. ألا تريد أن تقبلنى.. ألا تريد أن تضمنى إليك؟

ودخل إلى الدار وهو مصمم أن لا ينفذ أقوالها مطلقاً، وبعد خمس دقائق كان فى الجراج، وعاد إلى منزله بالتاكسى.. وعندما دخل وجدها عارية تماما على سرير زوجته..

- فوزية .. هنا..

- نعم هنا، وهل هى أجمل أو أحسن منى.. أنا لا أقبل إلا هنا..

وعادت زوجته فى المساء منهوكة القوى، وقال لها زوجها وهو يشعر بوخز الضمير:

- أرجوك، يجب أن نتخلص من فوزية، إنها لا تطاق..

بالعكس، اننى مسرورة منها جداً، وهى أحسن خادمة صادفتها فى حياتى.. وعلى فكرة، أين سيارتك لأنى لم أجدها عند الباب، وقد اعتقدت فى بادئ الأمر أنك لا تزال خارج المنزل.

واحمر قليلا ثم قال بعجل:

- لقد أصابها عطب، فتركتها فى الجراج، حتى ينتهوا من تصليحها.

- أعجب كيف يصيبها العطب ولم يمض عليها أكثر من شهر، أنها لاتزال جديدة.. الا لعنة الله على هذه الشركات الغشاشة.. يجب عليك أن تراجع الشركة.

- سوف أفعل غداً..

وفى هذا الوقت، كان سامى يزور شقيقته باستمرار، وأصبحت العلاقات بينه وبين فوزية على أطيب ما يكون، وكان يغتنم فرصة وجوده معها بمفرده فيشدها إليها ويقبلها بنهم.. وكانت تتقبل منه كل ذلك وهى تضحك بجذل وفرح.

وعندما كانت تخرج من البيت بحجة زيارة أهلها، كانت تذهب معه إلي بيت صديق له، وهناك كانت تمكث حتى المساء.. واختصاراً للأمر، أصبحت تذهب بمفردها إلى منزل صديقه وتنتظره هناك.

ورأى الصديق هذا الجمال الثائر المتمرد، فأراد أن تكون له حصة، وبعد مشادة بينه وبين سامى رضخ هذا الأخير للأمر لأن صديقه هدده بأنه لن يستقبله بعد اليوم، وعندما فوتحت فوزية بالأمر ابتسمت بجذل وهى مسرورة من تهافت الرجال عليها.

وكانت المعركة لاتزال قائمة فى البيت، المعركة الصامتة بين الزوج وبين هذه الخادمة الملعونة.

وأصبح ينتظر ظلام الليل الحالك كى يذهب إليها ويحترق بنار جسدها الشهوانى.

وأصبح يذهب إليها كل يوم، وامرأته لا تشعر بشىء.. ونسى واجباته الزوجية المشروعة نحو زوجته الجميلة .. وأصبح أسير الخادمة فوزية وأسير جمالها المتبذل الرخيص، جمالها الحيوانى المثير.

وإذا حدث وغابت زوجته عن البيت فى النهار كى تذهب إلى الخياطة أو طبيب الأسنان، كانت فوزية تتصل به تلفونياً، وبعد محادثة طويلة كان يشعر بحواسه تلتهب، إذ كانت تصف له محاسنها الظاهرة والخفية.

وكان يستقل سيارته بسرعة البرق ويحضر إلى البيت ويأخذها بين يديه كالمجنون، ثم يعود بعد نصف ساعة إلى عمله وهو يشعر بأن قواه قد ذهبت منه إلى الأبد.

وكانت زوجته تتعجب كيف أنه نسى واجباته الزوجية تماماً.. لأنه كان من أشد المعجبين بجمالها وأنوثتها المتدفقة.. وراحت تتساءل : ترى، هل هو مريض. هل يشعر بقلق .. وخافت على صحته.. لأنها كانت تحبه فعلاً، تحب فيه رجولته المتدفقة وجمال عينيه الخضراوين.

وابتدأت العلاقة تسوء بين الزوجين، وأصبح الزوج يتهرب من البيت لأنه كان يشعر بوخز الضمير وهو يرتكب الخيانة فى منزل الزوجية.

ولكنه كان يعود فى آخر الليل منهوك القوى مضطرب الحواس ويرتمى بين أحضان فوزية، النهمة، الجائعة، الفاسقة، فوزية الأفعى التى كانت تكتشف له كل يوم فصولا جديدة فى كتاب الغرام الطويل.

وكان يحلف كل يوم الأيمان الغليظة ويصمم النية على أنه سوف يتجاهلها، وكان يجلس إلى مائدة العشاء بقرب زوجته.. وكان يرى فوزية تنظر إليه وهى تتحداه. وكانت تسير إلى الباب وهو ينظر إلى ظهرها فتغص اللقمة فى حلقه، ويلعن هذا الجمال الحيوانى المثير الذي جعله كالوحش المفترس وينسى واجباته الزوجية وينسى كل شىء.

والأدهى من ذلك أنه ابتدأ يشعر بالغيرة المرة القاتلة ، وأخذ يلاحظ كثرة تردد سامى على بيته.. وكان يشعر بالنظرات الملتهبة بين فوزية وسامى، وكان يشعر بأنها تتعمد إغاظته تعمداً وأصبح لا يطيق نفسه مطلقاً، وأهمل عمله وسارت تجارته بخطى واسعة إلى الوراء.

وعاد فى أحد الأيام إلى البيت .. وشعر بغياب فوزية، وسألها عنها من طرف خفى ، فقالت له امرأته أن أمها مريضة، وقد ذهبت إليها وربما سوف تمكث عندها مايقرب الأسبوع.

وشعر بالفراغ القاتل، وأصبح كالتائه يدور فى البيت وهو يتذكر غنجها ودلالها وجسمها الأبيض اللدن.

وفى اليوم الثالث، سأل عن منزل أهلها وذهب إليهم فى ضواحى المدينة.

واستقبلته الأم فرحة وهى تقدم له القهوة.

وأراد أن يسألها ولكنها سبقته وسألته عن فوزية وقالت أنها اشتقات إليها كثيرا لأنها لم تشاهدها منذ شهور.

وامتقع لونه وهو يسأل نفسه..

وعاد إلى البيت فى المساء يتساءل .. ترى أين هى هذه الساقطة اللعينة. وشعر بالغيرة المرة القاتلة.

وراح يفكر فى سامى .. وبالنظرات الملتهبة المتبادلة بين سامى وفوزية.

وأخذ يتجسس عليه، وتبعه مدة.. وفى الختام عرف كل شىء.

وبعد ساعات كان يدق بيت صديقه سامى، وكان سامى متغيباً فى عمله وكذلك صديقه.

وفتحت له الباب وهى عارية من كل شىء .. وابتسمت عندما رأته، وقالت: لقد عرفت أخيراً.. لقد كنت أنتظرك.. ادخل، انني وحيدة.

وراحت تقص عليه أخبار الليالى الحمراء بين الصديقين، فانقض عليها كالذئب وراح يضربها على جميع أجزاء جسدها الأبيض.

واحتضنها فى آخر الأمر وهو يقول :

- هذه هى المرة الأخيرة ايتها الساقطة، وسوف أطردك شرد طردة.

- لن تتمكن من ذلك. ان الست تحبنى كثيراً. أن بينى وبينها علاقة قوية.

ثم أخذت تحكى له كيف تنام مع سيدتها فى السرير الكبير، وعلم أنها كاذبة تختلق هذه الحوادث.

وعاد إلى البيت فى المساء، واختلى بامرأته، وقال لها : يجب طرد هذه الخادمة السافلة.

- لقد قلت لك كلا وكلا.. والآن أيضاً كلا..

- تعالى معى إذا .. وأخذها بيدها، وقص عليها كل شىء : الليالى الحمراء. وخيانته فى بيت الزوجية، وأخبار سامى مع فوزية، وراح يطلب منها الصفح والغفران ويذكرها بأنه قد طلب منها كثيراً أن تطردها ولكنها رفضت دائما.

واستغربت الزوجة كل هذه الأخبار، ولم تصدق أذنيها.. ولكنها ضحكت طويلا عندما قال لها عن العلاقة الموهومة بينها وبين فوزية، وقالت انها فعلا وقحة.

وعادت فوزية إلى المنزل، وقالت لها سيدتها عندما رأتها : اخلعى ثيابك يا فوزية وتعالى إلى سريرى.

ونظرت إليها فوزية وهى لا تصدق .. ورأت السخرية فى عينها، ففهمت كل شىء.

وغادرت هذا المنزل وهى تتأسف على الأيام الجميلة التى امضتها فيه.

وقالت الزوجة فى المساء لزوجها وهو يشاهد الخادمة الجديدة والتى كانت فى غاية الدمامة:

– على كل حال .. فأنا لم أفهم ماذا وجدتم جميعا فى فوزية أنها أقل من عادية..

ولكن هيهات أن تفهم النساءُ عقل الرجال وأذواقهم.

مبعث الشهوة (١)

الشهوة شىء من طبيعة الإنسان.. ميز بها .. منحها الله إياها لتسير مركبة حياته .. إلى جانب منحه له العقل ونور المعرفة.. ومنع عن الحيوان العقل .. وأعطاه الشهوة.. ومنع الشهوة عن الملائكة.

والمطلوب من بنى البشر أن ينظموا شهواتهم بحيث لا تطغى على أخلاقهم فيقعوا فى المحذور.. وتنظيم الشهوة أى وضعها فى مكانها المناسب .. ولمعرفة ذلك لابد من معرفة العوامل التى تساعد على تهييج الشهوة. فتطغى حينئذ على خلقه.

جعل الله سبحانه للإنسان قلبا .. وإنما سمى قلبا لأنه يتقلب بتقليب الله عز وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، يقلبه بمشيئاته فيه، وسمى فؤاداً لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة ، ومنه يقال : هذا خبر فئيد .. وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وباباً فى الصدر .. وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً، وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذى طحنته المعدة .. حتى صار دماً طريا، فجرى فى جميع العروق، وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالا، وإلى

---

(١) الشهوة – إبراهيم الجمل – دار البشير .

جانب الأخرى سماها رئة.. ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التى فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين، ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقا، فيه ريح هفافة تجرى فى العروق مجرى الدم ، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، فتسود كما أسودت جهنم، بل هى نار مضيئة حفت النار بها، موضوع فى هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة.

ويتكلم الحكيم الترمذى عن أصل الشهوة ومبعثها فيقول في [أسرار مجاهدة النفس] : وأنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها يقال : اهتشت واشتهت، الاهتشاش فى الظهر، والاشتهاء فى الباطن، وكلهما فى الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وأخر هناك ليكون فرقا بين النوعين.

فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شىء أحست النفس بذلك، فالتهبت بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها فى الرئة، ثم هى متفشية فى جميع الجسد، والروح مسكنه فى الرأس إلي أصل الأذنين، ومعقلها فى الوتين، وهى متفشية فى جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان فى جميع الجسد لحياتيهما، حتى تتحرك الجوارح فى جميع الجسد فى الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية، وفيها روح الحياة.

ووضع الرحمة فى الكبد، والرأفة فى الطحال، والمكر فى الكليتين، وعلم الأشياء فى الصدر، وجعل مستقر الذهن فى الصدر، ثم هو متفش فى البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفظ، وجعل فى ناصيته الفهم، وجعل له طريقا إلى عين الفؤاد ، فالحفظ مستودع العلم، فإذا احتاج الفؤاد إلى شىء ولحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشىء المستودع الذى قد تعلمه.

وجعل ماء الذرية فى صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور، فعرضهم على آدم عليه السلام، ومنه ما لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه.

ووضع الفرح فى قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأذى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء، يتدفق به، وإنما صار دفقا لقوة الفرح به، وهبوب رياحها، وضيق المخرج.. فإذا افتقر الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين.

ثم خص المؤمنين بنور العقل مسكنه فى الدماغ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عينى الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح، ووضع نور التوحيد فى باطن هذه البضعة، وهى القلب، وفيه نور الحياة فحيى القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عينى الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب، فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التى فيها نور التوحيد، فوحد الله عز وجل «فيصيرها شعباً شعباً، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل فى الصدر».

الفرق بين الشهوة والهوى :

الهوى : تعلق النفوس بالشهوات .. وميلها إلى الراحات .. فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف، فيستولى عليها الهوى.

فيمكننا أن نقول إذن : أن الشهوة حال من أحوال النفس .. والهوى مقام من مقاماتها المرذولة، فالشهوة عارضة، فإذا استمكن صارت هوى، والهوى ملكة ثابتة، وسلوك راسخ يجمع شهوة أو شهوات كثيرة يصعب الإقلاع عنها، بعكس الشهوة العارضة.

أصل الهوى :

يتحدث الترمذى الحكيم عن أصل الهوى فيقول : «الهوى أصله من نار النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك المحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس.

فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها فى ذلك الوعاء، وهى ريح حارة، فد بت فى العروق، فامتلأت العروق منها فى أسرع من الطرفة، والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم. فإذا دبت فى العروق، ولذت النفس دبيبها وانفشاشها فى الجسد .. وامتلأت النفس لذة، وهشت إلى ذلك الشىء، فتلك شهوتها ولذتها، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا أغلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوماً، وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه، فتستعمله بذلك. فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها فى البطن».

والمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة، وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد ابليس، فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل التوحيد الذى فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة،

والنفس بما أوردت قاهرة للقلب، لأن العقل قد غاب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن فى الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها . بما وجدت من القوة فى تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجى ويمنى المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلبا ويشجعه.

ولذا أمر العبد بالمجاهدة .. والنظر إلى حال نفسه .. والبحث عن عيوبه.. ومحاولة التخلص منها .. وكبح هوى النفس.

آفات الشبع :

– قال ﷺ : «المؤمن يأكل فى معى واحد، والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء».

أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته، وذكر المعى كناية عن الشهوة، لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعى، وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن.

– وعن ابن عمر قال : تجشأ رجل فى مجلس رسول الله ﷺ ، فقال له : «اقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً فى الدنيا».

– وقال عمر رضى الله عنه : اياكم والبطنة فإنها ثقل فى الحياة فتن فى الممات.

وقال لقمان لابنه : «يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

– وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه «أى شىء تخافين أن تجوعى لا تخافى ذلك أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه وكان كهمس يقول : الهى اجعتنى وأعريتنى وفى ظلم الليالى بل مصباح أجلستنى فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى؟

– وكان عبد الله القشيرى يطوى نيفاً وعشرين يوما لا يأكل، وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافى

القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبى ﷺ فى أكله..
وقال: «لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا» وقال «لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل، وقال : « وضعت الحكمة والعلم فى الجوع .. ووضعت المعصية والجهل فى الشبع .. وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال وقد جاء فى الحديث «ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته» وسئل عن الزيادة فقال : « لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلهما ليلتين فإذا كان ذلك وجد الزيادة.

وسئل حكيم : بأى شىء أقيد نفسى قال : قيدها بالجوع والعطش وذللها باخمال الذكر، وترك العزة وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكرها بترك زى القراء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوان سوء الظن بها وأصحبها بخلاف هواها.

وفى الأثر « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر فى ذلك».

وقد عد العلماء عشر فوائد للجوع :

الفائدة الأولى :

صفاء القلب وايقاد القريحة، وانفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار وعن سرعة الإدراك بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والإدراك.

وقال الشبلى : ما جعت يوما إلا رأيت فى قلبى باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل

إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبأحرى أن تكون ملازمة الجوع، قرعاً لباب الجنة.. ولهذا قال لقمان لابنه : يا بنى إذا متلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة .. وقال أبو يزيد البسطامى «الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة» .

الفائدة الثانية :

رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأت لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كان بينه وبينه حجاب من قسوة القلب وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة حتى كان بينه وبينه حجابا من قسوة القلب ، وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

الفائدة الثالثة :

الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء فى أن يكون دائما مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز وموالاة العز والقدرة والقهر فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهدا للإضطرار بالذوق ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزانتها على النبى ﷺ قال : «لا بل أجوع يوما وأشبع يوماً فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت».

والبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذل والإنسكار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع.. ومن أغلق باباً من أبواب النار .. فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب .. فالقرب من أحدهما بعد عن الآخر.

الفائدة الرابعة :

أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع.. والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل النار حتى أنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل فلا ينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه هو الذى يهيج الخوف فمن لم يكن فى ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسى عذاب الآخرة ولم يتمثل فى نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة.. وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل، ولذلك قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وفى يدك خزائن الأرض فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشبعان فى غفلة عن ألم الجائع.

الفائدة الخامسة :

وهى من أكبر الفوائد : كسر شهوات المعاصى كلها والإستيلاء على النفس الأمارة بالسوء فإن منشأ المعاصى كلها بالشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقبلها بضعف كل شهوة وقوة وإنما السعادة كلها

فى أن يملك الرجل نفسه والشقاوة فى أن تملكه نفسه وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت .. فكذلك النفس كما قيل لبعض ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهمد فقال لأنه سريع المرح فاحش الأشر، فأخاف أن يجمح بى فيورطنى فلان أحمله علي الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش.

قال ذو النون : « ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية ».

وقالت عائشة رضى الله عنها : « أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع» . أن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليسة فائدة واحدة بل هى خزائن الفوائد ولذلك قيل « الجوع خزائن من خزائن الله تعالى » وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام. فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فتتفكه لا محالة بأعراض الناس ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائدألسنتهم.

وأما شهوة الفرج :

فلا تخفى غائلتها والجوع يكفى شرها؟ وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه .. فالعين تزنى كما أن الفرج يزنى .. فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة وما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك فى أثناء الصلاة وأنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا .. وإلا فجميع معاصى الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع.

قال حكيم : « كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط شيئا من الشهوات ويأكل فى نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء ».

الفائدة السادسة :

دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب شربا كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاشر المريدين : لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيراً وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفى النوم فواتها ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة، ثم المتغرب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ويحوجه إلى الغسل.

الفائدة السابعة :

تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما يحتاج إلي زمان فى شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج إلى غسل اليد.. ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه، والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى المناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

الفائدة الثامنة :

يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة والعروق ثم المرض يمنع من العبادات ويؤمن القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الدواء والطبيب وكل

ذلك، يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصى واقتحام الشهوات وفى الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندى ورومى وعراقى وسوادى وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه .. فقال الهندى : الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الأهليج الأسود، وقال العراقى هو حب الرشاد الأبيض ، وقال الرومى هو عندى الماء الحار، وقال السوادى وكان أعلمهم : الأهليج يعفص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء قالوا فما عندك ، فقال الدواء الذى لا داء معه عندى أن لا تاكل الطعام حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه فقالوا : صدقت.

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى ﷺ : «ثلث للشراب وثلث للنفس» فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هذا وأنه لكلام حكيم.

الفائدة التاسعة :

خفة المؤنة فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير والذى تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له آخذاً بمخنقه فى كل يوم فيقول ماذا ناكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل .. والمؤمن خفيف المؤنة.

قال بعض الحكماء : أنى لأخفى عامة حوائجى بالترك فيكون ذلك أروح لقلبى.

وقال آخر : إذا أردت أن استقرض من غيرى لشهوة أو زيادة استقرضت

من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم [1] لى .

وبالجملة : سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن، ومن تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهى أبواب النار، وفى حسمها فتح أبواب الجنة.

فمن قنع برغيف فى كل يوم قنع فى سائر الشهوات أيضا وصار حراً، واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجار الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما تلهيهم لاشتغالهم عنها بالقيامة وأما المحتاج فتلهيه لا محالة.

الفائدة العاشرة :

أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته .. كما ورد فى الخبر فما يأكله كان خزائنه الكنيف وما يتصدق به كان خزائنه فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

وكان الحسن رحمه الله إذا تلا قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب].

قال عرضها على السموات السبع الطباق، والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها

---

(١) الغريم : الدائن .

قالت وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة، فقالت لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها أنه كان ظلوماً لنفسه جهولا بأمر ربه فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلاما فماذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء من الله عافية.

يقول أحدهم : تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال : يا غلام ائتنى بشىء أهضم به طعامى يالكع اطعامك تهضم وإنما دينك تهضم .. أين الفقراء .. أين الأرملة.. أين المسكين أين اليتيم الذين أمرك الله تعالى بهم.

فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه.

ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال : «لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك» . لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك.

فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها .. فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة .. ولأجل هذا قال بعض السلف :

«الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا؟ وباب الرغبة ».

والعجيب : أن العلم الحديث أثبت خطر كثرة الطعام على بدن الإنسان بغض النظر عن تأثيره البالغ على أخلاقياته والتزامه العام.

وأكثر الأكولين .. متخلفى العقل .. ناقصى المنطق .. بلهاء الطبع .. لا يعبأون بالصحيح مع علمهم بمكانته.

ومكانة الإنسان .. وعلو قدره .. تقضى أن يترفع عما يضر بصحته.. لا يؤثر على سلوكه .. فالنهم والشبع من شيم الحيوان .. وفى تقليل الطعام صفاء للنفس.. وارتياح للروح .. لذا فإنه عندما تملىء المعدة تنام الفكرة وتخرس الحكمة .. وتعقد الأعضاء عن العبادة.

مسألة :

تقليل الطعام له آفات جانبية تفوق أحيانا آفة كثرة الطعام .. فلماذا أمر المسلمون بها ..؟

الإجابة : تتخلص فى أن المؤمن الصادق .. ينظر إلى نفسه من حين لآخر .. يبحث عن آفاته وآلامه.. فإذا وجد هذه الآفة وضعها نصب عينه ولم يتركها هكذا.. وقد قال العلماء كثيراً فى هذه المسألة وبينوا الآفات الناتجة عن تقليل الطعام وهما أعظم من أكل الشهوات.

إحداهما :

أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفى الشهوة ويأكل فى الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الخفى بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال .. وهو يدل عن فوات المجاهدات بالأعمال فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء كذبان

فيكون مستحقا لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر المنافقين .

فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) ﴾ [النساء].

لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر فكان ستره لكفره آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهرة والعارفون يدخلون بالشهوات بل بالمعاصى ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة اسقاطا لمنزلته من قلوب الخلق.

فنهاية الزهد «الزهد فى الزهد باظهار ضده .. وهذا عمل الصديقين فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين وهذا قد حمل على النفسين ثقلين وجرعها كأس الصبر مرتين، مرة بشربه ومرة برميه فلا جرم أولئك يوفون أجرهم مرتين بما صبروا وهذا يضاهى طريقة من يعطى جهرا فيأخذ ويرد سراً ليكسر نفسه بالذب جهراً وبالفقر سراً فمن فاته هذا فلا ينبغى أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه.. ولا ينبغى أن يضره قول الشيطان أنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحا لغيرك فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان اصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه فى معرض اصلاح غيره فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وإن علم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به فى الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك الشهوات.

الآفة الثانية :

أن لا يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف

عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة وهى شهوة الأكل وأضاع شهوة وهى شر منها وهى شهوة الجاه وتلك هى الشهوة الخفية .. فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى به.

قال أبو جعفر الصادق : «إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسى فإن هى أظهرت شهوتها أضعتها منها، وكان ذلك أفضل من منعها وأن أخفت شهوتها وأظهرت العزوف عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئا. وهذا طريق فى عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية.

وبالجملة من ترك شهوة الطعام .. ووقع فى شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية لأن شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام».

شهوة الفرج (١)

شهوة الفرج :

جعل الله هذه الشهوة للإنسان لحفظ النوع البشرى .. ولإعطائه متعة ككثير من اللذات التى أعطاها إياه.

ولكن يطمع الإنسان فى المزيد .. أحيانا .. أو لا يستطيع الزواج .. فيطلق عنان شهوته فتضيع فيما حرمه الله.

إلا أن الدافع الحقيقى - فى رأى - نزعته الشريرة .. فإن نفسه بذاتها بدون هذه النزعة تميل إلى الشهوة الحلال .. وتبغض الحرام .. ولكن هذه النزعة.. تتطلع إلى الحرام .. حتى ولو كان متزوجا.

ووجود الشر عند الإنسان طبيعة من طبيعته .. وسمة من صفاته لأنه

---

(١) الشهوة - إبراهيم الجمل - دار البشير .

مخلوق لا يخلو من النقص الذى تنزه عند الخالق جل شانه.

فوجود الشر فى العالم عامة لا يناقض صفة الكمال الإلهى، ولا صفة القدرة الإلهية، بل هو ولا ريب أقربُ إلى التصور من تلك الفروض التى يتخيلها المنكرون والمرددون ولا يذهبون معها خطوة فى طريق الفهم وراء الخيال العقيم.

وقد يختلف مدلول القدرة الإلهية ومدلول النعمة الإلهية بعض الاختلاف فى هذا الاعتبار، فمدلول القدرة الإلهية يستلزم خلق هذا العالم الموجود، ولكن مدلول النعمة الإلهية يسمح لبعض المتشائمين أن يحسبوا أن ترك المخلوقات فى ساحة العدم أرحم بها من إخراجها إلى ساحة الوجود.

وليس الشر إذن مشكلة كونية ومشكلة عقلية إذا أردنا بالمشكلة أنها شىء متناقض محض على الفهم والإدراك، ولكنه فى حقيقته مشكلة الهوى الإنسانى الذى يرفض الألم ويتمنى أن يكون شعوره غالبٌ على طبائع الأمور.

وإذا كانت فى هذا الوجود حكمته التى تطابق معه كل حالة من حالاته فلابد من حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور، ولا نعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك الشعور غير الدين.

ولذا فإن على العاقل .. أن يضع نصب عينيه طلبات هواه ونفسه .. وتطلعات شهوته ورغبته .. وأن يضع المنهج – منهج الدين – أمامه.. فلا يحيد عليه.. وبهذا ينجو من غضب الله.

وقد سلطت هذه الشهوة على الإنسان لفائدتين :

إحداها :

أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة، فإن هذه اللذة لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق

الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة، فإن مالا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق.

الفائدة الثانية :

بقاء النسل ودوام الوجود .. فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال .. وقد تميل في تأويل قوله تعالى :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [سورة البقرة] معناه شدة الظلمة.

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال هو قيام الذكر.

- روى أن موسى عليه السلام كان جالسا في بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس فيه ألوان فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى : من أنت فقال : أنا إبليس فقال لا حياك الله ماجاء بك قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه قال فما الذى رأيت عليك قال : برنس اختطف به قلوب بنى آدم قال فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه، وأحذرك ثلاثا لا تخل بامرأة لا تحل لك ، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها وأفتنها به .. ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها

إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها، ثم ولى وهو يقول : يا ويلتاه علم موسى ما يحذر به بنى آدم» .

وعن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندى منهن وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى اغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح .

وقال بعضهم : « أن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطىء وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى».

فنصف جنده : الشهوة، ونصف جنده الغضب.

وأعظم الشهوات شهوة النساء : وهذه الشهوة أيضا لها افراط وتفريط واعتدال، فالإفراص ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلي الاستمتاع بالنساء والجوارى فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلي اقتحام الفواحش وقد ينتهى إفراطها بصانعه إلى أمرين شنيعين :

أحدهما :

أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الواقع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام .. وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال لاثارتها وتهيجها ثم يشتغل باصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص.

الأمر الثانى :

أن تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له من الجماع وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس

يقنع باراقة شهوة الجماع هى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحيا منه حتى أعتقد أن الشهوة لا تنقضى الا من محل واحد والبهيمية تقضى الشهوة كيفما اتفق متكفى به وهذا لا يكتفى الا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا إلى ذل وعبودية إلى عبودية وحتى يسخر العقل لخدمة الشهوة.

وقد خلق ليكون مطاعا لا ليكون خادماً للشهوة ومحتالا لأجلها وما العشق الا سعة افراط الشهوة وهو مرض فارغ لا هم له وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر وإلا فإذا استحكم عسر دفعه فكذلك تشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنقص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها البتة.

ومثال من يكثر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله وما أهون منها يصرف عنها، ومثال من يعالجها بعد استحقاقها مثال عند توجهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها وما أعظم التفاوت بين الأمرين فى اليسر والعسر فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور.. فأما فى أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدى إلى نزع الروح.

افراط الشهوة:

فإذن افراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جدا وتفريطها بالعنة أو بالضعف عن امتناع المنكوحة وهو أيضا مذموم، وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومضيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح.

قال صلى الله عليه وسلم : « معاشر الشباب عليك بالباءة .. فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

سمة مميزة :

لهذه الشهوة دون غيرها من الشهوات سمة مميزة .. ذلك أنها إن دامت تحول صاحبها إلى الإدمان .. والرغبة المستمرة الدائمة إلى الجماع دون أن يحسن بلذة الجماع. كذلك كثرة التفكر فيها وطول النظر .. وكذلك كثرة النظر إلى النساء .. كل هذا ينتج عن عواقب وخيمة فى إمكان الإنسان أن يتفاداها لو أنه حكم عقله وتحكم فى نفسه .. لذا دعا الإسلام إلى الوسط فى كل شيء.. ونهى العلماء عن مداومة الجماع حتى لا يقسو القلب.

ولقد عد عالم جليل مما يقسى القلب ويميته فقال :

يميت الفؤاد الحى دائم خلطه لأنثى

وعصيان وحمقى ومترف

فذكر مخالفة الأنثى فى البداية.

ولذا .. فإن هناك إنحرافات جنسية قد تحدث للإنسان.

حالات من الإنحرافات الجنسية

الحب الشاذ للنفس وأهم أشكاله :

لو نظرنا إلى هذا الشذوذ فى حب النفس من وجهة نظر النمو نجد أنه يعتبر تمسكا بمرحلة الطفولة الأولى لأن صاحب الحالة لم يستطع بعد أن يتخلص من إشباع ملذاته الشخصية.

وأهم أشكاله :

أولا : الإنغماس فى الإشباع العضوى للفرد :

يرجع لحساسية فى المنطقة العمية وفى هذه الحالة تكون استثارة هذه المنطقة مصدر لذة رئيسية للفرد.

ويأخذ هذا اللون من الشذوذ الجنسى أشكالا مختلفة منها :

مص الإبهام ، قضم الأظافر، مضغ اللبان أو الدخان، شرب السجائر، مصمصة الشفاة بشكل ملحوظ.

هذا فيما إذا حددت منطقة معينة للذة.

أما إذا لم تحدد فإن هؤلاء المرضى بهذا الإنحراف يهتمون بنوع من الراحة الجسمية فيه يخلو المريض لينغمس فى ملذاته الحسية فيطيل مثلا وقت الاستحمام ويستلذ بالنوم طويلا .. الخ.

ثانيا : التلذذ الذاتى :

ويظهر عندما يأخذ انغماس الفرد فى مشاعره الفردية شكلا جنسيا أكثر وضوحا منه فى المظهر السابق، وهو دور يؤدى غالباً إلى العادة السرية التى يلجأ إليها بعض الأفراد فى فترة من حياتهم.

التمسك بمظاهر حب الطفولة :

الطفل يحب أول ما يحب أفراداً من أسرته، واستمرار هذه الصلة أمر طبيعى إذا اتسعت هذه العلاقة لأن يضيف إليها أنواعا أخرى من الحب فيما بعد.

لذا لا يصح الاتصال الشاذ بين الطفل وأمه أو ما يعرف باسم عقدة (أوديب) أمراً خطيراً إلا إذا كان من القوة بحيث يقف حائلا دون تكوين عواطف حب أخرى.

وقد حاول بعض الكتاب إرجاع تكون هذه العقدة لنفس الأطفال ولكن الغالب أن الخطأ يوجد عند الأب أو الأم لزيادتهما هذه الصلة وتشجيعها وتقويتها.

ولعل الحب المتبادل بين الآباء وأبناء حينما يأخذ مظاهر معينة يكون هو السر فى خلق مشكلة الحموات وفى هذا المجال مرت على كاتب الحالة الآتية :

حالة : سيدة حضرت للعيادة النفسية تطلب أى إجراء تقوم به لتحظى بحب ابنها لها. وعرضت المشكلة على بساط البحث فظهر أن تلك السيدة لم تسعد فى حياتها الزوجية أكثر من أنها ركزت سعادتها حول الثروة الوحيدة لزواجها وهى ابنها.. ولشعورها بالخوف من أن يقاسمها تلك السعادة إنسان آخر كانت تسعى فى منعه من الزواج ولكنه استطاع أن ينفصل عنها لدرجة أنه تزوج.

وفى أيام الخطوبة حاولت جاهدة فسخها، وقد علمت العروس بذلك فبدأت بذور الكراهية تنمو لديها لأم زوجها. وفي أول الأمر كان الزوج يميل لمناصرة أمه. ولكنه استوضح الموقف على حقيقته وأراد أن ينفصل بزوجته عن أمه وينفرد بالسكن وحده فثارت ثائرتها، وبذلك أصبح الابن الضحية البريئة لسلوك الأم التى كانت تغذى وتقوى وبذلك وتقوى هذه العلاقة بينهما.

العكس الجنسى :

العكس الجنسى أو القلب الجنسى هو حالات يأخذ الفرد فيها بمميزات

الجنس الآخر ففى بعض الأحيان قد يكون عند الشخص بعض المميزات العضوية الجسمانية المعروفة عند الجنس الآخر وهذه حالة تعرف باسم «الحنونة» ويترتب عليها متاعب وصعوبات عقلية ونفسية.

فقد يكون الرجل مثلا ناعم البشرة شديد بياض الجسم كبير الردفين، حلو التقاطيع، صغير اليدين، ضيق الكتفين، ناعم الصوت ، فينتشر الشعر على جسمه بخفة وعظامه صغير رفيعة.

وقد تبدو الأنثى فى شكل مذكر مفتولة العضلات، خشنة الصوت، كثيرة شعر الوجه، وقد لا تكون مظاهر العكس الجنسى واضحة بهذا الشكل ولكنها على العموم ترجع لعدم انتظام الأجهزة الفردية وتكون ذات مغزى من الناحية النفسية لما تسببه من متاعب عقلية.

وقد يوجد عند الفرد تذوق وميل لمظاهر الجنس الآخر، فالولد يحب حياكة الملابس، ويعنى بالمنزل كما يستعمل العطور وأدوات التجميل، والبنت تلبس ملابس الرجال وتشتغل بنشاط مخصص للذكور.

وهذا الميل كثيرا ما يسايره ميل آخر للحصول على الحب من الأفراد من نفس الجنس ومبادلته إياهم.

الجنسية المثلية :

هو حب الاتصال بشخص من نفس الجنس، وقد يكون هذا الحب متبادلا، وقد يمارسه طرف واحد كما يقوم على الإهتمام بشخصية الفرد الآخر أو عمله، وقد يصحب هذا نوع من الغزل الأولى.

وقد تأخذ العلاقة شكل سلوك جنسى مكشوف علنى (أى مباشر وقد تحدث حالات الإعتداء الجنسى المثلى بين المعزولين عزلا تاماً بين الجنسين

الآخرين. ومع أن الجنسية المثلية ليست منتشرة بين الرجال بشكل واضح إلا أنها ملحوظة.

والطريقة الوحيدة لمعاونة الصغار على الخروج من هذه الفترة لا تكون إلا بالتوجيه الصحيح نحو الجنس الآخر، والعلاقة الجنسية عامة والتشجيع على الإهتمام والميل نحو أفراد معينين من الجنس الآخر إهتماما وميلا صحيحين.

حب الاستطلاع :

حب الاستطلاع غير المشبع المتعلق بالمسائل، يؤدى إلي نوع من حب الاستطلاع الشاذ، ومنها خلق ما يعرف بالمتجسسين، أو الناظرين من فتحات الأبواب. وإذا لم يكن هذا النوع من الاستطلاع موجها، فإنه يؤدى إلى أنواع مختلفة من المخاطرات الاستطلاعية، ويمكن أن نقول أنه حتى الكبار يكونون فى بعض الأحيان فريسة لهذا النوع من الميل ويتعرضون لطائلة القانون نتيجة لذلك.

والتعبير عن هذا الميل بشكل غير مباشر، وبطريقة تتمشى مع التوافق الاجتماعى يأتى بتوجيه الفرد نحو البحوث العلمية وغيرها من الميادين التى يشبع فيها حبه إلى الاستطلاع بطريقة ملائمة اجتماعية وفيما عدا ذلك يصبح حب الاستطلاع وسيلة منحرفة شاذة للتعبير الجنسى.

الربط الشاذ بين الجنس والألم :

قد تصبح دفعات الحب عند شخص ما مرتبط بالألم بطريقة ليست معروفة من قبل وهذا الربط يأخذ واحداً من الأشكال الآتية :

السادية : Sadism

مظهر من مظاهر الإنحراف لا يستطيع الفرد فيه أن يشبع رغبته

الجنسية إلا إذا سبب الألم للآخرين، وقد يكون الألم عضويا وقد يكون نفسياً، أو معنوياً، وربما يصل الأمر به إلى درجة يحرج فيها المريض بالسأدية الجنس الآخر، وقد يقتله، وهذا ظاهر فى الحالات البالغة الشديدة.

أما فى الحالات المرضية البسيطة فلا يخرج الأمر عن موقف يتم فيه الإشباع الجنسى بالحاق الجرح المادى أو الشخصى بالفريسة، وكثير من المرضى بهذا النوع من الشذوذ لا يندفعون فى حب الجنس الآخر إلا إذا سببوا له ما يجعله ينفجر بالبكاء.

: Masachism

وهو نوع من الإنحرافية يحقق الفرد إشباعه الجنسى ولكن بالتألم على يد شخص آخر وعكس الحالة فى السادية، والمنحرف من هذا النوع لا يحب إلا إذا قاسى كثيراً.

خلاصة :

هذا الملخص من الإنحرافات الجنسية يدل على الخطر المحدق وبأهم أنواع الوجدانيات الإنسانية وهى المحور الذى تدور حوله، جميع مظاهر النشاط البشرى.

ومادام الأمر متعلقا بالحب، وهو من أهم مظاهر الحياة، فلابد للباحثين من الاهتمام بالتوجيه الصحيح للنشىء، لتفهم هذه الأمور بدلا من تجاهلها أو كبتها، وبذلك نرتفع بمحور حياتنا البشرية وهو الوجدان.

ولهذا دعا الإسلام إلي الزواج المبكر كما سبق لأنه أحكام النفس.. وكبح للشهوة وتوجيه صحيح لقضائها.

كما دعا إلى التوسط فيها وتنظيمها لكى لا تأخذ أكبر من حجمها فيحجب صاحبها عن الأعمال المفيدة .. وتضر بحياته وحياة من حوله .. وتوقعه فى المهالك.

قبل إبتداء الزواج :

فإذا لم يستطع الشاب الزواج .. ماذا يفعل ؟

يجيبك الغزالى فيقول : « اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين».

ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا .. وقال ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأولى وقيل له مرة ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها فقال لا آنسنى الله بها أى أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى.

فشرط المريد الغربة فى الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليسكنها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك.

فكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا، وإن قدر على حفظ الفرج.. فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه .. وربما وقع فى بلية لا يطيقها.. وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدى على القرب إلى الكبيرة الفاحشة .. وهو زنا الفرج .. ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه.

قال عيسى عليه السلام « إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة».

وبالنسبة للمرأة : فقد قالت أم سلمة «استأذن ابن أم كلثوم الأعمى على رسول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان فقال عليه السلام : احتجبا فقلنا أو ليس بأعمى لا يبصرنا فقال : وانتما لا تبصرانه».

وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى .. وتحديق النظر إليه بغير حاجة، وإنما جوزوا للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة.. وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان .. فالنكاح أولى به.. فإن الشر فى الصبيان أكثر فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلي استباحتها فالنكاح والنظر إلي وجه الصبى بالشهوة حرام بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد وبحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر إليه.

فإن قلت كل ذى حسن يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة.

فالإجابة : أننا لسنا نعنى تفرقة العين فقط.. بل ينبغى أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة، وبين ماء صاف، وماء كدر، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا من الشهوة ولأجل ذلك لا يشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ولا تقبيل الماء الصافى.

وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها .. وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها، ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة

فمهما وجد ذلك الميل فى قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل، وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة نظر شهوة فهو حرام وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك إلى المعاطب ولا يشعرون.

موقف الإسلام من الحب والجنس

الحديث والآثــار(١)

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : عن ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قوله تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]

قال : هداه لمنكحه، ومطعمه ، ومشربه، ومسكنه.

وقال : عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه] قال : الجماع.

والحديث : له طرق أخرى عن ابن عباس، وغيره.

وقال ابن المنذر فى تفسيره : عن سعيد بن جُبير، فى قوله تعالى ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]

قال : كيف يأتى الذكر الأنثى.

وقال ابن أبى حاتم :

عن ابن سابط قال : بهمت عليه البهائم فلم تبهم عن أربع : تعلم أن الله ربها، ويأتى الذكر الأنثى، وتهتدي لمعاشها، وتخاف الموت.

(١) الوشاح فى فوائد النكاح للسيوطى .

وقال ابن أبى حاتم : عن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ :[الروم] قال : الجماع.

و (ورحمة).

قال الولد . أخرجه ابن المنذر.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه، بسند ضعيف :

عن أنس، مرفوعا: «إن آدم عليه السلام لم يجامع امرأته، حتى أتاه جبريل، فأمره أن يأتى أهله، وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها، جاءه جبريل، فقال : كيف وجدت امرأتك؟ قال صالحة».

وأخرج ابن عدى فى الكامل ، وابن عساكر في تاريخه :

من طريق إبراهيم النخعى قال : لما خلق الله آدم وخلق له زوجه، بعث إليه ملكا، وأمره بالجماع ، ففعل، فلما فرغ، قالت له حواء يا آدم هذا طيب زدنا منه.

قال الغزالى فى الإحياء :

الفقهاء يقولون : من فوائد النكاح كثرة النسل، وحفظ الوجود، والإطلاع على بعض الملذات الأخروية.

قال : ولعمرى إن ما قالوا الصحيح، وإن فى هذه اللذة التى لا توازيها لذة، لو دامت فهى منبهة على اللذات المودعة في الجنان، إذ الترغيب فى لذة لا تعرف لا ينفع، فلو رغب العنين فى لذة الجماع، أو الصبى فى لذة الملك لم ينفع الترغيب فيه.

فإحدى فوائد هذه اللذة فى الدنيا، الرغبة فى دوامها فى الجنة، ليكون ذلك باعثا على عبادة الله تعالى .

قال : فانظر إلى حكمة الله ثم رحمته، كيف جُعلت تحت شهوة واحدة حياتين، حياة ظاهرة ، وحياة باطنة.

فالحياة الظاهرة : حياة المرء ببقاء نسله.

والحياة الباطنة : هى الحياة الأخروية، فإن هذه اللذة الناقضة بسرعة الانصرام، تحرك الرغبة الكاملة بلذة الدوام، فتحث على العبادة الموصلة إليها، انتهى.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه :

عن معاوية بن صالح، عن بعضهم ، رفع الحديث : «لعن الله والملائكة رجلا تحصر بعد يحيى بن زكريا».

وأخرج الطبرانى فى الأوسط، والإسماعيلى فى معجمه، وابن عساكر فى تاريخه :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « فضلت على الناس بأربع : بالسخاء ، والشجاعة، وكثرة الجماع ، وشدة البطش».

وأخرج البخارى فى صحيحه :

عن أنس قال : «كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة».

قلت لأنس : أو كان يطيقه ؟

قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين.

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف :

عن أنس قال : قال النبى ﷺ «أعطيت الكفيت، قيل : وما الكفيت، قال : قوة ثلاثين رجلا فى البضاع».

وأخرج ابن سعد فى الطبقات :

عن مجاهد وطاووس، قالا : « أعطى رسول الله ﷺ قوة أربعين رجلا فى الجماع».

وأخرج عبد الرزاق :

عن سعيد بن المسيب، قال : «أعطى النبى ﷺ قوة بضع خمسة وأربعين رجلا».

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف :

عن طاووس قال: «إن النبى ﷺ أعطى قوة خمسة وأربعين فى الجماع».

وأخرج الحارث بن أبى أسامه فى مسنده :

عن مجاهد، قال : أعطى رسول الله ﷺ قوة بضع[1] أربعين رجلا، كل رجل من أهل الجنة».

وأخرج ابن عدى :

عن أبن عباس ، قال : قال النبى ﷺ «أتانى جبريل بهريسة من الجنة فأكلتها، فأعطيت قوة أربعين رجلا فى الجماع».

---

(١) البضع : الجماع.

وقال ابن سعد :

عن صفوان بن سليم، قال : قال رسول الله ﷺ «أتانى جبريل بقدر فأكلت منها، فأعطيت قوة أربعين رجلا فى الجماع ».

والحديث : له طرق متعددة، وهذا الطريق ذكرناه على إرساله، ووصله ابن السنى فى الطب، من طريق صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة ، وفى بعض طرقه : « فما أريد أن آتى النساء ساعة إلا فعلت ».

قال القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين : قد آتى الله رسوله خصيصة عظمى ، وهى قلة الأكل، والقدرة على الجماع، فكان أقنع الناس فى الغذاء تقنعه العلقة، وتشبعه الجزة، وكان أقوى الناس على الوطء.

وأخرج ابن أبى حاتم :

عن مقاتل بن حبان قال : « أعطي رسول الله ﷺ بضع سبعين شابا، فحسدته اليهودية، فأنزل الله ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ .

وأخرج ابن جرير :

عن ابن عباس قال : كان في ظهر سليمان عليه السلام ماء مائة رجل، وكان له ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سرية.

وأخرج الشيخان :

عن ابى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال : « قال سليمان ابن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، وفى لفظ على مائة امرأة - فطاف عليهن».

وأخرج الحاكم فى المستدرك :

عن كعب قال : بلغنى أنه كان لسليمان ثلاثمائة امرأة ، وسبعمائة سرية.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه ، بلفظ : لأطوفن الليلة على ألف امرأة ، فطاف عليهن.

وأخرج أحمد فى الزهد والنسائى والحاكم وصححه والبيهقى :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما حبب إلىّ من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة ».

وأخرج أحمد فى الزهد :

عن معقل قال : « لم يكن شىء أعجب إلى رسول الله ﷺ من الخيل ، ثم قال : اللهم اغفر للنساء».

وأخرج ولده فى زوائده :

عن أنس قال : قال النبى ﷺ «جعلت قرة عينى في الصلاة ، وحبب إلى النساء والطيب، الجائع يشبع، والظمآن يروى ، وأنا لا أشبع من حب الصلاة والنساء».

وأخرج أبو القاسم السهمى فى فضائل العباس :

عن ابن عباس قال . أعطى الله بنى عبد المطلب سبعا : الصباحة، والفصاحة، والسماحة، والشجاعة ، والعلم ، والحلم، وحب النساء .

قال التيجانى :

قال محمد بن كثير، كان الأوزاعى يقول : ليس حب النساء مثل حب الدنيا

قال : ومراد الأوزاعي : ليس عن حب الدنيا المذموم.

أو يقال : إن الشيء قد يكون عن الدنيا، ويكون حبه عن الآخرة لإعانته عليها.

وقال : عن عمر : إنه ليس في النساء سرف، ولا في تركهن عبادة ولا زهد.

وقال القاضي عياض في الشفا :

النكاح ، متفق على التمدح بكثرته، والفخر بوفوره شرعا وعادة، فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية.

وأما في الشرع : فسنة مأثورة حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد.

قال سهل بن عبد الله : قد حببن إلى سيد المرسلين، فكيف تزهد فيهن.

وقد كان زُهاد الصحابة، كثيرى الزوجات والسرارى، كثيرى النكاح، وحكى في ذلك عن عليّ، والحسن ، وابن عمر، وغيرهم غير شيء، انتهى.

وقال الشيخ تقى الدين السبكى :

إنما حبب إليه ﷺ ، ليقلن بواطن الشريعة، وأخلاقه الباطنية، وأياته في حال خلوته، مما لا يشاهده غيرهن.

وأخرج أحمد والترمذى :

عن أبى أيوب قال : قال رسول الله ﷺ «أربع من سنن المرسلين : التعطر، والنكاح، والسواك ، والحياء».

قال الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول : عقب إيراده لهذا الحديث :

الأنبياء عليهم السلام زيدوا فى النكاح بفضل نبوتهم، وذلك أن النور إذا امتلأ الصدر منه، ففاض فى العروق والبدن والنفس والعروق فأثار الشهوة وقواها.

وروى عن سعيد بن المسيب :

إن النبيين عليهم الصلاة والسلام، يفضلون بكثرة الجماع على الناس، وذلك لما فيه من اللذة.

وقال ابن عمر :

ما أعطى أحد من الجماع بعد رسول الله ﷺ ما أعطيت.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«أعطيت قوة أربعين رجلا فى النكاح ، وأعطى المؤمن قوة عشرة ». فهو بالنبوة، والمؤمن بإيمانه ، والكافر له شهوة الطبيعة فقط.

وفى شرح البخارى لحافظ العصر، أبى الفضل ابن حجر :

قالوا : إن كل من كان أتقى لله كان أشد شهوة.

وقال ثعلب فى أماليه :

عن أبى زيد النحوى قال : سأل بلال بن أبى بردة، محمد ، قال : ما بال القراء أعلم الناس ؟

قال : لأنهم لا يزنون .

وأخرج الكتانى فى الجزء الرابع من فوائده :

عن جرير، قال : قيل لرقية بن مقلة : ما بال القراء أكثر شيء نهمة، وأكثر شيء غلمة ؟

قال : أما النهمة، فلأنهم يصومون، وأما الغلمة (شهوة)، فلأنهم لا يزنون.

وأخرج ابن عدى فى الكامل : .

عن ابن عمر، قال : إنى لأظن، قسم لى منه مالم يقسم لأحد، إلا النبى ﷺ يعنى الجماع.

وأخرج أحمد بسنده :

عن سلمة بن صخر الأنصارى رضوان الله عليه قال : كنت امرءا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى. فذكر قصة ظهار.

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف :

عن ابن سيرين : أن سعد بن مالك، طاف على تسع جوار له فى ليلة، ثم أقام العاشرة، فقامت ، فنام فاستحيت أن توقظه.

وقال الغزالى فى الإحياء : أنكر بعض الناس حال الصوفية.

فقال له بعض ذوى الدين : ما تنكره منهم ؟

قال : يأكلون كثيراً.

قال : وأنت أيضا إن جعت كما يجوعون ، لأكلت كما يأكلون.

قال : ينكحون كثيرا.

قال : وأنت أيضا لو حفظت عينك وفرجك ، كما يحفظون، لنكحت كما ينكحون.

وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت.

قال : فالزوجة على التحقيق : سبب لطهارة القلب، ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فتاقت نفسه إليها أن يجامع أهله، لأن ذلك يدفع ذلك الوسواس عن النفس، ولذلك يحكى، عن ابن عمر، وكان من زهاد الصحابة، وعلمائهم، أنه كان يفطر من الصوم على الجماع، قبل أن يأكل، وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يغتسل عن ذلك لتفريغ القلب لعبادة الله، وإخراج عدة الشيطان منه.

ولما كانت الشهوة أغلب على أمزجة العرب كان استكثار الصالحين منهم النكاح أشد، وقد نكح على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها بسبع ليال.

وكان الحسن رضى الله عنه ابنه منكاحا، حتى نكح زيادة على مائتى امرأة.

قلت : بل أكثر من سبعمائة امرأة.

قال الغزالى :

وقد قيل : إن كثرة نكاحه أشبه به خلق رسول الله ﷺ .

أخرج ابن عدى :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل إذا أتى أهله احتسابا لم يتفرقا حتى يغفر الله لهما».

وقال ابن الأثير فى كتاب الصحابة : عن طعمة بن أبيرق قال : كنت أمشى قُدام النبى ﷺ فسأله رجل، ما فضل من جامع أهله مُحتسباً ؟

قال : « غفر الله لهما البتة ».

وأخرج البيقهى فى سننه :

عن عمر بن الخطاب قال : والله إنى لأكره نفسى على الجماع، رجاء أن يخرج الله منى نسمة تسبح.

وأخرج ابن السنى وأبو نعيم ، كلاهما فى الطب النبوى، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أيعجز أحدكم أن يجامع أهله فى كل يوم جمعة، فإن له أجرين اثنين، أجر غسله، وأجر غسل امرأته ».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى ذر، قال : قلت يا رسول الله ذهب الأغنياء بالأجر.

قال ﷺ : «ألستم تصلون وتصومون وتجاهدون ؟».

قلت : بلى وهم يفعلون، كما نفعل، يصلون، ويصومون، ويجاهدون ويتصدقون، ولا نتصدق.

قال : «إن فيك صدقة كثيرة، وإن فضل بيانك عن الأثرم تعبر عنه حاجته، صدقة، وفى فضل بصرك على الضرير تهديه الطريق، صدقة، وفى فضل قوتك على الضعيف تعينه، صدقة، وفى إماطتك الأذى عن الطريق، صدقة، وفى مباضعتك أهلك، صدقة ».

قلت : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته، ويؤجر؟

قال : « أريأت لو جعلته فى غير حله كان عليك وزر؟».

قلت : نعم .

قال « أفتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لك فى جماع زوجك أجر».

قلت : كيف يكون لى أجر فى شهوتى ؟

قال : « أريات لو كان لك ولد، فأدرك، ورجوت خيره ثم مات، أكنت تحتسبه ؟».

قلت : نعم .

قال : « فأنت خلقته؟».

قلت : بل الله خلقه.

قال : « أنت هديته ؟».

قلت : بل الله هداه.

قال: « فأنت ترزقه ؟».

قلت : الله يرزقه.

قال : «فكذلك فضعة فى حلاله، وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء الله أماته، ولك أجر».

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن أنس قال : « كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالباءة ، وينهانا عن التبتل[1] نهيا شديدا ».

---

(١) التبتل : ترك الجماع .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير :

عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ رفضوا النساء واللحم.

فقال رسول الله ﷺ «ليس فى دينى ترك النساء واللحم، وأنزل الله ﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .. ﴾ .

وقال سعيد بن منصور :

إن أبا مسلم الخولانى كان يقول : تزوجوا فإن النعظ أمر عارم[1]، فأعدوا له عدة واعلموا أنه ليس لمنعظ ، أذن.

وأخرج ابن جرير فى تفسيره :

عن سلام بن سابور فى قوله تعالى: ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ .

قال : الغربة ، والغلمة.

وأخرج ابن عدى فى الكامل :

عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ .

قال : الغلمة.

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره :

عن مكحول ، فى قوله تعالى : ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾.

قال : الغربة ، والغلمة ، والإنعاظ.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى :

---

(١) أى أن الشهوة أمرها شديد .

عن شكل بن حميد أنه قال : يارسول الله ، علمنى تعوذا أتعوذ به.

فقال : قل : «الله إنى أعوذ بك من شر سمعى، ومن شر بصرى، ومن شر لسانى، ومن شر قلبى، ومن شر منيى».

وقال الغزالى فى الإحياء : فما يستعيذ منه رسول الله ﷺ كيف يجوز التساهل فيه لغيره.

قال : وكان بعض الصالحين يكثر النكاح، حتى لا يخلو من اثنتين، وثلاث، فأنكر عليه بعض الصوفية.

فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة،أو وقف بين يديه موقفا ، فى معاملة، فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟

فقال : يصيبنا من ذلك كثير.

فقال : لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد لما تزوجت.

وأخرج الطبرانى ، وابن عدى :

عن ابن عباس قال :ما احتلم نبى قط، وإنما الاحتلام نعت من الشيطان.

وأخرج ابن السنى وأبو نعيم كلاهما فى الطب :

عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : «عليكم بالأبكار، فإنهن أعذاب أفواها، وأنتق أوحاما، وأسخن أقبالا، وأرضى باليسير من العمل ».

قال عبد الملك بن حبيب : يعنى : عن الجماع.

وأخرج مسلم :

عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال : «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ».

وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقى فى سننه :

عن طاووس، بلغ به النبى ﷺ « لم ير للمتحابين مثل النكاح ».

قال البلقينى فى التدريب : النكاح مشروع، من عهد آدم، لم تنقطع شريعته، ومستمر فى الجنة، ولا نظير له فيما يتعبد به .

وأخرج ابن السنى ، وأبو نعيم فى الطب :

عن الهذيل بن الحكم : أن النبى ﷺ قال : «إن جز الشعر يزيد فى الجماع ».

وأخرج مسلم والحاكم :

عن أبى سعيد، قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أتى أحدكم أهله، وأراد أن يعود، فليتوضأ، فإنه أنشط فى العود».

وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم والترمذى :

عن جابر أن رسول الله ﷺ : «رأى امرأة فأعجبته، فأتى زينب، فقضى حاجته منها، ثم قال : إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه».

وأخرج أحمد وأبو نعيم فى الحلية :

عن أبى كبشة مولى رسول الله ﷺ قال : « بينما رسول الله ﷺ جالس إذ مرت به امرأة، فقام إلى أهله فخرج إلينا ورأسه تقطر ماء.

فقلنا : يارسول الله كأنه قد كان شىء .

قال : نعم مرت بى فلانة، فوقعت فى نفسى شهوة النساء فقمت إلى بعض أهلى فوضعت شهوتى فيها، وكذلك فافعلوا فإنه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال».

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن عبد الله بن مسعود ، قال : «خرج رسول الله ﷺ فلقى امرأة، فأعجبته فرجع إلى أم سلمة، وعندها نسوة يدفقن عجينا، فعرفن فى وجهه، فأدخلته، فقضى حاجته، فخرج ، فقال : من رأى منكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله فليواقعها، فإن معها مثل الذى معها».

وأخرج ابن أبى شيبة :

عن سالم بن أبى الجعد : « أن النبى ﷺ رأى امرأة ، فأتى أم سلمة، فواقعها، وقال : إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله، فإن معهن، مثل الذى معهن».

قال القاضى عياض فى الإكمال :

قوله : « إن المرأة تقبل وتدبر فى صورة شيطان»: إشارة إلى أنها تدعو إلى الهوى، والفتنة بجمالها، وما جعل الله فى طباع الرجل من الميل إليها، كما يدعو الشيطان بوسوسته، وإغوائه للناس.

وقوله : « فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله» تنبيه لدواء الداء المحرك للشهوة بإطفائه بالمواقعة، وتسكين النفس بإراقة ما تحرك من الماء.

قال : ولا تظن بمواقعة النبى ﷺ لزينب حين رأى المرأة، أنه وقع في نفسه شيء منها، بل هو ﷺ منزه عن الميل، ولكنه فعل ذلك ليقتدى به أمته في الفعل ويمتثلوا أمره بالقول.

قال : وقد يكون ﷺ عند رؤيته شخص ظاهر الحسن تذكرة من عنده، فذهب فقضى حاجته منها .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، فى تفاسيرهم :

عن طاووس فى قوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ .

قال : فى أمر النساء :

قلت : لأنه قد يذهب عقله عندهن.

وأخرج الترمذى وحسنه، والنسائى والبيهقى فى سننه : .

عن طلق بن على ، سمعت النبى ﷺ يقول : «إذا دعى الرجل امرأته لحاجته، فلتجبه، وإن كانت على التنور(١)».

وقال العلماء : علم ﷺ ، شدة حاجة الرجل إلى المرأة، وضرره بتخلفها عنه، فحثها على إجابته.

وأخرج البزار :

عن ابن عباس : أن امرأة قالت : يا رسول الله أخبرنى ما حق الزوج على الزوجة؟ قال : «فإن حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها ، وهى على ظهر بعير، لا تمنعه نفسها».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن ابن عمر، عن النبى ﷺ أن امرأة أتته، فقالت : ما حق الزوج على الزوجة؟ فقال : « لا تمنعه نفسها ، وإن كانت على ظهر قتب (٢)».

---

(١) التنور : الفرن الصغير. (٢) قتب : بعير.

وقال الحكيم الترمذى : معناه أن القوابل كانت تحمل المرأة عند ولادتها فى البوادى على القتب، حتى تتمكن من الولادة، فقال : لا تمنعه نفسها وإن كانت على قتب، أى فى حال ولادتها.

وأخرج ابن أبى شيبة :

عن عمير عن خلف الأنصارى، عن أمه، قالت : بعث النبى ﷺ عليا أيام التشريق ينادى : « إنها أيام أكل وشرب ، وجماع».

وأخرج ابن جرير :

عن الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا ﴾ فى المجامعة والحب.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ .

قال : فى الحب، والجماع.

وأخرج ابن المنذر :

عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ﴾

قال : فى الجماع.

وأخرج عبد بن حميد :

عن عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾.

قال : فى الجماع.

وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره وابن جرير:

عن جابر بن زيد، قال : كانت لى امرأتان، فلقد كنت أعدل بينهما حتى أعد القبل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجرونهن فى المضاجع ﴾.

قال : لا تجامعها.

وأخرج ابن أبى شيبة والحاكم وصححه :

عن حذيفة قال: كيف أنتم إذا انفرجتم عن دينكم، انفراج المرأة عن قُبلها.

ولفظ ابن أبى شيبة : « تنفرج المرأة ».

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه ، والبيهقى ، وغيرهم :

عن ابن عباس قال : كان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا علي حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا ذلك عن فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحا، ويتلذذون منهن مقبلات مدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك . فأنكرته عليه، فسرى أمرها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ .

يقول : مقبلات ومدبرات ، بعد أن تكون فى الفرج.

وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره :

عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ .

قال : قائمة، وقاعدة، ومقبلة، ومدبرة، فى أقبالها .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، وابن جرير في تفسيره :

عن مرة الهمدانى أن بعض اليهود لقى بعض المسلمين، فقال : لتأتون وراهن - كأنه كره الإبراك - فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم ...﴾ . فرخص الله للمسلمين أن يأتوا النساء فى الفروج كيف شاءوا وأنى شاءوا من بين أيديهن ومن خلفهن.

وأخرج ابن جرير :

من طريق سعيد بن أبى هلال، أن عبد الله بن على حدثه، أنه بلغه أن أناسا من أصحاب النبى ﷺ جلسوا يوما ورجل من اليهود قريب منه، فجعل بعضهم يقول : إنى لآتى امرأتى وهى مضطجعة، ويقول الآخر : إنى لآتيها وهى قائمة، ويقول الآخر: إنى لآتيها وهى باركة.

فقال اليهودى : ما أنتم إلا أمثال البهائم، ولكنا إنما نأتيها على هيئة واحدة، فأنزل الله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ .

وأخرج عبد بن حميد :

عن الحسن، أن اليهود كانوا قوما حسدا، فقالوا: يا أصحاب محمد إنه والله مالكم أن تأتوا إلا من وجه واحد، فكذبهم الله فأنزل الله تعالى ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ .

فخلى بين الرجال وبين نسائهم، يتفكه الرجل من امرأته، يأتيها إن شاء من قبل قبلها، وإن شاء من قبل دبرها، غير أن المسلك واحد.

وأخرج البخارى ومسلم والترمذى :

عن جابر، قال : كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم ...﴾ .

وأخرج الإمام أحمد ، والدارمى فى مسنديهما، والترمذى وحسنه، والبيهقى ، وغيرهم :

عن أم سلمة، أن الأنصار كانوا لايحبون النساء، وكانت اليهود تقول : إنه من حبا امرأته، كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الأنصار، فحبوهن، فأبت امرأة أن تطيع زوجها، وقالت : لن تفعل ذلك حتى أتى رسول الله ﷺ فدخلت على أم سلمة، فذكرت لها ذلك، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فدعا الأنصارية، فتلى عليها ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ .

قال القاضى عياض : التحبئة : تكون على وجهين :

أحدهما : أن تضع يديها على ركبتيها وهى قائمة منتحبة على هيئة الركوع.

والآخر : أن تنكب على وجهها باركة.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيـــام الرفث إلى نسائكم﴾ .

قال : الجماع .

وأخرج عبد بن حميد

عن سالم بن عبيد الله أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ .

قال : هو الجماع.

وأخرج عبد بن حميد :

عن ابن عمر في الآية. قال : الرفث : الجماع.

وأخرج عبد بن حميد :

عن قتادة، والحسن، وعكرمة، قالوا: الرفث : غشيان النساء.

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر:

عن ابن عباس، قال : الدخول ، والتغشي ، والإفضاء، والمباشرة، واللماس، والرفث : الجماع، غير أن الله حيي كريم، يُكنى بما شاء عما شاء.

وأخرج عبد بن حميد :

عن عمرو بن دينار في قوله : ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث﴾ .

قال : الرفث : الجماع، وما دونه من شأن النساء.

وأخرج عبد بن حميد :

عن عطاء في الآية، قال : الجماع ، وما دونه من قول الفحش.

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد :

عن ابن عباس، قال : الرفث فى الصيام : الجماع ، والرفث فى الحج : الإغراء به.

وكان يقول : الدخول واللماس، والمسيس : الجماع.

وأخرج عبد بن حميد :

عن طاووس ، قال : لا يحل للرجل المحرم الإعراب : والإعراب : أن يقول لامرأته، إذا أحللت أصبتك.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد، قال : المباشرة فى كتاب الله : الجماع.

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر:

عن سعيد بن جبير، قال : كنا فى حجرة ابن عباس، ومعنا عطاء بن أبى رباح، ونفر من الموالى ، وعبيد بن عمير، ونفر من العرب، فتذاكرنا اللماس .

فقلت أنا وعطاء : اللمس باليد.

وقال عبد بن عمير والعرب هو : الجماع.

فدخلت على ابن عباس، فأخبرته.

فقال : غُلبت الموالى ، وأصابت العرب.

ثم قال : إن اللمس والمباشرة : إلى الجماع، فما فوق، ولكن الله يكنى ما شاء مما شاء.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد فى قوله ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ .

قال : مجامعة النساء.

وأخرج أبو بكر بن خلف المعروف بوكيع فى كتاب «العزيز من الأخبار :

عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ .

قال : من جماعه.

وأخرج ابن حبان فى تفسيره :

الكميت، يقول فى قوله تعالى : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ .

قال : امتنَّ.

وأخرج عبد بن حميد :

عن مجاهد فى قوله تعالى ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾

قال : الولد.

وأخرج البخارى :

عن محمد بن عباد عن جعفر، أن ابن عباس قرأ ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ ، قال : يا ابن عباس ما يثنون صدورهم ؟

قال : كان الرجل يجامع امرأته، فيستحى أو يبخل فيستحى، فنزلت ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ .

وفى لفظ، قال :كان أُناس يستحيون : أى يبخلون، فيفضون إلى السماء.

قال : يجامعون، فيفضون إلى السماء فنزلت فيهم.

وأخرج ابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر:

عن ابن عباس، يقول ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ .

قال : كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط، إلا وقد تغشوا بثيابهم، كراهة أن يفضوا بفروجهم.

وأخرج الشيخ ابن حبان :

عن محمد بن كعب فى قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ .

قال : فى ظلمة الليل، وظلمة اللحاف.

وأخرج سعيد بن منصور:

عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال له : « إذا قدمت على أهلك فالكَيس الكَيس».

وأخرج البخارى :

عن جابر، يقول : كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة، فلما قفلنا، تعجلت.

فقال : وما تعجلك؟

قلت : إنى حديث عهد بعرس.

قال: «فبكرا تزوجت أم ثيبا؟».

قال : « فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك».

وقال : « إذا دخلت فعليك بالكيس الكيس».

زاد ابن خزيمة :

فدخلنا حين أمسينا، فقلت للمرأة : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أعمل عملا كيسا.

قالت : سمعا وطاعة، فدونك ، فبت معها حتى أصبحت.

قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى :

جزم ابن حبان فى صحيحه، بعد تخريج هذا الحديث بأن الكيس : الجماع، على أن المراد بقوله الكيس الكيس : الإغراء على الجماع والحث عليه.

وقيل : المراد به التأنى والرفق، لأن فى بعض طرقه : « إذا قدمت ، فاعمل عملا كيسا ».

وقيل : المراد به طلب الولد، وبه جزم البخارى.

وقال بعض المصنفين فى الباءة :

لو لم يكن فى باب علم الباءة إلا حديث جابر، لكان كافيا فى متمماته كلها، فإنه :

أولا : مغر بحسن البعال.

وثانيا: مرغب فى تعلم ما أغرى به المصطفى ﷺ .

وثالثا : مضطراً إلى التفطن من مادة الكيس لما تتميز به مباضعة الأكياس، وهم البشر عن سفاد الطير، وجنس النعم ونزو السباع وعظال الكلاب، وضراب البهائم.

ورابعا : مؤكد لإفادة ذلك، وتعليمه، وبيانه، والتنبيه له، والحث عليه.

فأصل الجماع : يكفى فيه الطبع، ودواعيه اتحاداً وكيفاً وكماً، ولا يحتاج إلى الكيس والفطنة، إلا تحسينه المشهى لفوائده التامة، وبالتكايس تتأتى وجوهه الجيدة، فلا أقل من تنبيه الأذكياء لها، ولا إيماء، فلو أهمل التنبيه والإيماء إليها من أجل فطنة وذكاء ، لأهملت وتركت مع جابر رضى الله عنه وذكائه وفطنته.

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول :

عن مجاهد، قال : إذا جامع الرجل ، فلم يسم، انطوى الجان على إحليله، فجامع معه.

وأخرج أبو يعلي :

عن أنس، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جامع أحدكم أهله، فليصدقها، فإن سبقها(1)، فلا يعجلها(2)».

وأخرج ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف :

عن قيس بن طلق، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا جامع أحدكم أهله فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها، كما يحب أن تقضى حاجته ».

قال الغزالى فى الإحياء : من آداب النكاح الذى حض رسول الله ﷺ عليها: إذا قضى الرجل وطره، فمن الأدب أن يمهل المرأة حتى تقضى أيضا هى وطرها، فإن إنزالها قد يتأخر عنه فالقعود عنه إذا ذاك إيذاء لها.

قال: والاختلاف في وقت الإنزال، يوجب التنافر، مهما كان الزوج سابقا، وإن سبقت هى لا يضر الزوج .

قال : والتوافق فى وقت الإنزال ، ألذ للمرأة.

---

(1) أى فى الإنزال .

(2) أى فلا يتركها حتى تنزل الماء وتأتى شهوتها .

وأخرج ابن عدى .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليعجب من مداعبة الرجل زوجته، فيكتب لهما بذلك الأجر، ويجعل لهما به رزقا».

وأخرج ثابت السرقطى فى الدلائل :

عن محمد بن عبد الرحمن الزهرى، عن أبيه عن جده، أن رجلا قال : يا رسول الله أيراكد الرجل امرأته ؟

قال : « نعم إذا كان ملفجا».

قال أبو بكر : يارسول الله ﷺ ما قال وما قلت له ؟

قال : « أيماطل الرجل امرأته ؟ قلت : نعم إذا كان مُلسا ». فسره بعضهم: بالجماع ، لأنه المقصود الأعظم للمرأة.

ومعنى الحديث : أنه إذا كان ضعيف الشهوة، تؤخره، ويداعبها، حتى تتحرك شهوته.

وأخرج ابن عدى :

عن عائشة أن رسول الله ﷺ «كان إذا قبل بعض نسائه مص لسانها».

وأخرج :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأم عطية : «إذا خفضت فاشمى ولا تنهكى ، فإنه أضوأ للوجه وأحظى عند الزوج ».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أم عطية الأنصارية أن رسول الله ﷺ : «أمر جارية أن تختتن فإذا ختنت، فلا تنهكى ، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل».

وأخرج ابن عدى والبيهقى :

عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ : «يا نساء الأنصار اختضن غمسا واخفضن ولا تنهكن ، فإنه أحظى لأيامكن عند أزواجهن وإياكن وكفر المنعمين».

وأخرج الحاكم :

عن الضحاك بن قيس قال : كانت بالمدينة امرأة تخفض النساء ، يقال لها: أم عطية، فقال لها رسول الله ﷺ : «اخفضى ولا تنهكى ، فإنه أنضر للوجه، وأحظى عند الزوج(١)».

وأخرج ابن عدى :

عن عمر عن النبى ﷺ قال : « تخيروا لنطفكم وعليكم بذوات الأوراك، فإنهن أنجب ».

وأخرج ابن الجوزى فى كتاب أخبار عمر بن الخطاب : العجيزة أحد الوجيهن.

وأخرج الذهبى فى فضل العلم :

عن ابن شبرمة، قال : زين الرجال النحو : وزين النساء الشحم.

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف :

عن ابن عمر، أنه كان إذا رأى الأمة تباع فى السوق، نظر إليها وضرب على كفلها.

وعن ابن عمر، أنه قال لجارية له : تجردى وأقبلى وأدبرى، وللتآلف. وأورده النووى فى تعليقه على التنبيه.

---

(١) أى اقطعى الجلدة الزائدة فى البظر. ولا تقطعى من البظر نفسه.

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول :

عن زهرة بن معبد قال : سمعت محمد بن المنكدر يدعو، يقول : اللهم قوى، فإن فيه منفعة لأهلى.

وأخرج ابن جرير عن السدى قال :

كان عثمان بن مظعون، حرم النساء، كان لا يدنو من أهله، فذكرت امرأته ذلك لعائشة، فذكرت عائشة ذلك للنبى ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام حرموا النساء ، والطعام، والنوم، ألا إنى أنام، وأقوم، وأفطر، وأصوم، وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ .

وأخرج البيهقى فى الدلائل :

عن ابن عمر أن امرأة قالت : يا رسول الله إنى إمرأة مسلمة، ومعى زوج لى فى بيتى مثل المرأة.

فدعاه النبى ﷺ فقال : « ما تقول امرأتك ؟».

فقال : والذى أكرمك ، ما جف رأسى منها .

فقالت امرأته : ما مرة واحدة فى الشهر ؟ دعا لهما النبى ﷺ فقال : «اللهم ألف بينهما وحبب أحدهما إلى صاحبه ».

وأخرج ابن عدى فى الكامل :

عن سهبا عن ذكوان أن امرأة استعدت على زوجها عند ابن الزبير.

فقالت : إنه لا يدعها فى حيض ولا فى غيره.

ففرض لها ابن الزبير أربعا بالليل وأربعا بالنهار.

فقال : لا يكفينى يا ابن الزبير، فتمنعنى ما أحل الله لى.

قال : إذا أسرفت.

وأخرج ابن سعد فى الطبقات :

عن على بن أبى طالب، قال : كفيتكم من النساء الحارقة، فما ثبتت منهن امرأة إلا أسماء بنت عميس.

قال فى النهاية : هى المرأة الضيقة الفرج.

وقيل : التى تغلبها الشهوة حتى تحرق ثيابها بعضها على بعض، أى تحكمها، يقول : عليكم بها.

ومنه حديثه الآخر : وجدتها حارقة، طارقة، فائقة.

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فضلت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين جزءا من اللذة، ولكن الله ألقى عليهن الحياء ».

وأخرج الطبرانى فى الأوسط :

عن ابن عمر، قال : قال رسول الله ﷺ : «فضلت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين من اللذة، ولكن الله ألقى إليهن الحياء ».

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه :

عن عبد الله بن بريدة، قال : ينبغى للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً.

ينبغى له : أن لا يدع المشى، فإن احتاج إليه يوما يقدر عليه.

وينبغى له : أن لا يدع الأكل، فإن أمعاءه تضيق.

وينبغى له : أن لا يدع الجماع، فإن البئر إذا لم تنزح ذهب ماؤها.

وأخرج أبو عمر التوقانى فى جُزء البطيخ بسنده :

عن ابن سيرين ، قال : الرفق فى كل شىء حسن إلا فى ثلاث : فى أكل الرمان، وأكل البطيخ، والجماع.

عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ عربا ﴾ .

قال : هى الغنجة.

وأخرج ابن أبى حاتم :

عن عكرمة قال : العربة ، هى : الغنجة .

وأخرج ابن جرير :

عن زيد بن أسلم قال : العربة، هى : الحسنة الكلام.

وأخرج ابن جرير :

عن تميم بن جدام قال : العربة : الحسنة التبعل.

وأخرج ابن المنذر :

عن مجاهد قال : هى الغلمة.

وأخرج :

عن عبد الله بن عمير، قال : هى التى تشتهى زوجها.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه :

عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث النوفلي، أنه سئل عن العروب من النساء؟

فقال : الحفرة المبتذلة لزوجها .

وأنشد :

يُعربن عند بعولهن إذا خلواً وإذا هم خرجوا فهن خفار(١)

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان :

عن على ، قال : قال رسول الله ﷺ «جهاد المرأة حسن التبعل لزوجها».

وأخرج البيهقى :

عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها قالت : يا رسول الله إنكم معاشر الرجال فضلتم علينا، بالجمعة، والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله.

فقال رسول الله ﷺ «إن حُسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله ».

وأخرج ابن عدى :

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:«خير نسائكم العفيفة الغلمة».

وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس :

عن على مرفوعا: « إن الله يحب المرأة الملقة البزغة اللبقة».

وفى القاموس : اللبقة : الحسنة الدل، والدل ، هو : الغنج.

---

(١) يتصفن بالحياء عند غير أزواجهن .

وفى ربيع الأبرار للزمخشرى :خير نسائكم العفيفة فى فرجها، الغلمة لزوجها.

وأخرج البيهقى فى الدلائل :

عن مازن أنه قال : يارسول الله إنى مُولع بالهلوك من النساء .

قال ابن فارس فى المجمل : الهلوك : الغنجة.

وقال ابن الأثير فى النهاية : هى التى تتمايل وتتثنى عند جماعها.

وقال فى القاموس : هى الحسنة التبعل لزوجها، وهى أيضا الفاجرة، المتساقطة على الرجال.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه بسنده :

عن عبد الله بن محمد، قال : راود معاوية زوجته، فاختة بنت قرظة، فنخرت نخرة شهوة، ثم وضعت يدها على وجهها.

فقال : لا سوءة عليك، والله لخيركن الشخارات النخارات.

وأخرج ابن عساكر : فى ترجمة محمد بن وضاح الأندلسى أحد أئمة المالكية من طريقه قال :

سمعت سجنون يقول : سمعت أشهب يقول : أغنج النساء المدنيات.

قال السيوطى : ولى فى هذا النوع تأليف يسمى : [شقائق الأترنج] مشتمل على لطائف وفوائد، وبعضها يأتى فى نوع النوادر والأخبار من هذا الكتاب.

وأخرج ابن عدى ، والبيهقى فى شعب الإيمان :

عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : «السباع حرام ».

قال ابن لهيعة : يعنى المفاخرة بالجماع.

وأخرج ابن عدى :

عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ « نهى عن السباع ».

والسباع : المباهآة بالنكاح.

وأخرج أبو يعلى، والطبراني، والبيهقى فى البعث والنشور :

عن أبى أمامة أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : هل يتناكح أهل الجنة ؟

فقال : « نعم بذكر لا يمل ، وشهوة لا تنقطع دحما دحما ».

وفى لفظ : « دحاما دحاما، لا منى ولا منية ».

وأخرج الحارث فى مسنده، وابن أبى حاتم :

عن الهيثم الطائى وسليم بن عامر، أن النبى ﷺ سئل عن البضع فى الجنة؟

فقال : « نعم بقبل شهى، وذكر لا يمل ».

وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، والبزار :

عن أبى هريرة أن النبى ﷺ سئل هل يمس أهل الجنة أزواجهم ؟

قال : « نعم بذكر لا يمل، وبفرج لا يحفى ، وشهوة لا تنقطع ».

وأخرج الضياء المقدسى فى صفة الجنة :

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أنطأ فى الجنة ؟

قال : «نعم، والذى نفسى بيده دحما دحما، فإذا قام عنها، رجعت مطهرة بكرا».

وأخرج البزار، وأبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى فى الصغير :

عن أبى سعيد الخدرى، قال : قال رسول الله ﷺ : «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم، عادوا أبكاراً ».

وأخرج الترمذى والبيهقى :

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « «يعطى المؤمن فى الجنة قوة مائة فى الجماع ».

وأخرج أبو يعلي والبيهقى :

عن ابن عباس، قال : قبل يارسول الله ، نفضى إلى نسائنا في الجنة كما نفضى إليهن فى الدنيا.

قال : «والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليفضى بالغداة الواحدة إلى مائة عذراء ».

وأخرج ابن أبى الدنيا، وابن أبى حات :

عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ .

قال : فى افتضاض الأبكار.

وأخرج ابن أبى الدنيا : عن ابن مسعود مثله.

وأخرج البيهقى : عن عكرمة، والأوزاعى ، مثله.

وأخرج الأصبهانى فى ترغيبه :

عن أبي الدرداء، قال : ليس فى الجنة منى ولا منية.

وأخرج الطبرانى :

عن زيد بن أرقم، أن النبى ﷺ قال : « إن البول والجنابة، عرق يسيل من تحت ذوائبهم إلي أقدامهم مسكا ».

وأخرج أبو نعيم فى الحلية :

عن سعيد بن جبير، قال : كان يقال : إن طول الرجل من أهل الجنة تسعون ميلا، وطول المرأة ثمانون ميلاً، وجلستها حريب، وإن شهوتها لتجرى فى جسده سبعين عاماً، يجد لذتها.

وأخرج ابن عساكر :

عن أبى سليمان الدارانى ، قال : إن فى الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور، ينشئ الله خلق إحداهن إنشاء فإذا تكامل خلقها، ضربت الملائكة عليهن الخيام، جالسة على كرسى ميل فى ميل، قد خرجت عجزتها من جوانب الكرسى، فيجىء أهل الجنة من قصورهم يتنزهون ما شاؤا، ثم يخلو كل رجل منهم بواحدة منهن.

التعدد الحرام (١)

لا شك أن من التزيد والافتئات على الحقيقة أن يمتطى إنسان هواه، ثم يبحث لنفسه عن برهان من الشرع، ودليل من التنزيل، ليشهره فى وجوه من تسول لهم أنفسهم أن ينكروا عليه.

---

(١) مجلة ماجر العدد ٢٥ بتاريخ ١٠ يونيو ١٩٩٨ .

وأن يقبل الشيء حينما تملأ الريح أشرعته وتجرى رخاء لمصلحته ، ويرفض الشيء نفسه حينما تجرى الرياح بما لا يشتهى أو يبتغى .. فذلك أيضاً من التزيد والافتئات بل هو من ضروب النفاق وفساد الطوية.

* بعد غياب يعود أبو الفوارس من شهر العسل الذى يفتتح به عهده مع زوجه الثالثة .. تسبقه رائحة خبيثة تنبعث من شدقيه، ويشى به تُرنحه .. تقابله القديمة غضبى لائمة، فيصرخ فيها :

وما شأنك أنت ؟ أو ليس الشرع قد أباح لى أربع زوجات ؟!

* رجل يبلغ من العمر ستين أو سبعين أو ثمانين عاما .. يبحث عن زوجة تعيد له شبابه الغارب فإذا أنكرت ضعفه وزوال منته قال ماذا بك ؟.. أو ليس الشرع قد أباح لى أربع زوجات ؟!

* شاب فقير (دقة تحل له الصدقة، له ذرية ضعفاء ، يعس هنا وهناك بحثاً عن زوج، فإذا ناقشته ، نظر فى وجهك مستغرباً وهو يقول : ماذا جرى لك؟ أو ليس الشرع قد أباح لى أربع زوجات ؟!

* رجل شرس سيىء الخلق، يهجر زوجه وأولاده شهوراً طوالاً، بلا مال وبلا زيارة، وبلا مكالمة هاتفية .. يصل إلى مسامعك أنه يعرس للمرة الرابعة، فإذا تغير لونك قيل لك :

ما دهاك ؟ .. أو ليس الشرع قد أباح لى أربع زوجات ؟!

وتمر هذه المقولة – ربما للمرة المليون – وكأنما هى مُسلَّمة لا تقبل المناقشة والنقض، فهل يجوز – حقاً – لأى من أولئك النفر أن يجمع أربع زوجات ؟!.

* هل شرع هذا الحكم لعجوز منحن كعرجون قديم، أعشت الشيخوخة عينيه، وأوهت الأيام عظامه، وأصبح من القبر قاب قوسين أو أدنى ؟

* وهل يجوز ذلك لسكير فويسق ، لا يجمع عقله ساعة، ولا يقيم الصلاة، ولا يعرف من الإسلام إلا أنه يبيح إمساك أربع ؟

* وهل يحل لغشوم ظلوم ، بذيىء اللسان ، سيىء العشرة، لا يقيم وزنا لمسؤولية نحو زوج أو ولد ، ويظن أن الرجولة فى الصراخ والنهيق وضرب العصى وكسر العظام ؟

* وهل يصلح لفقير معدم لا يستطيع أن يقوم بأمر أسرة، فضلاً عن اثنتين أو ثلاث ؟!

كل هؤلاء من الثغر التى ينفذ منها المفسدون للطعن فى الإسلام وهم أشبه بالعظمة التى لها يتوق الكلاب والكلبظية - الكلابجية بلغة الترك - رغم تجانبهم عن حكم الإسلام ، فإن الشريعة قد اشترطت الباءة والعدل والدين.

* وإن الذى يعجز بدنياً أن يقوم بأمر امرأة لا يحل له أن يتزوج ، ولو للمرة الأولى.

* والذى يخاف ألا يعدل يحرم عليه أن يتزوج ثانية ، فضلا عن رابعة.

* والفاسق السكير الذى يظلم نفسه وغيره يتعدى حدود الله تعالى والإجتراء على محارمه قد نهانا المصطفى ﷺ عن تزويج بناتنا منه، فإن ذلك قطع للرحم مجلبة للعن.

* والفقير غير الواجد - وخصوصاً فى أيام بات الرجال يوزنون فيها بجيوبهم لا بأخلاقهم، وبأرصدتهم لا بأصولهم - يحرم أن يزوج ، لأن الاستطاعة شرط وضعه سيد الخلق ﷺ .. وإن كان هذا أهون الصور جميعاً،

وأرجاها بالتحسن والقبول.

إن للتعدد مقاصد، وحكماً غير ما يلويه له البشر، من أهمها أنه شرع لإصلاح خلل نفسى أو وظيفى أو إجتماعى... فأحيانا ما يكون لصالح المرأة، وأخرى لصالح الرجل ، ودائما لصالح المجتمع المسلم الذى ينبغى أن تمضى العلاقات فيه سوية نقية.

* إن كثيرا من النساء تحل مشاكلهن بالتعدد.

وكثير من الرجال تستقيم أمورهم بالتعدد.

* والإسلام يحب الحلال الطيب لا الخبيث الدنس ..

* ويضبط العريزة، ويوجهها فى مسار إنسانى يرعى جملة من المصالح.

ولا يبيح إتخاذ العشيقات الخدينات، ليعود (سبع البرمبة)، فتنظف له القديمة آثار العدوان على الزوجية الشريفة من بقايا شعر أو أصباغ أو ورق كلينكس.

* ويحفظ ثمرة العلاقات الفطرية، فلا يهدها، ولا يفتئت على حقوقها ولكن .. لكن من قواعـده تقديم دفع المفسـدة على جلب المصلحة فهو يبيح التعدد .. نعم، لكن ممن ؟ هل من المعقول أن يأمرنا ربنا عز وجل وهو اللطيف، أن نرمى بناتنا لسكير أو مفلس أو ظالم غشوم ؟!

انتبهى أيتها المسلمة .. وانتبه أيها الولى المسلم ..

فإن فى يديك أمانات سيسألك الله سبحانه عن حفظها أو تضييعها.

فانظر ماذا أنت فاعل لربك – عز وجل – يوم تلقاه.

ألا هل بلغت ؟! اللهم فاشهد ..

الآراء الواردة في هذا الكتاب
تحت مسؤولية المؤلف ولا يشترط أن تعبر وتوافق رأى الناشر

الفهرس

تابع الفهرس